

دلالة ألفاظ

دكتور إبراهيم أنيس

١٩٧٦

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية

دَلَالَةُ الْاَلْفَاظِ

تأليف

دكتور إبراهيم أنيس

الطبعة الثالثة

١٩٧٦

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصليح

حين فُكرت في إعادة طبع هذا الكتاب لم أجد
ما أُصدّر به هذه الطبعة خيراً من التوثيق بما لقيه
الكتاب من تقدير في الأوساط العلمية ، فقد حاز
جائزه الدولة التشجيعية للأدب عام ١٩٥٨ .

المؤلف

مقدمة

عرض أهل الفلسفة والمنطق في بحوثهم إلى دراسة الألفاظ ودلالاتها ، وصادفوا في شأنها بعض العنت والمشقة حين حاولوا أن يصبّوا تأملاتهم وخواطرهم في ألفاظ محددة للدلالة ، فصالوا وجالوا بين الجزئي والكلّي ، والمفهوم والمصدق ، وعقدوا الفصول الطوال في التعريف وحدوده ، ومحاولة جعله جامعاً مانعاً كما يعبرون . ثم لم تسعفهم دائماً اللغات ، وقصرت دلالة بعضها عن تحقيق ما يحول في أذهان هؤلاء الفلاسفة . وكأني بهم وقد تمنّوا لو اصطنعوا الرموز في بحوثهم بدلا من تلك الألفاظ المألوفة الشائعة ليتجنبوا ما يثور بينهم في كثير من الأحيان من جدل ونقاش حول حدود كلمة من الكلمات ، أو دلالة لفظ من الألفاظ ، وغير ذلك مما حمل الداعين إلى المؤتمر العالمي للنحويين في كمبردج سنة ١٩٥١ على أن يضعوا في بروجرام المؤتمر العنصر التالي للبحث والدراسة :

« موقف اللغة من الفلسفة والمنطق ، رجاء الاهتمام إلى نظام منطقي يستقل في تكوينه عن النظام النحوي في اللغات ، ورجاء الوصول إلى الأسس التي عليها يمكن أن يتحدد وأن تعرف أجزاء الكلام » .

وقد تجنب بعض الباحثين الاعتماد على ألفاظ اللغة في علاجهم للنظام المنطقي في اللغة ، واصطنعوا من أجل هذا رموزاً وإشارات أشبه برموز الرياضيين ومصطلحاتهم ، حتى لا تكون آراؤهم متأثرة بما في دلالة الألفاظ من قصور ، وما يكتنفها في كثير من الأحيان من ظلال المعاني التي تختلف باختلاف الناس^(١).

(1) Carnap, Rudolf :
The Logical Syntax of language .

وكان أهل الرياضة من العرب القدماء يتخذون الألفاظ للتعبير عن معادلاتهم الرياضية ، كالخوارزمي أحد علماء العرب في القرن الثالث الهجري - فقد عثر له على مخطوط بعنوان « الجبر والمقابلة » ونشر المخطوط وعلق عليه منذ سنوات عالمان جليلان من علماء الرياضة في مصر (١) .

ويتضح من هذا الكتاب أن الخوارزمي كان يستعين في تصنيف معادلاته الجبرية بالألفاظ ، فكان يطلق على الرمز الجبري « س » كلمة « الشيء » ، ويسمى « س^٢ » بكلمة « المال » ، ويسمى العدد الخالي من مجهول جبري بالعدد المفرد أو المطلق .

ثم هجر الرياضيون ألفاظ اللغات ، وقنعوا برموزهم المشهورة تخلصاً من أى احتمال لسوء الفهم أو اضطرابه تبعاً لاختلاف الدارسين في حدود الدلالة للألفاظ ، بل اختلاف الألفاظ باختلاف اللغات في العالم . ولذا أصبحت رموزهم ومصطلحاتهم بمثابة اللغة العالمية ، فلا يصيبها الغموض أو الإبهام ، وليست بينهم موضع الجدل أو النقاش .

وكذلك يمرض أصحاب علم النفس إلى دراسة الألفاظ ودلالاتها ، فيذهبون فيها مذاهب ، ويؤلفون حولها آراء ونظريات ، تتصل بالشعور وشبه الشعور واللاشعور ، وبالذاكرة والتصور والتخيل وتداعى المعانى ، وغير ذلك من بحوث مستفيضة في كتبهم ورسائلهم .

فالألفاظ لاتصلها الوثيق بالتفكير كانت ولا زالت مجالاً هاماً للدراسة الفلسفية ، وهى لصاتها بالعقل والماطفة يتناولها أصحاب علم النفس ، ولكنها قبل هذا وذاك عنصر من عناصر اللغة ، ولذا يعرض لها اللغويون أيضاً في بحوثهم ، ويتناولونها من زوايتهم الخاصة ، وإن كانت دراسات كل هؤلاء من

(١) الدكتوران على مشرفة ، محمد مرسى .

أهل العلم تشابك حدودها ، وتقتارب في بعض نواحيها حين تعرض الألفاظ ودلالة الألفاظ .

ونحن في كتابنا هذا نسلك مسلك اللغويين في بحث الدلالات ، ونعالجها كما يعالج اللغوي الحديث ذلك الفرع من الدراسات اللغوية المسمى لدى الأوروبيين Semantics ، وتلك دراسة حديثاً المولد نسبياً بدأها « بريل Bréal » في أواخر القرن التاسع عشر في رسالته التي سماها Essai de Sémantique وفيها عني ببحث الدلالة في بعض ألفاظ اللغات القديمة التي تنتمي إلى الفصيلة الهندية - الأوربية ، كال يونانية واللاتينية والسنسكريتية ، وخلص من بحثه إلى نتائج هامة ، وقواعد عامة في حدود الدلالة وتطورها .

غير أن دراسة اللغويين للدلالة في بادئ الأمر قد اقتصرت على الناحية التاريخية الاشتقاقية للألفاظ ، كأن تقارن الكلمة بنظائرهما في الصورة والمعنى حتى يتسنى إرجاعها إلى أصل معين تفرع إلى عدة فروع في لغة واحدة أو أكثر من لغة ، ولم تنجبه عناية الدارسين حينئذ إلى الجوانب الاجتماعية وأثره في تطور الدلالات والصور ، ولا إلى المظاهر الإنسانية الأخرى ذات الأثر البين في تغيرها وانحرافها ، أي أنهم عفاوا بالعناصر الداخلية في الألفاظ ولم يفتنوا إلى العوامل الخارجية عنها .

ثم تطورت دراسة Semantics في السنين الأخيرة ، وبدأ الدارسون يتجهون إلى العوامل الخارجية ذات الأثر في الألفاظ من إنسانية واجتماعية ، وأخذوا يتساءلون عن الأسباب التي جعلت بعض الكلمات تفكك في دلالتها ، وأخرى تتحد بعد سموها . وأرجعوا كل هذا إلى عوامل ودوافع مرت في تاريخ الأمم ، وأدت إلى مثل ذلك التطور والتغير .

ومن الدارسين المحدثين فريق عفاوا كل العناية بالنفس الإنسانية وبالعاطفة ، ورأوا أن العاطفة قد تظلل بعض الألفاظ بظلال خاصة حين يستعملها الفرد ، وأن

هذه الظلال تختلف باختلاف الناس وتجاربهم في الحياة . ثم تبين لهم أن الاستعمال الفردى الشخصى قد يصادف هوى في نفوس جماعة من المستمعين ، فيقلدونه ويذيع بينهم ، ويترتب على ذبوعه وشبوعه نوع من التطور فى الدلالة .

ولعل أحدث المحاولات فى دراسة الدلالة أن يعمد الدارس إلى مجموعة من الألفاظ التى تنتمى إلى مجال واحد ، ثم يتوفر على دراستها ليتبين منها تلك التى تمت دلالتها ، وتلك التى انكسشت فيها تلك الدلالة أو اختفت بمرور الأيام . وخير مثال لهذا تلك المحاولة التى قام بها أحد العلماء الألمان فى بحث ألفاظ الذكاء التى وردت فى نصوص القرون الوسطى للغة الألمانية . وكتلك المحاولة التى عنى فيها أحد الباحثين بدراسة الكلمات المتصلة بالأخلاق والفضيلة فى شعر « تشوسر » . وفى رأى هؤلاء الدارسين أن مثل تلك المحاولات أجدى وأنفع من دراسة الكلمات منفردة منعزلة عن مجالها وعن عصرها (١) .

ولما كان العام ١٩٢٣ ظهر كتاب The Meaning of Meaning لمؤلفيه Richard و Ogden ، وفيه يعالج المؤلفان مشا كل الدلالة من نواحيها المتعددة المعقدة ، ويبحثانها فى ضوء النظم الاجتماعية وفى ضوء علم النفس من شعور وعاطفة ، مما جعل لكتابهما قيمة علمية جليلة الشأن بين الدارسين لدلالة الألفاظ .

ولم يكذب يقضى النصف الأول من القرن العشرين حتى شهدنا قوما من غير اللغويين يقتحمون مجال البحث الدلالى ، وفيه يدلون بدلوهم متأثرين فى ذلك بما احترقوه من مهن ، أو تخصصوا فيه من دراسة .

فما لم الطبيعة « برديمان » Bridgeman (٢) يحدثنا أنه وأمثاله من علماء

(1) The Gift of Tongues. p. 127.

(2) The intelligent individual and Society.

الطبيعة يقفون أمام كلمات مثل « الزمان ، المكان ، الصوت » موقفاً مبايناً لما يشيع بين جمهور الناس، ويفهمونها فهماً خاصاً ، ومن رأى هذا الباحث أن الدلالة يجب أن تخضع للتجربة كما تخضع لها الظواهر الطبيعية في العامل ! ؟ فإذا لم تخضع إحدى الدلالات للتجربة وجب اعتبار كلماتها ممساة لا معنى له !! فكلمات مثل الديكتاتورية ، الديمقراطية ، والحرية ، إذا لم يبرهن على وجودها عن طريق التجربة عدت عبثاً وهراء ووجب إهمالها !!

كذلك اصطفت دراسة « ثورمان أرنولد » Thurman Arnold ^(١) بعمله كرجل من رجال القانون حيث يحدثنا عن سيطرة الألفاظ علينا وخضوعنا لها خضوعاً يشبه الرق والعبودية ، ثم يأسفنا من علاج هذه الحال ، ولم يجد لنا مخرجاً منها إلا بدواء مؤقت يمكن أن نستمد منه من تحديد الدلالات .

أما أولئك الصحفيون من هواة البحث اللغوي ^(٢) فقد نزلوا بالبحث الدلالى إلى مستوى جمهور الناس ، وأوحوا إليهم بأمال كبار عن طريق البحث في الدلالة؛ لأنه في رأيهم سيؤدى إلى تجنب ما يصيب الإنسانية من ويلات ، وإلى علاج مقاعب البشر من منازعات أو خصومات أو حروب !! وهم في علاجهم متأثرون بجوهر الصحفي وما فيه من إسراف في عرض المسائل . ولذا كانت كتاباتهم أشبه بمحاولات الهواة منها ببحوث العلماء المتخصصين . وتبدو مغالاة هؤلاء الهواة من الصحفيين حين يؤكدون لنا في حديث مسهب أن سر التعاسة بين بنى الإنسان في هذه الدنيا يعزى أولاً وقبل كل شيء إلى تباين الناس في دلالة الألفاظ واختلاف فهمهم لها ، وافتقاد الأسس والمقاييس المشتركة في أذهانهم نحو تلك الدلالة ، مما أدى إلى الجدل والنقاش حيناً ، والنزاع والشجار حيناً آخر ، في تعاملهم بعضهم مع بعض ، ومما ترتب عليه أن المرء في بيئة معينة لا يكاد

(1) The folklore of Capitalism

(2) Science and Sanity, by Korzybski; & Tyranny of Words, by Stuart Ghase

يفهم أخاه من نفس البيئة . وهم في إسرافهم ومغالاتهم يتصورون أن الناس في معاملاتهم يقنعون عادة بنوع من الفهم التقريبي ، ويتمرضون لسوء الفهم في كثير من الأحيان . ويرون أن لا سبيل إلى خير الإنسانية ، إلا بتحديد مدلولات الألفاظ تحديداً دقيقاً بحيث لا تحتمل خلافاً أو نزاعاً ، وبحيث تتضح في ذهن الإنسان وضوحاً لا يدع مجالاً لأي شك أو سوء فهم .

وفي الحق أن تلك الألفاظ التي ابتدعها الإنسان وأراد بها أن تكون مصدر خير ونعمة ، كانت في كل عصور التاريخ ومازالت مصدر وبلاات ونقمة أيضاً على البشرية . فهي في نشأتها الأولى ولدى الإنسان الأول لم تكن تهدف إلى فهم أو إقناع ، بل كانت في رأى جمهور كبير من المحدثين مجرد أصوات أو مجموعات صوتية يصدرها جهاز النطق للهو واللعب والغناء ، ثم اكتسبت الدلالة ولا شك ندرى في صورة مؤكدة كيف تم هذا ، وكل الذى ندرى أن الإنسان في عصوره التاريخية قد اتخذ من تلك الألفاظ وسيلة للتفاهم ، واتصال الناس ببعضهم ببعض في حياة اجتماعية مرت بأطوار وأطوار حتى صارت على نحو ما نرى الآن . والألفاظ منذ أقدم عصورها التاريخية قد اصطنعت للتعامل بها فكانت بمثابة العملة ، منها الفضى ومنها الذهبى ، ومنها الصحيح ومنها الزائف ، والمتعاملون بها منهم الفقير ومنهم الغنى ، ومنهم الصحيح بها والبذر لها . ومع هذا أو رغم هذا فقد يسرت تلك الألفاظ سبل الاتصال بين أفراد المجتمع البشرى ، وارتقت بالذهن الإنسانى فوق مستوى الحيوان أو العجهاوات .

ولكن الإنسان في تعامله بالألفاظ لم يكن مخلصاً دائماً ، ولم يلتزم حدودها دائماً ، فإذا شاء التضليل والخداع واللفاق لجأ إلى تلك الألفاظ فاستمد منها أدواته ، وإذا جنح إلى الشر أو السكر أو الفتنة وجد في تلك الألفاظ ما يستعين به ، فلم ينطبق ما يدور في خله على ما ينطق به ، مما حمل بعض المتشائمين من اللغويين مثل «تاليراند» على القول «إنما يتكلم الإنسان ليخفى ما يدور في ذهنه وما

تختلج به خواطره ومثل « كريكنجارد » حين يقول :

[إن اللغة قد تستعمل في كثير من المناسبات ليستتر المتكلم بها خلوه من
الأنكار والمعلومات ^(١)] !!

ويكتسب الإنسان ألفاظ اللغة ودلالاتها في تجارب كثيرة من تجارب
الحياة ، معها تتشكل الدلالات وتقلون وتظلل بظلال مقبـايـفة ، ثم تستقر على
حال عندها يتبنى المرء لكل لفظ دلالة معينة هي جزء من عقله ومن نفسه .
فتصبح تلك الألفاظ الصوتية كالـ « كـ » الحى رباه أهله وتعـبوا في تربيته حتى استقام
على عوده ، وصار يحل فخارهم وإعجابهم . وكذلك الناس مع الألفاظ.
لا يكادون يرون فيها مجرد رموز صوتية تعبر عن الأشياء والكائنات ، بل
هي في رأيهم نفس الأشياء والكائنات .

ويؤثر كل منا سلاسل خاصة من تلك الأصوات اللغوية ؛ كما يؤثر كل منا
نواحي معينة من دلالات الألفاظ ، ونستمسك بهذه وتلك ونذود عنها في كل
نقاش أو جدل . فإذا كنا بصدد وضع ألفاظ الحضارة الحديثة فقد تقـباين آراؤنا
حول أصوات اللفظ أو حول مدلوله ، وإذا كنا في مجال النقد الأدبي فقد تعدد
المذاهب ووجوه الرأي . ومرجع كل هذا إلى التجارب الشخصية مع الألفاظ ،
واختلافها في حياة كل منا .

ومع أن رقى الحياة العقلية في كثير من الأمم قد حددت من الدلالات
وخلصها من كثير من الظلال التي كادت تطمس معالمها ، يبدو أنه لا سبيل إلى
الخلاص من متاعب الدلالات إلا باصطناع وسيلة أخرى غير الكلام للفهم
والاتصال الذهني بين أفراد المجتمع . وذلك كأن يوهب المجتمع مثلا نوعا من
الفهم الروحي الذي يكفى فيه مجرد النظر بين اثنين ليدرك كل منهما ما يدور

(١) Jespersen ; Mankind, Nation & Individual p. 12. .

بخلد الآخر . فلو أن كلاً منا وهب من الاستعداد الفطرى أو الفزى ما يكفل إدراك ما يخطر بذهن الآخر بمجرد الاتجاه إليه بذهنه وعقله سواء كان حاضراً أو غائباً ، لأمكن حينئذ أن يتم التفاهم بين الناس دون وساطة من تلك الرموز الصوتية ، ولتخلصت الإنسانية من دلالات ألفاظ كالنفاق والرياء والكذب والتضليل ، وغيرها من تلك التى شوهت حياة الإنسان فوق الأرض ، وجعلت لحياته ظاهراً وباطناً ، مما أحل البغض والكراهة والنفور محل الود والإخلاص والمحبة بين بنى البشر .

أما بعد : فلعل الله أراد بنا خيراً إذ لم يطلعنا على حقيقة ما يدور بالأذهان والعقول ، وإذ وهبنا تلك القدرة التى ساعدتنا على استنباط الألفاظ فى التفاهم ، نفخى عنا فى بعض الأحيان حقيقة ما يدور فى الذهن وما تضمه النفس ، وجنبنا شراً أكبر بشر أصغر ، مما جعل منا مجتمعاً إنسانياً راقياً يسوسه التعاون والتآخى وإن لم نبلغ فيه الناية من السعادة والوثام .

سنة ١٩٥٨

إبراهيم أنيس

الفصل الأول

نشأة الكلام

لم يظفر بحث من البحوث اللغوية بقدر وفير من التأمل والتفكير مثل الذى ظفرت به نشأة اللغة . ومع هذا فقد كانت النتيجة دائماً سلبية ، ولم يهتد الباحثون بعد كل ما بذلوه من جهد إلى رأى يجمعون عليه أو يطمثنون إليه . ففي كل العصور ، ومنذ الحضارة الإنسانية القديمة ، والعلماء لا ينقطعون عن البحث فى نشأة الكلام وأصله ، ويفترضون فى هذا الفروض ، ويحاولون فى هذا التجارب ، حتى أوائل القرن العشرين حين بدأ العلماء ينصرفون عن هذا النوع من البحث ، ويرون أنه من مسائل ما وراء الطبيعة ، وأن لا جدوى من الاستمرار فيه .

ولم يقتصر البحث فى النشأة اللغوية على علماء اللغة فى العصور القديمة ، بل تناوله أيضاً فلاسفة اليونان ، والمتكلمون وأهل الأصول من علماء العرب ، بل حتى بعض الملوك القدماء . فقد روى « هيرودوت » أن أحد الفراعنة المسمى « أيسمتيك » أراد البرهنة على أن اللغة المصرية القديمة هى أصل اللغات فى العالم ، فأمر بعزل طفلين من الناس منذ ولادتهما . وكفل لهما الغذاء والكساء فى صمت مطلق ، بحيث لا يسمعان من الناس كلاماً أو ما يشبه الكلام . ثم انتظر شهوراً حتى سمعهما ينطقان بأول كلمة مسموعة تتكون من أصوات كالتي ينطق بها الإنسان ، ظنا منه أن مثل هذه الكلمة لا بد أن تكون إحدى كلمات اللغة المصرية القديمة . ولكن خاب ظنه حين تصادف أن كانت تلك الكلمة « بكوس » Beos التى تعنى فى « الفريجية » إحدى اللغات القديمة « الخبز » .

وهكذا ظهر للملك أن اللغة « الفريجية » أقدم من المصرية .

واستمر هذا النوع من التفكير البدائي في معظم العصور . فقد حاول فردريك الثانى ملك صقلية سنة ١٢٠٠ م القيام بتجربة أسميتيك ، رغبة منه في الوقوف على سر ذلك اللغز الغامض ، ثم تبعه جيمس الرابع ملك اسكتلندا سنة ١٥٠٠ م متخذاً من نفس المحاولة الفاشلة وسيلة تهديه إلى كيف نشأت اللغة ، وكيف نطق الإنسان الأول .

وربما كان أعجب ما تحدثنا به الروايات أن عالمساً سويدياً في القرن السابع عشر كان يؤكّد لاستمعيه في صورة جدية أن الرب في جنة عدن كان يتكلم اللغة السويدية ، وأن آدم كان يتكلم اللغة الدنيمركية ، وأن الحية كانت تتكلم اللغة الفرنسية ! !

وظل بعض الباحثين في اللغات حتى العصر الحديث يذهبون بصدد النشأة اللغوية إلى آراء تدعو إلى السخرية ، مثل ذلك العالم التركى الذى وقف في مؤتمر لغوى سنة ١٩٣٤ يؤكد للمستمعين أن اللغة التركية هى الأساس الذى اشتقت منه كل اللغات مستدلاً على هذا بكلمة تركية معناها الشمس هى gunes ، لأن الشمس أول ما استرعى نظر الإنسان الأول من بين المخلوقات ! .

وقد حاول بعض المحدثين من اللغويين أن يستشف شيئاً عن أسرار النشأة اللغوية بدراسة أولئك الأطفال الذين عثر عليهم في الغابات وقد ربّتهم الذئاب أو القردة ، غير أن محاولات هؤلاء الباحثين قد باءت بالفشل . وكل الذى أمكن التحقق منه بهذا الصدد هو أن الطفل بعد أن ينقل إلى البيئة الإنسانية ، لا يلبث بعد زمن قليل أن ينطق كما ينطق من حوله ، كما أنه يجد لذة ومتعة في هذا النطق في حين أنه من المستحيل أن يتعلم الذئب أو القرد شيئاً من هذا .

وقد عثر في صحراء حلوان على غلام قيل إنه ربى بين الغزلان . وقد أكد

لنا بعض المشرفين عليه في المؤسسات الاجتماعية أنه وجد عارياً ، وكان في بادئ الأمر يصوت بأصوات مبهمّة تشبه صوت الحيوان ، وكان يأبى إلا أكل الحشائش ، ثم لم يلبث بعد شهر أن نطق بعدة كلمات ، وتعود تناول الطعام المألوف لنا .

وقد شهدته بعد نحو سنتين من العثور عليه فوجدته يستمتع ببيئته الجديدة ويلتقط منها الكلمات بسرعة غريبة .

وقد كان للعلماء من العرب منامرات في هذا الشأن ، وآراء لا تخلو من الخدس والتخمين ، لخصها السيوطي في المزهرة فبدت مضطربة ، لا يسكاد المرء ينتهى من قراءتها حتى يصبح مببل الفكرة حائراً مشدوها .

وكان بعض العلماء من القدماء يعتمدون في بحثهم على أدلة نقلية التمسوها من الكتب المقدسة ، كالتوراة والقرآن ، وفسروها تفسيراً يلائم ما ذهبوا إليه من آراء . ففي الإصحاح الحادى عشر من سفر التكوين نقرأ قصة بابل حين حاول الناس أن يتخذوا لأنفسهم مدينة عظيمة ، وبرجا شاهقاً يطاول السماء ، فبلبل الله ألسنتهم وجعلهم فرقاً وشيماً ، لا يفهم بعضهم بعضاً ، بعد أن كانوا أهل لغة واحدة ، ولسان واحد ، فانتشروا في الأرض وتعددت لغات البشر .

على أن بعض الباحثين يؤكّدون لنا أن « بابل » ليست من ببلّة الألسن ، وإنما معناها « باب إيل » أى « باب الرب » !

وبعض علماء العرب يلتمسون من الآية الكريمة « وعلم آدم الأسماء كلها » دليلاً للبرهنة على أن اللغة توقيفية .

وقد ظهر الخلاف بين علماء العرب واضحاً جلياً في منتصف القرن الرابع الهجرى وما بعده ، فرأيناهم فريقين :

أولاً : أهل التقاليد من المحافظين الذين اعتمدوا على النصوص من السنين وأضرابهم ، وهؤلاء كانوا ينادون بأن اللغة توقيفية ، وأن لا يد للإنسان في نشأة ألفاظها أو كلماتها ، وزعيم هؤلاء ابن فارس في كتابه الصحاح .

ومع أن المفسرين يختلفون في مدلول كلمة « الأسماء » في قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » ، زى أصحاب الراى بأن اللغة توقيفية يستمسكون بما يروى عن ابن عباس من أنه كان يفسر الأسماء بأسماء الأشياء من نبات وحيوان ومجاد . وهكذا يرون أن الله تعالى علم آدم اللغة المألوفة لنا وألفاظها ، واختص الأسماء بالذكر دون الأفعال أو الحروف لأنها فى رأيهم أساس اللغات ، ولا بد لكل كلام مفيد من الاسم ، فى حين أن الجملة المستقلة قد تستغنى عن كل واحد من الفعل والحرف !

فإذا سئلوا كيف صح أن يقال « ثم عرضهم على الملائكة » بضمير العاقل ، أجابوا عن هذا بأنه من قبيل التغليب ، وهو سنة من سنن العرب ، وذلك كقوله تعالى « والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع » .

ثم لا يكتفون بالاستدلال بهذا النص القرآنى ، بل يسوقون بعض الأدلة العقلية الجدلية للبرهنة على صحة رأيهم مثل قولهم :

(١) أجمع العلماء على الاحتجاج بلغة العرب ، ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحاً لم يكن العرب فى الاحتجاج بهم بأولى منا فى الاحتجاج بنا لو اصطاحنا على لغة اليوم ، مما يدل على أن تلك اللغة التى رويت ، والتى ليس لنا أن نغير منها أو نبدل ، هى أمر توقيفى ومن واجبنا أن نلتزم حدودها . فانه سبحانه وتعالى علم آدم ما شاء أن يملئه من كلمات هذه اللغة مما احتاج إلى

علمه في زمانه ، ثم علم بعد آدم من عرب الأنبياء نبياً نبياً ماشاء الله أن يعلمه حتى انتهى الأمر إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

(ب) ويسوقون في أدلتهم قصة طريفة هي أن رجلاً كالم أبا الأسود الدؤلي يبيض ما أنكره أبو الأسود . فلما سأل أبو الأسود هذا الرجل عن معنى كلامه قال له : هذه لغة لم تبلغك يا أبا الأسود !! فقال له أبو الأسود : يا ابن أخي إنه لا خير لك فيما لم يبلغني !

ويرون في هذه الرواية رغم ما بها من سذاجة التفسير أن أبا الأسود قد بين للرجل بلطف أن الذي تكلم به مختلف مخترع ، ولا يصح لهذا أن يعد من لغة العرب التي لا بد للإنسان في خلق عنصر من عناصرها .

(ج) ثم زاعم يستمرون في جدلهم واحتجاجهم قائلين : إنه لم يبلغنا أن قوماً من العرب في زمان يقارب زماننا أجمعوا على تسمية شيء من الأشياء مصطلحين عليه ، نستدل بذلك على أن اصطلاحاً قد كان قبلهم . وقد كان في الصحابة من البلغاء والفصحاء ، وما علمناهم اصطلاحوا على اختراع لغة أو إحداث لفظة لم تقدمهم . ألا ترى أنه سبحانه يقول « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » ، مما يدل على أن اختلاف اللغات أمر توقيفي من صنع الله ، وأن لا بد للإنسان فيه ! بل لقد ذم الله تعالى أولئك الذين وضعوا أسماء ما أنزل الله بها من سلطان في قوله « إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم » .

من كل هذا نرى أن القائلين بالتوقيف يعتمدون في أكثر أدلتهم على النصوص النقلية ، ويفسرونها على حسب أهوائهم ليستنبطوا منها ما يؤيد آراءهم .

ثانياً : والفريق الثاني من علماء اللغة هم الذين نادوا بأن اللغة اصطلاحية ، وكان معظمهم من المعتزلة الذين استمدوا أدلتهم من المنطق العقلي ، وفسروا (٢٢ — دلالة الألفاظ)

ماورد من نصوص بحيث تلائم اتجاههم ، وتلتصم مع منطقهم . على أن لا ندرى لهذه الطائفة زعماً معيناً استمسك بهذا الرأي جهاراً ، ودافع عنه في قوة وإصرار ، بل رى هذا الرأي ينسب لابن جني ولأستاذة أبي علي الفارسي وغيرها ممن جاءوا بعد ذلك . فإذا رجعنا إلى قول ابن جني في الخصائص زاه حائراً متردداً لا يكاد يستقر على أمر . فبعد أن يشير إلى الرأي القائل بأن اللغة اصطلاحية ، ويستدل عليه ، زاه في آخر الباب يقول مانصه « إنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاب والرقّة ما يملك على جانب الفكر فقوى في نفسي اعتقاد كونها توقيفا من الله سبحانه وأنها وحى » . ثم يقول « كذلك لا نفكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا ، وإن بعد مداه عنا ، من كان أطف منا أذهانا ، وأسرع خواطر ، وأجراً جناناً فأقف بين تين الخلتين حسيراً ، وأكاثرهما فأفكفي مكثوراً » .

فنحن رى من هذا حيرة ابن جني ، وأخذ به الرأيين مما ، أو عدم استطاعته ترجيح أحدها على الآخر . وهو يعدنا في آخر كلامه بأنه إذا بدا له من أدلة أخرى ، أو تكشفت له أمور أخرى في الاستدلال فسيرجع لنا أحد الرأيين وينتصر له .

فإذا استمرضنا حجج القائلين بالاصطلاح وجدناها تكاد تنحصر في الأمور الآتية :

(١) أولها أن الصلة بين الألفاظ ومدلولاتها صلة عرفية لا تخضع لمنطق أو عقل ، فإسمي (بالشجرة) مثلاً كان يمكن أن يسمى بأي لفظ آخر . ولا يصح لهذا أن ينسب مثلاً هذا العمل الناقص لله سبحانه وتعالى .

فلا ندرى لم يسمي الحجر حجراً أو النهر نهراً في لغتنا العربية ، مهما أجهد

الاشتقاقيون أنفسهم في مثل هذا ، وتلجسوا له من التأويلات المتكلفة ، والتخريجات المتعسفة . هذا إلى أن المعاني المشتركة في كل العقول البشرية قد اتخذت لها اللغات ألفاظا متباينة مختلفة لا يكاد يمت بعضها إلى بعض بصلة معقولة مفهومة .

فإذا أضيف إلى ما تقدم أن كل اللغات تتضمن كثيراً من الأمثلة الشاذة ، والشواهد الخارجة على قواعدها العامة ، وأنها تتضمن أيضاً تلك الألفاظ التي يعبر كل منها عن أكثر من معنى وهي ما تسمى بالمشارك اللفظي ، والألفاظ التي يشترك اثنين منها أو أكثر في معنى واحد وهي المترادفات ، تبين بعد كل هذا أن اللغة لا يعقل أن تتفق مع إحكام ما يخلق الله من أشياء . ولذلك كان ابن درسمويه وهو ممن نادوا بأن اللغة توقيفية ينسكرا أشد الإنكار وجود المشارك اللفظي ويعده مدعاة للإلباس والإيهام ، وينزه الخالق عن مثل هذا في مخلوقاته .

(ب) ثم ينساقون مع القائلين بالتوقيف إلى طريقته في الجدل والنقاش بطريقة عقلية ويرون في قوله تعالى « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » دليلاً يؤيد وجهه نظرهم ، لأن الآية صريحة في أن اللغة تسبق الرسالة ، وليس العكس كما يفهم من كلام أصحاب التوقيف . وذلك لأن الواسطة بين الله والبشر هم الرسل ، وهو سبحانه يختارهم بعد أن يستقر أمر التفاهم بين الناس ، ويصطلحوا على وسيلة للاتصال فيما بينهم .

ثم يرى أصحاب الاصطلاح في الآية الكريمة « وعلم آدم الأسماء كلها » أنها تقييد أنه تعالى أقدره على النطق بالفاظ معينة ، وجعل فيه القدرة على خلقها بنفسه والتصرف في تراكيبها .

أما كيف نشأت اللغة في رأى أصحاب الاصطلاح فنراهم يفترضون في هذا

أحد فرضين يلخصهما ابن جني في الخصائص قائلا : « كُنَّ يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا فيحتاجون إلى الإبانة عن الأشياء المعلومَة فيضعوا لكل واحد سمّة ولنظا إذا ذكر عرف به » إلى أن يقول « فكأنهم جاءوا إلى واحد من بني آدم فأومأوا إليه وقالوا إنسان ، فأى وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوقات (١) .

أما الفرض الثانى فنراه فى كلام ابن جنى على الصورة الآتية :

« وذهب بعضهم الى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوى الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق النراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندى وجه صالح ومذهب متقبل » .

واستمر الخلاف بعد عصر ابن جنى وابن فارس بين علماء اللغة وأهل الكلام ، وكان ينتهى أحيانا بأن يقف بعضهم موقفا وسطا فيقول بأن اللغة بدأت توفيقية ثم انتهت إلى الاصطلاح والمواضعة . وهكذا نرى أن علماء العرب لم يهتدوا إلى رأى يجمعون عليه ، أو يرجحونه بصدد النشأة اللغوية .

المحدثون :

أما المحدثون من علماء اللغات فى أوربا فقد صالوا وجالوا فى هذا الشأن ، ووجدوا لذة ومتمعة فى هذا البحث خلال القرن التاسع عشر ، مما أدى فى آخر الأمر إلى عدة نظريات أو افتراضات نلخصها فيما يلى :

١ — Bow-wow . أولئك الذين نادوا بهذه النظرية يرجحون أن النشأة الأولى للإلغاف لا تعدو أن تكون تقليدا للأصوات الطبيعية التى سمعها الإنسان الأول ، وأنخذ منها أسماء لمصدر هذه الأصوات ، فنباح الكلب مثلا أنخذ رمزا

يعبر أو يدل على نفس الحيوان . وهكذا يتصور أصحاب هذا الرأي أن الإنسان الأول سمع عواء الذئب وزئير الأسد ومواء الهر ، فآخذ من تلك الأصوات الحيوانية المتباينة أعلاماً للحيوانات نفسها ، كما سمع حفيف الشجر وزفير النار وقصف الرعد وخرير الماء وغيرها ، فآخذ منها أسماء لكل الظواهر الطبيعية التي تسمع لها أصوات . وبهذا تكونت له مجموعة كبيرة من الكلمات تعد في رأى أصحاب هذه النظرية من أقدم الكلمات في اللغة الإنسانية . ثم يتصورون أن الكلمة في تطورها لا تقف في دلالتها عند حدود مصدرها الأصلي ، بل قد تتمدها إلى أمر لاصلة له بذلك المصدر ، وإلى معنى جديد لا يكاد يمت إلى الدلالة الأصلية بصلة وثيقة . ولذلك يجب ألا ندهش حين نرى معاجمنا العربية تتضمن في مادة « نباح الكلب » معنى جديداً بعيداً عن الكلب وصوته مثل قول صاحب القاموس [النباح مناقف صفار بيض مكية تجمل في القلائد] . وكقوله من الفصحى بمعنى صوت الأنفى « ففح = صحح المودة وأخلصها » ، وفي مادة الثناء أى صوت الغنم يقول « أنبته فأنفى = ما أعطى شيئاً » . وفي بعض الأحيان نرى الصلة بين المعنى الأصلي والمعنى الجديد واضحة مفهومة ، كأن يشق من زئير الأسد كلمة « الزارة » بمعنى الأجمة . وكأن يقال في مادة رغاء الإبل أى صوتها « إن الترغية معها الإغضاب » .

ولذلك لا يصح أن ننساق مع بعض المعارضين على هذه النظرية في تهكمهم عليها بأنها تقف بالفكر الإنسانى عند حدود حظائر الحيوانات ، وتجعل اللغة الإنسانية الراقية مقصورة النشأة على تلك الأصوات الفطرية الغريزية ، لأن وراء هذه الأصوات سورا حصينا عنده في الحقيقة تبدأ لغة الإنسان ذات الدلالات المتميزة المتباينة . فالمعارضون يفترضون في هذا النوع من الأصوات عقماً ولا تصلح لأن ينحدر منها تلك الدلالات الإنسانية السامية . ولكن الواقع يبرهن على أن كثيراً من كلمات اللغات الإنسانية قد انحدرت عن تلك الأصوات الغريزية

المبهمة ، ثم سمت في تطورها ودلالاتها وأصبحت تعبر عن الفكر الإنسانى .

وإلا فكيف نتصور أن كلمة « الخيل » يشتق منها « الخيلاء » ، والجبانة بمعنى الصحراء يشتق منها « الجبن » ، وأن من « سفهت الطعنة أسرع منها الدم وجف » تجيىء « السفاهة » ، إلى غير ذلك من تلك الدلالات المجردة التى انحدرت إلينا من المحسوسات ! يمكننا إذن أن ندرك أن الكلمات المستعارة من الأصوات الطبيعية قد تتطور فى دلالتها حتى تصبح معبرة عن الدلالات الراقية المجردة فى الذهن الإنسانى .

ويبدو أن « ما كس ميلر » كان زعيم المعارضين لهذه النظرية والساخرين منها . وكان « رينان » يعارضها أيضاً ويتهكم عليها قائلاً : ليس من المقبول أو المفهوم أن الإنسان وهو أرقى المخلوقات يقلد أصوات مخلوقات أدنى منه وأحط . ليستنبط من تلك الأصوات المبهمة النامضة كلمات لفته الراقية السامية . ولكن « رينان » يتجنى على هذه النظرية حين يتصور أن عملية التقليد مقصورة على أصوات الحيوانات ، فالإنسان الأول حين بدأ عملية التقايد لم يحملها مقصورة على أصوات بعيثها ، فقد كان يقلد أصوات الحيوان ، وأصوات أخيه الإنسان وأصوات الطبيعة ، ويتخذ من كل هذه الأصوات كلماته أو ألفاظه . فلم يكن الإنسان صامتاً فى الوقت الذى كان فيه الحيوان مصوتاً ومهارة الإنسان تظهر فى أنه انتقل بتلك الأصوات المبهمة إلى دلالات واضحة مشتركة بين أفراد النوع الإنسانى ، وجعلها تعبر عن مصدر الصوت أى عن الحيوان المنبعث عنه ذلك الصوت .

ولعل أقوى ما يوجه إلى هذه النظرية من اعتراض أن اللغات فى وضعها الراهن لا تسكاد تشتمل إلا على قدر ضئيل جداً من تلك الكلمات الواضحة الصلة بين اللفظ والدلول ، وهى تسمى onomatopoeia . هذا إلى أنها قد

تختلف باختلاف اللغات حتى في الفصيلة الواحدة . فليس لخير الماء أو حفيف الشجر أو مواء الهر أو نباح الكلب ، في لغات البشر كلمات مشتركة في لفظها أو بعض لفظها .

(ب) Pooh-Pooh :

يرى أصحاب هذا الرأي أن اللغة الإنسانية بدأت في صورة شهقات وتأوهات صدرت عن الإنسان بشكل غريزي لتعبر عن فرح أو دهشة أو غضب أو ألم ونحو ذلك من انفعالات قوية . ومعظم المفادين بهذه النظرية لم يحملوا أنفسهم مشقة البحث في طبيعة تلك الشهقات أو التأوهات ، بل أخذوها قضية مسلّمة ، وأسسوا عليها فكرتهم . ويدين أصحاب هذا الرأي بما نادى به « دارون » في نظرياته المشهورة الخاصة بتطور الكائنات الحية . فقد بين « دارون » أن الإنسان لا يعدو أن يكون تطوراً لأرق الأجناس من الحيوان . ولم يقتصر تفكير « دارون » على التطور الجسدي ، بل شمل أيضاً التطور الفكري والعقلي . ومن ثم كان يفكر أن الإنسان هو المخلوق المتميز وحده بالفكر والنطق ، بل يشركه في هذا أيضاً بعض الحيوانات الراقية مع تفاوت في درجة التفكير أو النطق . فالإنسان ينطق والحيوان ينطق وليس الفرق بينهما إلا في الدرجة فقد تعددت وتفاوتت أصوات الإنسان ، في حين أن أصوات الحيوان ظلت محدودة . ولذلك ربط « دارون » بين النشأة اللغوية للإنسان ، وبين تلك الأصوات الغريزية والانفعالية من آهات أو تأوهات وأصوات الدهشة والتعجب ، وجعلها جميعاً الأساس الأول الذي منه استمدت اللغة الإنسانية نشأتها .

وحاول « داروين » الربط بين هذه الأصوات وبين تقلصات أعضاء النطق أو انبساطها ، أي أنه حاول تفسيرها تفسيراً فسيولوجياً ، فيقرر أن الشعور بالازدراء

أو النضب بصحبه عادة ميل إلى النفخ بالفم أو من الأنف ، ومن هنا ينشأ صوت مثل Pooh في الإنجليزية ، أو « أف » في العربية .

وكذلك الحال حين يدهش المرء أو يفزع يميل عادة إلى ففرقه كما لو كان يتنفس بعمق ، فإذا زفر هذا الهواء الذى تنفسه حين ففرقه وجدنا الفم يميل إلى الاستدارة قليلا ، ومثل هذا الوضع للشفتين يولد لنا صوت اللين المسمى بالضمه ، وهي حين تطول قد يتصل بها صوت يشبه الهاء . ويترتب على هذا أن تنشأ تأوهات مثل oh وهو الصوت الذى نسمعه عادة من جمهور المتفرجين حين يفاجأون بمنظر بالغ الدهشة .

أما فى حالة الألم فتنقلص أعضاء الجسم كلها بما فى ذلك الوجه ، مما يترتب عليه أن الشفتين تأخذان الوضع المناسب لصوت اللين « A » ، أى الفتحة ، ويؤدى هذا إلى صوت مثل ah أو ach !!

ويعترض بعض العلماء على هذه النظرية بأن هذه الأصوات أصوات فجائية منعزلة عن الكلام أو التكلم الذى يصدر عن المرء بصورة إرادية ، فبينها وبين الكلمات فجوة تجعلنا نعد تلك الأصوات صورة سلبية للكلام ، فليست تصدر عن المرء إلا حين يعييه القول أو حين يأبى الكلام . هذا إلى أن كثيراً من تلك الأصوات يشتمل على عناصر صوتية لا نكاد نسميها فى كلام البشر ، مثل أصوات اللين المهموسة ومثل Clicks التى تنشأ مع الشهيق أى فى أثناء دخول الهواء إلى الفم والرئتين .

والحقيقة أن تلك الشهقات والتأوهات لا نعدو أن تكون أصواتاً عرفية تختلف باختلاف الشعوب والأمم . فصوت الدهشة عندنا هو « ah » وليس « oh » كما هو الحال عند الإنجليز الذين استقى منهم « داروين » ملاحظته . فلكل شعب صوت خاص عند البكاء أو الأنين أو الدهشة أو الازدراء ونحوها من الانفعالات الغريزية .

وقد كتب « كيبلنج » في إحدى رواياته يصف إحدى الشخصيات فقال لاأظن أن هذا الرجل من الأتقان لأن الناس هناك يسكون بالصوت «أى أى ، ai ai ، كذلك لاأظن أنه هندستانى لأنهم يسكون بالصوت oh, oh ، إن الرجل ييىى كما ييىى الرجل الأوروبى فيقول ow-ow !

(ج) Ding-Dong :

ويؤكد لنا أصحاب هذا رأى أن هناك صلة وثيقة بين ماينطق به المرء من أصوات ، وبين مايدور فى خلد من أفكار . و يرون أن كل أثر خارجى يتأثر به المرء يستقزم الفطق ببعض الأصوات ، وهذه قوة أو قدرة قد اختص بها الإنسان منذ الخليقة . ثم يعترفون أن سر هذه القوة لايزال غامضاً علينا كأنما هو أمر سحري لا ندرى له كنه . أى أنهم يتصورون أن المرء يرى الأشياء أو الحوادث فيتأثر بها ، ويتبع هذا التأثير بصورة آلية حتمية أن ينطق بالأصوات . أى أن الألفاظ لا تعدو أن تكون صدى لتلك المؤثرات الخارجية ، غير أن معرفة كنه الصلة بينهما أمر عسير على أذهاننا .

وقد بنوا هذه النظرية على تلك الظاهرة العامة التى نلاحظها فى الأشياء المحسوسة من أن اصطدام أى جسم أو الدق عليه يولد صوتاً معيناً ، به يتميز هذا الجسم فى غالب الأحيان . فللدق على حديد صوت يخالف ما يصدر عن النحاس أو الفضة أو الخشب . وهكذا نرى أن لكل شئ رنيناً خاصاً يتميز به . وكذلك الآتار الخارجية التى يتأثر بها الإنسان يحدث كل منها رنيناً خاصاً فيتعدد الرنين بتعدد الآتار الخارجية . ولذا تعددت الألفاظ وتعددت الأصوات المشتملة عليها .

وأكبر ما يوجه إلى هذا رأى من نقد أنه بنى على أساس غامض ، وأحاطه أصحابه أنفسهم بالآلغاز والسحر ، مما جعل معظم اللغويين الآن يعمرون به مر السكرام .

(د) Yo-he-ho .

وملخص هذا الرأي أن النطق الإنساني نشأ أولاً في صورة جماعية ، فقد صدر عن مجموعة من الناس في أثناء قيامهم بعمل شاق مضن تعاونوا على أدائه . ويؤكد لنا أصحاب هذه النظرية أن الإنسان يجد الراحة في أثناء قيامه بعمل شاق إذا تنفس أو تنهد بقوة وعنف ، وكرر هذا عدة مرات ، فهو يصدر من رثتيه قدراً من الهواء . ويستريح لهذه العملية العضلية لأنها تخفف من عناء عمله ومشقته . ويترتب على صدور الهواء وانبعائه إلى خارج الفم أو الأنف أن يمر بالوترين الصوتيين فيحركهما فتسمع لهما ذبذبات ذات أنغام مختلفة . ويشبه هذا ما نسمعه أحياناً من بعض العمال الآن حين يؤديون عملاً شاقاً مضنياً . إذ نراهم ينفون أو يرددون عبارات بدائية لا تسكاد تتضمن معنى معقولا مفهوماً . وهم بهذه العبارات يلتمسون عوا لأنفسهم في أثناء قيامهم بعملهم الشاق ، ويجدون فيها متفئفاً وتشجيعاً ، فيكثرونها ويميدون تكرارها دون ملل أو سأم .

وهكذا يرى أصحاب هذا الرأي أن اللغة نشأت حين اجتمع الإنسان بأخيه الإنسان ، ولم تنشأ عنه وهو مفرد منعزل . وبهذا يربطون بين نشأة اللغة وتكون المجتمع الإنساني ، ويوثقون بين اللغة والمجتمع . ولعل أهم ما تمتاز به هذه النظرية على النظريات السابقة ، أنها عالجت النشأة اللغوية في ضوء المجتمع الإنساني ، وربطت بين اللغة والمجتمع ربطاً وثيقاً ، في حين أن كل النظريات الأخرى تفترض أن الكلمات الأولى صدرت عن الإنسان المفرد ، ثم قلده غيره في نطقه .

ويرى أصحاب هذه النظرية أن تلك الأصوات التي تصدر عن جماعة من الناس في أثناء عملهم المضني لا تلبث أن ترتبط بالعمل نفسه ، وتصبح بمثابة علم له ، ينطقون بها كلما تكرر هذا العمل في الظروف المختلفة . ومثل هذه العبارات الجماعية هي التي بدأ بها الكلام ، وهي التي تعد النواة الأولى في النشأة اللغوية .

تلك هي النظريات التي اشتهر أمرها في أواخر القرن التاسع عشر ،

وهى كما ترى لم تحل مشكلة النشأة النفوية ، ولم تفسرها تفسيراً نظمئياً إليه ،
ومن الممكن أن توجه إليها الاعتراضات الآتية : —

١ — إن هذه النظريات على تعددها لم تفسر لنا إلا ناحية من نواحي
اللغات ، وتركنا حارّين أمام الفواحي الأخرى . وربما كان ما فسرته لنا أقل
جوانب اللّغة قيمة . وذلك لأن الألفاظ التى تبدو لنا الآن وقد ارتبطت بأصواتها
بمدلولاتها لا تتجاوز نسبة ضئيلة فى كلمات كل لغة .

٢ — هذا إلى أنها — فيما عدا النظرية الأخيرة — قد أهملت الربط بين
اللغة والمجتمع ، مما لا يستطيع النفوى الحديث أن يقصوه .

٣ — وأخيراً تفترض هذه النظريات أن الإنسان الأول ظل صامتاً فترة من
الزمن قبل أن تنشأ لفته ، ثم نطق بأصوات كأصوات لغاتنا ، وأدت عضلات نطقه
وظيفتها أداء كاملاً . ومثل هذا يخالف ما نعهده من أن العضو لا يبدأ وظيفته
بدءاً كاملاً ، ولكيه يحتاج إلى المران الطويل قبل أن يؤدى تلك الوظيفة الأداء
الكامل . ولهذا لا يعقل أن عضلات النطق تنطلق من صمتها فتفطق بأصوات
كأصوات كلماتنا ، وإنما المعقول أنها كانت تفطق نوعاً من النطق ، وتصوت نوعاً
من التصويت ، حتى إذا اكتمل لأعضاء النطق نموها وتطورها صدر عنها تلك
الأصوات الإنسانية التى تشبه ما يصدر عن الإنسان الآن . وحيلئذ يمكن أن
يقال إن النطق الإنسانى قد بدأ ، وإن اللّغة الإنسانية قد نشأت .

أحدث الآراء^(١):

اهتدى بعض المحدثين من اللغويين وعلی رأسهم « جسرسي » إلى نظرية نظمئن إليها بعض الاطمئنان ، لأنها تأخذ بكل النظريات السابقة مجتمعة ، وتؤسس عناصرها على أسس علمية واضحة المعالم ، وخاضعة للتجربة الحديثة . فالنظريات السابقة اعتمدت على طريقة استنباطية لأنها تبدأ بالفرض ، ثم تساق لهذا الفرض الأدلة والبراهين ، أما نظرية هؤلاء المحدثين فتتبع الطريقة الاستقرائية فتستعرض الملاحظات والتجارب ، ثم تتكون النتيجة أيأ ما كانت هذه النتيجة .

وأصحاب هذه النظرية الحديثة يؤسسون نظريتهم على أسس ثلاثة : —

١ — دراسة مراحل نمو اللغة عند الأطفال .

٢ — دراسة اللغة في الأمم البدائية .

٣ — دراسة تاريخية لتطور اللغوى .

١ — لغة الطفل :

لقد درس علماء التشريح مراحل نمو الجنين في بطن أمه ، ثم أكدوا لنا أنه يمر خلال شهور الحمل الأولى في نفس المراحل التي مر بها الإنسان قبل أن تكمل إنسانيته ، وهي المراحل التي استندفت من عمر الإنسانية آلاف السنين أو ربما ملايين السنين .

وبرقت هذه النظرية لأعين بعض الباحثين في اللغة ، وحاولوا على ضوءها أن يستشفوا شيئاً عن النشأة اللغوية ، اعتقاداً منهم أن مراحل نمو اللغة

(١) ملخص عن Language, its nature, development and Origin p.412

عند الأطفال هي نفس المراحل التي مر بها الإنسان الأول ، حتى نشأت له لغة إنسانية ذات أصوات ومدلولات كالتي نألفها في اللغات الآن .

ومن الواضح أن بعض هؤلاء الباحثين قد غالى في الاعتماد على دراسة مراحل نمو اللغة عند الطفل ، وتناسى الفرق الشاسع بين ظروف الأطفال الآن حين يتعلمون لغة أبويهم ، والظروف التي عاش فيها الإنسان الأول في أثناء نشأة الكلام .

فالطفل حين يتعلم لغة أبويه لا يكاد يعدو عمله الربط بين أصوات يسميها ومدلولات يفهمها ، فهو مقلد لا مبتكر أو مخترع ، وهو يلتقط ألفاظا متداولة في بيئته ، وقد أعدت كل الإعداد ، وهيئت له كل التهيئة على يد معلم لا يعمل تعليمه من أهله وذويه . في حين أن الإنسان الأول لم تتح له نفس الظروف ، بل كان بمثابة المخترع يستخرج أمراً جديداً ، وحدثاً جليلاً ، ويعلم نفسه بنفسه ما لم يكن له وجود من قبل . ولعل خير ما يوضح لنا الفرق بين الحالين أن نتصور باحثاً في الموسيقى يحاول استنباط مراحل تطورها عن طريق دراسة المراحل التي يمر بها الطفل في تعلمه العزف على البيانو ، دون أن يفتن إلى أن الطفل في تعلمه العزف يرى نفسه أمام أنغام معدة مهيأة ، وأغان مسموعة مألوفة ، فهو يقلد ما اخترعه غيره ، وما شاع في بيئته .

غير أنه مع هذا يمكن أن يستأنس بمراحل نمو اللغة عند الأطفال في دراسة النشأة اللغوية ، إذا اقتصرنا على السنة الأولى من عمر الأطفال حين يباغون ويصوتون بأصوات مبهمه لا تهدف إلا إلى اللذة والمتعة . ففي هذه المرحلة قد نسمع من الأطفال أسواتا غريبة على اللغة الشائعة في بيئته ، وقد ينطق الطفل بسلسلة من الأصوات تشق عليه فيما بعد حين يتعلم لغة أبويه . فقد نسمع من الطفل الإنجليزي أصوات الحلق وليس في لغة أبويه مثل هذه الأصوات . بل حتى بعد السنة الأولى من عمر الطفل وقبل نهاية السنة الثالثة نرى بعض الأطفال يكونون

ما يمكن أن يسمى بلفتهم الصغيرة وهي المملوءة باللفاظ مخترعة لانكاد تمت في أصواتها أو مدلولاتها للغة أبويهم بصلة ما .

تلك هي الأمور التي تستحق الدراسة في مراحل نمو اللغة عند الأطفال ليستأنس بها الباحث في بحثه للنشأة اللغوية ، ولتلقى ضوءاً على ذلك النموذج الذي يكتنف تلك النشأة اللغوية .

وقد اقتصر « لويس Lewis » في كتابه Infant Speech على دراسة تلك المرحلة من نمو لغة الطفل ، وحاول تفسير الكثير من ظواهرها . فهو مثلاً يؤكد لنا أن الطفل في غضبه يصدر أصواتاً أنفية كالنون والميم ، ولكنه في سروره يكرر أصواتاً حلقية أو قريبة من الحلق كالسكاف والنين والجيم إلى آخره .. فإذا ربط أحد الباحثين بين هذه الملاحظة وبين ما نعرفه من أن أداة النفي في جل اللغات البشرية تتضمن صوتاً أنفياً ، لم يكن متعجباً أو مشتطاً حين يقول إنه من المحتمل أن صوت النضب الفطري قد تولدت منه في آخر الأمر تلك الأدوات التي تعبر عن النفي في اللغات .

ومع كل هذا فلا تزال دراسة هذه المرحلة عند الأطفال بحاجة إلى المزيد من البحث حتى يمكن أن نطمئن كل الاطمئنان إلى النتائج المؤسسة عليها .

٢ - لغة الأمم البدائية :

والأساس الثاني الذي يستأنس به الباحثون في دراستهم للنشأة اللغوية هو ما نلاحظه الآن من صفات خاصة في لغات الأمم البدائية . ويرى هؤلاء الباحثون أن لغات هؤلاء الأقوام تمثل مرحلة قديمة في نمو اللغات وتطورها ، وهي لهذا تلقي ضوءاً على ما كانت عليه لغة الإنسان في العصور المحيطة . ومقارنتها بلغات الأمم المتعدنية ترينا الطريق الذي سلكته اللغة في تطورها ، والعناصر التي تخلصت منها أو أبقّت عليها .

ومع هذا فمن الغالاة أن نتصور أن لغات الأمم البدائية قريبة الشبة بلغة الإنسان الأول . فهي منها القطنانها من بين أحط الشعوب فى المدنية تمثل مرحلة متأخرة نسبياً من مراحل التطور اللغوى . فلا شك أن آلافاً من السفن قد مرت على لغة الإنسان قبل أن تصل إلى مرحلة تلك الشعوب التى نسميها بدائية .

٣ - الدراسة التاريخية :

وربما كان هذا الأساس الثالث أهم من الأساسين السابقين فى بحث النشأة اللغوية . وقد وجه المحدثون كل جهودهم لهذه الدراسة التاريخية ، ولكنهم بدأوها بطريقة عكسية ، أى أنهم بدأوا البحث فى لغات العصر الحاضر ، ثم عادوا إلى الوراء جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، مستخدمين معلوماتهم عن حال اللغات فى العصور الماضية من النصوص اللغوية والمستندات التاريخية وهم فى هذا البحث يعتقدون المقارنات ليستنبطوا قوانين أو قواعد عامة للتطور اللغوى . . . فمثلاً يقارنون حال الإنجليزية الحديثة بحالها فى عصر شكسبير ثم عصر تشوسر ثم بالألمانية القديمة ، ويقارنون اللهجات الهندية الحديثة بالنصوص التى رويت عن اللغة السنسكريتية ، ويقارنون اللهجات العربية الحديثة باللهجات القديمة ، وهكذا تستمر مقارنتهم خلال العصور التاريخية التى روى عنها نصوص لغوية . فإذا تجمعت لهم عن طريق تلك المقارنة التاريخية قواعد عامة للتطور اللغوى ، أمكن تطبيق تلك القواعد على عصور ما قبل التاريخ ، واستنباط الحال التى كانت عليها اللغات فى تلك العصور البعيدة التى لا نكاد ندرى من أمرها شيئاً . وربما أمكن الباحث عن هذا الطريق الوصول إلى تكوين فكرة واضحة المعالم عن أقدم المراحل فى النشأة اللغوية . بل ربما أمكن تبديد السحب التى تكتنف تلك النشأة اللغوية .

وقد استطاع جيسبرسن^(١) أن يصل إلى نتائج قيمة عن طريق هذا البحث المقارن ، وأن يصور لنا ما كانت عليه اللغات في أقدم العصور .

الأصوات :

(١) الاتجاه نحو تيسير الأصوات : هذا هو الميل العام الذي لوحظ في تطور اللغات . فحين قورنت النصوص القديمة بالنصوص الحديثة تبين للباحثين أن التطور الصوتي في اللغات يميل في غالب الأحيان نحو تيسير النطق بها ، والاقتصاد في الجهد العضلي أثناء صدورها . وترتب على هذا الميل العام ظواهر ثلاث :

أولها : أن اللغات في أحدث صورها تمكاد تخلو من المجموعات الصوتية المتنافرة التي تتمتع في نطقها الأسفة ، مثل تلك الكلمات التي يصفها علماء البلاغة بتنافر الحروف مجتمعة كالمعجم ، مستشزرات ، احجنشش بطن فلان^(٢) . فاجتماع مثل هذه الأصوات في الكلمة الواحدة كان أمراً مألوفاً في اللغات في أقدم عصورها . ثم تطورت الأصوات ومالت إلى تسهيل النطق ، فتخلصت من تلك المجموعات الصوتية الشاقة ، ولم تخاف لنا منها إلا كلمات قليلة هي التي تشبه ما يتخذها علماء البلاغة من أمثلة لتنافر الحروف .

ثانيها : الميل نحو التقصير من بنية الكلمات . فقد دلت الملاحظات الحديثة على أن النصوص القديمة في معظم اللغات قد تضمنت كلمات طويلة كثيرة الحروف وإن خلت في بعض الأحيان مما يسمى بتنافر الحروف مجتمعة . ولذا لاندعش حين نرى أن كثيراً من الكلمات الجاهلية الكثيرة الحروف قد انقرضت على مر العصور ، كمثل الأوزان التي يشير إليها الصرفيون في كتبهم والتي لانكاد

(1) Language, its nature p.415

(٢) راجع موسيقى الشعر ص ٣٦ .

نرى لها أثراً في القرآن الكريم ، أو الشعر العباسي مثل أفلحس وأسلفي
وأحرنجم وأطلخهم وأجرنهم . ومثل ما يروى عن امرئ القيس : « رب جفنة
مثنى جرة وطعنة مسحفة ٠٠٠ إلخ .

فليس في مثل « أحرنجم » حروف متغايرة في اجتماعها ، ومع هذا فقد
اندثر هذا النوع من الكلمات الطويلة ، وشاع في اللغة العربية تلك الكلمات
الثلاثية الحروف أو الرباعية الحروف ، وتكونت منها معظم كلمات اللغة العربية .

ويتبين من هذا أن ما يدعو إليه بعض العلماء من أن الأصل في بنية
الكلمات أن تكون ثنائية لا أساس له من الصحة ، بل يبدو من ملاحظتنا
في كل المصور التاريخية أن العكس هو الصحيح ، أي أن الكلمات كانت طويلة
ثم قصرت .

كتب الأب مرمرجى الدومنيكي الأستاذ بالمعهد الفرنسي بالقدس كتاباً سماه
« المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية » ، وقد حاول في هذا
الكتاب الصغير أن يبرهن على صحة نظريته من أن الأصل السامي القديم
كان ثنائياً .

وقد عرض لعدة كلمات من بينها كلمة « الفصح » وهو العيد الإسرائيلي
المعروف ، فافترض أن الأصل كان يتكون من الحرفين الأولين أي الفاء والصاد
أو ما يشبههما كالباء والسين أو الشين ، وساق لنا كلمات من اللغات السامية
المتباينة كالعبرية والآرامية والحبشية ، وقد تكون كل منها من حرفين الأول
شفوي والثاني من حروف الصغير ، وكل هذه الكلمات تعبر عن معنى الخروج
أو الانتشار أو الانفصال . . . إلخ . ثم افترض أن الأصل السامي الثنائي قد زاد
مبفاه بانصاف الصوت الحلقى وهو الحاء . وتخصص معناه وأصبح مقصوراً على
الاجتياز أو العبور ، وهكذا نشأت كلمة « الفصح » الشائعة في العبرية بمعنى
العيد المعروف . ويؤمن لنا المؤلف أن الكلمة في صورتها الثلاثية ، ومعناها
(م ٣ — الأملات)

الخاص قد انتقلت من العبرية إلى شقيقاتها السامية ، وأنه لولا رجوعنا إلى الأصل الثنائي ما استطعنا الربط بين هذه اللغات في اشتقاق هذه الكلمة ، لأن المعنى يكاد يتجدد بين هذه اللغات حين تقتصر على الأصل الثنائي .

وليس يكفي لتدعيم مثل هذا الرأي أن يسوق الباحث عدة ألفاظ من بين كل كلمات اللغات السامية التي تعد بعشرات الآلاف . فالأمثلة التي ساقها المؤلف ليست في الحقيقة إلا وليد المصادفة ، هذا إلى ما في علاجه لتلك الأمثلة من تأويل وتخريج لا يخلو من التكاف والتعسف .

ثالثها : من المؤلف المشاهد في كل لغات الأمم المتمدنة أن الأصوات اللغوية تتكون بوساطة الهواء في أثناء صعوده من الرئتين وخروجه من الفم ، ولا يتكون صوت عن طريق الشفم أو دخول الهواء إلى الفم والرئتين إلا ما شاع ببدا من أصوات مبهمه نطقها وقت الدهشة أو الاستنكار أو التضجر وحين الاستمتاع بشيء من الأشياء . وهي على كل حال ليست من كلمات اللغة المعترف بها .

أما في بعض اللغات البدائية فقد دلت البحوث على أن من أصواتها ما يتكون عن طريق دخول الهواء إلى الفم والرئتين ، ويسمى بالـ Clicks ، وقد كثرت هذه الأصوات في بعض لغات أفريقيا التي تمثل مرحلة قديمة لتطور اللغة الإنسانية مما جعل المحدثون يفترضون أن اللغة الإنسانية في عصور ما قبل التاريخ كانت تشتمل على مجموعة كبيرة من الأصوات التي تتكون بهذه الطريقة .

(ب) الميل إلى الغناء في أثناء النطق :

دلت الملاحظات الحديثة على أن كثيراً من اللغات في صورها القديمة كانت تعنى بالتنغيم ، وتعدد الدرجات الصوتية ، من صعود وهبوط في أثناء النطق ، وأن مثل هذا قد أخذ في الانقراض تدريجياً حتى أصبح الأمر على الصورة التي

نألفها الآن . كذلك لاحظ الباحثون أن تعدد الدرجات الصوتية لا يزال شائعاً في كثير من لغات الأمم البدائية ، مما جعل المبشرين من الأوروبيين يصفون القوم بأنهم ينفون في أنداء كلامهم حتى ليحسب السامع أن كل كلامهم غناء . وهم عادة ينسبون هذه الظاهرة إلى قوة العاطفة في هؤلاء القوم ، فـكلامهم وقت الغضب كـكلامهم وقت السرور يتضمن سلسلة متنوعة من الدرجات الصوتية .

أما في الأمم المتقدمة ، حيث يطالب المرء بضبط النفس فنراه يلتزم في كلامه وتيرة واحدة تكاد تخلو من التنويع .

على أن هذا التنويع في الدرجة الصوتية الذي نلاحظه في لغات الأمم البدائية ليس كذلك الذي نلاحظه الآن في اللغة الصينية التي فيها يختلف المعنى باختلاف النغمة الموسيقية . فليس يرتبط التنويع في لغات الأمم البدائية أي نوع من الارتباط بمدلولات الكلمات . وعلى هذا لا يصح أن تعد اللغة الصينية مرحلة قديمة من مراحل التطور اللغوي ، بل هي في الحقيقة قد مرت في أطوار كما مرت لغاتنا الحديثة ، غير أنها بدل أن تفقد هذا التنويع في الدرجة قد استغلت في أمر آخر وهو التعبير عن مدلولات متباينة للألفاظ .

ويبدو من كل ما تقدم أن اللغات الإنسانية ، في أقدم صورها كانت مملوءة بمجاميع من الأصوات المتنافرة والكلمات الطويلة الكثيرة الحروف ، وكانت تصدر أصواتها عن طريق الزفير والشهيق ، فلدخول الهواء إلى الرئتين أصوات ولحروجه أصوات ، وأخيراً كانت أشبه بالغناء منها إلى الكلام .

صورة خيالية لنشأة اللغة

نستطيع مما كتبه المحدثون أن نتصور الكلمات في نشأتها كثيرة المبني قليلة المعنى ، فكأنما نسمع جمجمة ولا نرى طيحناً . أما المجتمع فهو جماعة من

الشباب يرحون ويلعبون ويستمتعون بالنطق دون هدف معين سوى المتعة واللعب
بألسنتهم كما كانوا يلعبون بأيديهم وأرجلهم . أى أن اللغة نشأت في صورة لعب
ممتع لا تهدف إلى إيصال معنى إلى السامع ، بل كانت أشبه بمنغاة الطفل
وأصواته المهمة التي يطلقها أمامنا دون هدف معين .

ومن النجاة أن نلساق مع بعض الفلاسفة الذين تصوروا أن الهدف الأصلي
من الكلام كان التفاهم وإيصال المعنى إلى السامع ، فلم يكن الإنسان الأول
معنياً بالأنفكار عناية هؤلاء الفلاسفة ، ولكن عنايته كانت مقصورة على الفرائز
والعاطفة ، ولعل الحب والفريزة الجنسية أقوى هذه المواقف ، فهو ينطق أو يصوت
ليسترعى انتباه الأليف ، ويثبت وجوده واستقلاله ، كالطير حين ينتقل من فن
إلى فن وهو يغنى غناء متواصلاً لعله بهذا ينال الخطوة لدى أليفه من الطيور .

كذلك كان الإنسان الأول يغنى في أثناء صيده وفي حربه ، وفي كل ما يقوم
به ، غناء لا كغنائنا يهدف إلى الطرب أو يتضمن أصولاً وقواعد ، وإنما هو
فصويته منسجم تتردد فيه الأصوات والمقاطع .

ثم تطور هذا النطق من مجرد اللعب والمتعة وأصبح ذا هدف فيما بعد ، واستغل
في التعبير عن كل ما يدور بحد الإنسان من خير أو شر .

ومثل التطور الكلامي كمثل التطور في الكتابة حين بدأت تصويرية قد
يرمز فيها المرء بالصورة الواحدة لعبارة ذات أحداث متعددة ، ثم صارت أخيراً
إلى الكتابة الهجائية التي يرمز فيها للصوت الواحد بحرف واحد ، فأخذ كل
حرف الفكرة الكلية وأصبح يستعمل في الكلمات المتباينة . وهكذا الكلام بدأ
في صورة كتلية ثم تحلت الكتلة إلى عناصر هي التي نسميها الآن بالكلمات .

أما كيف انتقلت الأصوات الخالية من الدلالة إلى ألفاظ ذات دلالات ومعان فمستطیع أن نذكره بسهولة حين نتذكر عمل الطفل وربطه بين ما يسمع وبين ما يشاهد من أحداث ، مما يؤدي في آخر الأمر إلى فهمه لدلولات الألفاظ .

فإذا تصورنا زعياً امتاز بالقوة الجسمانية والجرأة ينطق أمام ذويه بأصوات مبهمه لا يهدف من وراءها إلى هدف معين ، وتصادف أن حدث حينئذ انتصار على وحش مفترس . ربط السامعون بين هذا الحدث وبين أصوات الزعيم ، وقد يرددون ما يسمعون ، ويكررون ترديده كلما تكرّر هذا الحدث ، حتى تصبح تلك الأصوات بمثابة علم عليه ، ولا يلبث العلم أن يتطور إلى كلمة عامة . ولدينا في العصور الحديثة كثير من الأمثلة التي تبرهن على إمكان تطور العلم إلى لفظ عام ذي معنى كلى . فن « الإله » نشأ « التآله » ، ومن الشيطان جاء « تشيطان » ، ومن إبليس نشأت الأبلسة ، وأصبح لأمثال المعلمين « حاتم ونيرون » دلالات كلية تستغل في لغات كثيرة .

أما الكلمات ذات الصلة الوثيقة بين صوتها ومدلولها وهي التي يطلق عليها Onomatopoeia فأمرها هين ونشأتها واضحة ؛ فهي قليلة في كل لغة ولا تفسر الكثرة الغالبة من ألفاظ اللغات . ولذا نرجح أن معظم الكلمات قد أخذت مدلولاتها بطريق المصادفة ، أى أنها كانت أصواتاً مبهمه لا هدف منها سوى اللعب والمتعة ، ثم تصادف أن نطق بها في أثناء حدث من الأحداث ، فارتبطت به ارتباط العلمية ، وتدرج العلم من معناه الخاص إلى معنى عام .

فإذا فسرنا الأسماء في قوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » بمعنى الأعلام ، سائر هذا التفسير أحدث ما يقادى به الفريون في عصرنا الحاضر .

الفصل الثاني

الدلالة

أداتها ، أنواعها ، فهمها

- ١ -

بين اللفظ والكلمة

أداة الدلالة هي اللفظ أو الكلمة ، وتكاد تجمع المعاجم العربية على أن « الألفاظ » ترادف « الكلمات » في الاستعمال الشائع المؤلف ، فلا فرق بين أن يقال أحصينا ألفاظ اللغة ، أو كلمات اللغة . ومع هذا فالنحاة في كتبهم يحاولون التفرقة بين كل من اللفظ والكلمة والقول ، في حديث طويل يخرج منه أنهم يستشعرون مع اللفظ عملية النطق وكيفية صدور الصوت ، وما يستتبع هذا من حركات اللسان والشفيتين . فإذا ربط هذه الأصوات المنطوق بها وما يمكن أن تدل عليه من معنى تكونت في رأيهم « الكلمة » ، أى أن الكلمة أخص لأنها لفظ دل على معنى .

من أجل هذا آثرنا في عنوان هذا الكتاب أن نستعمل « الألفاظ » دون « الكلمات » لأن أوضح ما نهدف إليه هنا هو أن تبين الصلة بين ما ننطق به من أصوات وما تدل عليه من دلالات ، وتتعرف على أثر هذا المنطوق به فيما يوحيه إلى الأذهان من صور قد تختلف قوة وضعفاً ، وتباين في رفعها أو خستها ، وتنازع بين الوضوح والإبهام .

غير أنا في صلب الكتاب قد خصصنا «الكلمات» بالاستعمال ، لأنها الألفاظ ذات الدلالات ، وهدفنا الأكبر هنا هو تلك الدلالات ، وليس من أغراض هذا البحث أن نحمل الألفاظ إلى عناصرها الصوتية ، ولا أن نبين ما يتم منها من عمليات عضلية في الجهاز النطقى أو جهاز السمع .

والكلمة وإن كانت ذات مفهوم واضح في أذهان كل الناس ، تراها تظهر بجهد على حد كبير من المحدثين من اللغويين حين حاولوا تعريفها ، وبيان حدودها . فلما الأصوات لا يرون في الكلام المتصل حدوداً تميز بين كلمة وأخرى ، فلا يستطيع السامع تحليل الجملة أو العبارة إلى مجاميع صوتية كل مجموعة منها تنطبق على ما يسمى بالكلمة ، إلا حين يستعين بالدلالات التى تتضمنها الجملة ، أو العبارة . فكلمات الجملة متداخلة متشابكة يرتبط بعضها ببعض فى أثناء النطق ارتباطاً وثيقاً . وليس فى الكلمة عنصر صوتى يحدد بدءها أو نهايتها حين تكون فى الكلام المتصل . فإذا سمع أجنبي عن اللغة قارئاً يقرأ قوله تعالى « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » ، يصعب عليه أن يحدد نهايات الكلمات أو بدءها إلا إذا كان على علم بالدلالات . من أجل هذا يقال لنا إن الأسس الصوتية لا يصلح وحده للتمييز بين حدود الكلمات فى الكلام المتصل . وليست اللغات فى الحقيقة إلا كلاماً متصلاً ، ويندر فى الاستعمال العادى أن يكتفى المتكلم بكلمة واحدة للتعبير عما يدور بخالده .

على أن بعض اللغويين من المحدثين يحاول جاهداً أن يبين لنا حدود الكلمات على أساس صوتى بحث ، وذلك بالاستعانة بالنبر وقواعده فى اللغة المراد بحث كلماتها . فمن اللغات ما تلغزم النبر فى نهاية الكلمات ، ومنها ما تلغزمه فى بدئها . وهنا يمكن أن يقال إن حدود الكلمات قد تميزت بوسيلة صوتية . ولكن هذه المحاولات قد باءت فى آخر الأمر بالفشل ، لأن النبر وحده على حد

تعبير فندريس^(١) « لا يكفي لتحديد الكلمة ، لأنه لا يمين حدودها إلا بصورة ناقصة . نعم إن الذبر في بعض اللغات يتوقف على آخر الكلمة ، وفي البعض الآخر نرى أن مبدأ الكلمة هو المفبور ، ولكن هذه الحالات لا تستغرق جميع الإمكانيات » . ويذهب فندريس بقوله « كل ذلك يحملنا على تحديد الكلمة الصوتية مستقلة عن الذبر » .

أما ما يرويه فندريس عن « جوتيو » من محاولة تحديد البدء أو النهاية للكلمة على أساس ما يمتري نهايات الكلمات من ضعف أو خور في النطق ، فيبدو أن هذه الصفة إن صح وجودها في بعض اللغات لا تكاد تلتزم في الأكثرية الغالبة من اللغات الإنسانية . ومن الغلاة حينئذ أن يدعى أن للكلمة الصوتية حدوداً مستقلة في لغة من اللغات .

ويبدو أن تشابك الكلمات أو تداخلها في الكلام المتصل هو الذي يجعل الطفل في المراحل الأولى يلتقط الكلام بمن حوله في صورة كتل لا انفصام بين أجزائها . ويظل الطفل يستعمل تلك الكتل اللغوية زمناً ما ، دون تحليل إلى أجزائها أو عناصرها ، كما أراد التعبير عن رغبة له من رغبات الطفولة الأولى . فقد سمعها للمرة الأولى ككتلة متماسكة الأجزاء ، فتعلمها هكذا دون تدقيق في تفاصيلها أو تمييز بين عناصرها . ويظل على هذه الحال حتى تتكرر التجارب اللغوية على سمعه في مناسبات متعددة متباعدة ، قبل أن يقوم بعملية تحليل الكلام إلى أجزائه ، ليتمكن استغلال الكلمات بعضها عن بعض .

وقد كان مما لاحظناه في أطفالنا أنهم تعودوا سماع ذلك السؤال التقليدي حين يقابلون شخصاً ما للمرة الأولى فيسألهم : « اسمك إيه يا شاطر ؟ » وتعلم كل منهم أن يجيب عن اسمه قائلاً : محمد أو علي أو زينب . . . إلخ ويتكرر نفس

السؤال ، ويتكرر معه نفس الجواب . ويحتفظ الطفل في بادئ الأمر بصورة تقريبية لهذا السؤال التقليدي دون تمييز بين أجزائه وعناصره . فإذا نطق أمامه أحد الناس بما يشبه هذا السؤال في مجموعه كأن يقول مثلاً « سمك ليه ياشافط؟ » ، فقد يسارع الطفل إلى الإجابة التقليدية وينطق باسمه .

كذلك أدى الربط الوثيق بين الكلمات في الكلام المتصل إلى بعض الظواهر اللغوية التي منها الإدغام ، وذلك كأن يفنى الحرف الذي تنهى به الكلمة في الحرف الذي تبدأ به الكلمة التالية . وأمثلة هذا كثيرة حتى في القراءات القرآنية ^(١) . ومن تلك الظواهر تأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض في الجهر والهمس ، وفي الشدة والرخاوة ، ونحو هذا مما يعرض له علماء الصوتيات في بحوثهم ^(٢) .

بل لقد أدى هذا الربط الوثيق بين الكلمات إلى خلط بين نهاياتها وبداياتها في بعض الأحيان ، مما ترتب عليه في آخر الأمر ظهور كلمات جديدة في اللفظة ، مثل الفعل العامي « جاب » ، فأغلب الظن أنه نشأ عن التعبير القديم « جاء بكذا » ، وأن الباء الجارة قد اعتبرت نهاية للفعل السابق عليها ، وكذلك الكلمة « عقبال » التي يرجح أنها تكونت من الاستعمال القديم عقي لـ كم أو لها أو لنا . . . إلخ افتسرت اللام إلى الكلمة السابقة عليها ، وأصبحت تكون جزءاً منها .

ومثل هذا يمكن أن يقال حين نبحث في الاستعمالات العامية « أ كنه ، أعزنه ، أجرنه » التي يرجح أنها نشأت عن العبارات القديمة [كما أنه ، أعزو أنه ، جرى أنه] إلخ .

(١) أنظر أمثلة هذا في كتاب الأصوات اللغوية صفحة ١٢٣ .

(٢) الأصوات صفحة ١١٢ .

ويبدو أن القدماء من علماء العربية لم يصادفوا صعوبة في تحديد معالم الكلمة ، فقد قنع أكثرهم بوصفها على أنها « اللفظ المفرد » أو « القول المفرد » ، ولم يخطر في أذهانهم أن الأفراد في الكلام المتصل لا يمكن تصويره إلا بالسكتات أو الوقفات على مجموعات صوتية من هذا الكلام . ومسألة السكتات أو الوقفات مرجعها إلى الناطق بالكلام ، فهو إن شاء وقف بعد حرفين أو ثلاثة أو عشرة أو أكثر . ويتكون نطقه حينئذ من مجموعات صوتية ، تختلف طولاً وقصراً ، منها ما ينطبق على الكلمة الواحدة ، ومنها ما قد ينطبق على كلمتين أو أكثر . فلو أن اللغات تحتم الوقوف عند آخر كل كلمة في أثناء الكلام ، لأمكن حينئذ تحديد الكلمات على أساس صوتي محض ، ولأمكن أن يكون للأفراد في اصطلاح هؤلاء العلماء دلالة صوتية واضحة .

وقد بدا النقص في التعريف المتقدم لبعض هؤلاء النحاة ، فحاول تلافيه بإشراك المعنى مع اللفظ وقال : الكلمة لفظ مفرد دل على معنى مفرد . وهكذا زاع يتخذ لتعريف الكلمة أو تحديدها أساسين هما اللفظ والمعنى . ومع أن هذا التعريف ينطبق على الكثرة الغالبة من كلمات اللغة العربية ، نرى أنفسنا معه في حيرة حين نتساءل : هل تعد أداة التعريف كلمة ؟ وهل تعد الباء الجارة كلمة ؟

وليس المحدثون من علماء اللغات بأوفر حظاً من القدماء في تعريف الكلمة أو تحديدها ، فقد سلكوا في هذا مسالك شتى ، وزهدوا فيه مذاهب متعددة ، جعلتهم في آخر الأمر يذهبون إلى صعوبة تحديد الكلمة بحيث ينطبق هذا التحديد على كل اللغات ، وقنعوا بمحاولة تحديدها في لغة ما ، غير أنهم يجمعون على أن الأساس الصوتي وحده لا يصلح لتحديد معالم الكلمات ، وأنه لا بد من أن يشترك معه معنى الكلمة أو وظيفتها اللغوية ليكن تحديدها .

وقد أضع للعالم المشهور ساپير Sapir^(١) أن تحليل الكلام إلى عناصر أو وحدات ذات دلالة يقسم هذا الكلام إلى مجموعات صوتية منها ما ينطبق على الكلمة ، ومنها ما ينطبق على جزء من كلمة ، ومنها ما ينطبق على كلمتين أو أكثر . خذ مثلاً جملة : « قطعت الشجرة بالفأس ليلة أمس » ، التي يمكن تحليلها إلى عناصر ذات دلالات متباينة هي : (١) قطع (٢) ت (٣) ال (٤) شجرة (٥) ب (٦) ال (٧) فأس (٨) ليلة أمس .

ودلالة العنصر الأول هي الحدث أو العملية ، والعنصر الثاني هي المفرد المتكلم ، الثالث هي التعريفية ، والرابع النبات المعروف ، والخامس الآلية ، والسادس التعريفية ، والسابع الأداة المعروفة ، والثامن الزمنية . ولا شك أن العنصر الثاني والثالث والخامس والسادس أجزاء للكلمة ، في حين أن العنصر الثامن وحده يتكون من كلمتين .

ولعل « بلومفيلد »^(١) Bloomfield في تحديده للكلمة بقوله : « أصغر صيغة حرة » ، إنما أراد أن يتفادى اعتبار أمثال أداة التعريف أو الباء الجارة من الكلمات .

ومهما يكن من اختلاف وجهات النظر بين المحدثين في تحديد الكلمات أو تعريفها ، فإنهم يشيرون في كتبهم إلى اختبار دقيق يمكن أن نتبين منه معالم الكلمة أو حدودها ، وذلك بأن يمكن إفرادها بالنطق ، وحذفها من الكلام أو إقحامها فيه ، أو الاستعاضة عنها بأخرى . فضمير المتكلم في الجملة السابقة لا يمكن إفراده وإن أمكن حذفه والاستعاضة عنه بغيره . أما « شجرة » في هذه الجملة ، فيمكن إفرادها ، ويمكن إقحامها في كلام آخر مثل « نمت الشجرة في حديقة » ، ويمكن الاستعاضة عنها بكلمة مثل « النخلة » كأن يقال « قطعت النخلة ليلة أمس » .

(1) language. p. 25.

(2) Language.p . 178.

وبرغم هذه الحيرة في تحديد الكلمة بين القدماء والمحدثين، فإن اللغة تتضمن من العناصر الواضحة الاستقلال في لفظها ومدلولها ، وهي التي يعرفها الناس بالكلمات ككل الأسماء والأفعال . وتلك هي التي تكون الكثرة الغالبة من عناصر أى لغة من اللغات ، وهي التي يبلغ من وضوحها لفظاً ومعنى أن يتعرف عليها الطفل الصغير بعد زمن قليل من تعلمه لغة أبويه ، ويشترك في تمييزها الجاهل والمتعلم .

وهذا النوع من الكلمات هو الذى يعيننا هنا لوضوحه في لفظه ، ووضوحه في دلالاته، وتميزه بين العناصر اللغوية في كل اللغات البشرية ، لأن كلا من هذه الكلمات يتضمن دلالة اجتماعية معروفة مألوفة بين جمهور المتكلمين من أبناء اللغة .

أنواع الدلالات

تصور معنى صديقين يتحدثان ويقول أحدهما للآخر [لا تصدقه فهو كذاب هل يعقل أن تصدق العين بالنقط في وسط الصحراء بعد ثوان] ١١٩ .

لكي يفهم السامع المراد من هذه العبارة لا بد أن يسكون قد مر قبل سماعها بتجارب كثيرة يستعين بها على الإحاطة بظروف هذا الكلام وملابساته . ولا يتم فهمه لها بغير الوقوف على تلك الظروف والملابسات التي منها صلة المتكلم بالمتحدث عنه ، بل وصلة المتكلم بالسامع ، وما يمكن أن يتضمنه الشروع الذي يدور حوله الحديث من إمكانيات مالية وفنية وترتيب وتنظيم . ولا بد للمتكلم والسامع في مثل هذا الحديث من تجارب علمية سابقة تقصل بالنقط وطبيعته ، وكيفية استخراجها أو التفقيب عنه ، وتجارب أخرى عن الصحراء وطبيعتها تكونها ، وموقعها الجغرافي، وغير ذلك من بيانات ومعلومات مشتركة بين السامع والمتكلم على أساسها يفهم أحدهما الآخر وبدونها لا يتم هذا الفهم .

وتقتبع تلك الظروف والملايسات يستلزم الرجوع إلى الوراء زمناً طويلاً ،
وتقصي حالات وتجارب كثيرة لا تدسع لها صفحات من الوصف للوقوف على
تفاصيلها . هذا إلى أن لنفسية كل من المتكلم والسامع دخلا في فهم هذا الحديث .
فهل من طبيعة المتكلم المغالاة أو التشاؤم ، وهل من طبيعة السامع حسن الظن
بالناس ، أو التشكك والريبة في سلوكهم ، إلى غير ذلك من ظروف معقدة لا تكاد
تقع تحت حصر .

ولكى يتنبأ اللغوي بأن مثل هذا الحديث يستجيب له السامع بنفس القدر
الذي أراد المتكلم ، لا بد له من الإحاطة بكل هذه الظروف والملايسات ،
وليست هذه الإحاطة بالأمر الهين السهل ، لأنها تتطلب زمناً طويلاً وبحوثاً
مستفيضاً .

وليس يعتمد الفهم على مجرد نطق المتكلم بتلك الكلمات ، فقد يلفظ بها
هذا المتكلم أمام سامع آخر يقف أمامها مشدوها لا يدري الهدف منها ، ولا يلبث
أن يتساءل : من هذا الذي يتحدث عنه ؟ ولماذا لا أصدقه ؟ وأى صحراء تعنى ؟
وأى موقع في هذه الصحراء ؟ ومن القاعون بهذا المشروع ؟ ومن المولون له ؟
بل قد يتساءل عما إذا كان النفط يستخرج من عيون الأرض ، أو يصنع في معامل
ومصانع تقوم بتركيبه كما تتركب الأدوية والمستحضرات !!

فالفهم عن طريق الوقوف على تلك الظروف والملايسات عملية تتم قبل الفهم
للنص اللغوي أو العبارة المنطوق بها .

دعنا نفترض أن المشاركة قد تمت بين كل من المتكلم والسامع في ظروف
سابقة ، بحيث أصبح كل منهما يقف على كل الملايسات ، وأصبح من الممكن
لهذا المتكلم أن ينطق بمثل هذه العبارة ، كما أصبح من الممكن لهذا السامع أن

يستجيب لها ، ثم دعنا بعد هذا نقسأل عن الدلالات التى يستمدّها السامع من مثل هذا المنطوق :

تتضمن هذه العبارة أنواعاً من الدلالات يمكن أن تقسم بحسب مصدرها إلى ما يأتى :

١ - دلالة صوتية :

وهى التى تستمد من طبيعة بعض الأصوات فى هذه العبارة ، فـ كلمة « تنفضح » كما يحدّثنا كثير من اللغويين القدماء تعبر عن فوران السائل فى قوة وعنّف . وهى إذا فورنت بنظيرتها « تنفضح » التى تدل على تسرب السائل فى ثؤدة و بطة ، يتبين لنا أن صوت الخاء فى الأولى له دخل فى دلالتها ، فقد أ كسبها فى رأى أولئك اللغويين تلك القوة وذلك العنّف . وعلى هذا فالسامع يتصور بعد سماعه كلمة « تنفضح » عيناً يفور منها النفط فوراناً قوياً عالياً .

والفضل فى مثل هذا الفهم يرجع إلى إشار صوت على آخر ، أو مجموعة من الأصوات على أخرى فى الكلام المنطوق به .

هناك إذن نوع من الدلالة تستمد من طبيعة الأصوات ، وهى التى نطلق عليها اسم الدلالة الصوتية .

ومن مظاهر هذه الدلالة الصوتية « النبر » فقد تتغير الدلالة باختلاف موقعه من الكلمة . فبعض الكلمات الإنجليزية تستعمل « اسماً » إذا كان النبر على المقطع الأول منها ، فإذا انتقل النبر على مقطع آخر من الكلمة أصبحت « فعلاً » وتستعمل حينئذ استعمال الأفعال .

أما فى جملتنا السابقة [هل يعقل أن تنضخ العين فى وسط الصحراء فى ثوان] ، فيمكن أن يزيد الضغط أو النبر على « وسط الصحراء » فيصبح موضع الغرابة

أن تنطبق بئر النفط في وسط الصحراء ، وأن هذا من غير المؤلف في مهنة التنقيب عنه ، وإن سواحل البحار مثلاً هي المكان الطبيعي لمثل هذه الآبار . أما إذا زاد المتكلم الضنط أو التبر على « في ثوان » ، كان محل الغرابة أن تتم مثل هذه العملية المعقدة في مثل هذا الزمن القصير .

ومن مظاهر الدلالة الصوتية ، ما نسميه بالنفمة الكلامية infonation وتلعب هذه النفمة في بعض اللغات دوراً هاماً . ففي اللغة الصينية مثلاً قد يكون للكلمة الواحدة عدة دلالات لا يفرق بينها إلا اختلاف النفمة في النطق .

خذ مثلاً تلك العبارة العامية « لا يا شيخ ؟ ! » وتذكر أنك تستطيع أن تنطق بها بعدة نغمات ، وهي مع كل نفمة من تلك النغمات تفيد دلالة خاصة ، فهي مرة لمجرد الاستفهام ، وأخرى للتمكيم والسخرية ، وثالثة للدهشة والاستغراب وهكذا .

فتغير النفمة قد يتبعه تغير في الدلالة في كثير من اللغات .

٢ — الدلالة الصرفية :

هناك نوع من الدلالة يستمد عن طريق الصيغ وبنياتها ، ففي جملتنا السابقة ، تخير المتكلم [كذاب] بدلاً من « كاذب » ، لأن الأولى جاءت على صيغة يجمع اللغويون القدماء على أنها تفيد بالمبالغة . فكلمة « كذاب » تزيد في دلالتها على كلمة « كاذب » ، وقد استعمدت هذه الزيادة من تلك الصيغة المعيبة ، فاستعمال كلمة « كذاب » ، يعد السامع بقدر من الدلالة لم يكن ليصل إليه أو يتصوره لو أن المتكلم استعمل « كاذب » .

٣ — الدلالة النحوية :

يُحتم نظام الجملة العربية أو هندستها ترتيبياً خاصاً لو اختلف أصبح من العسير أن يفهم المراد منها . تصور مثلاً أن جملتنا السابقة أصبحت [لا تصدقه في وسط الصحراء فهو هل يعقل في ثوان النفط كذاب العين تنضخ] !!

٤ — الدلالة المعجمية أو الاجتماعية :

وهي الدلالة التي نوجه إليها هنا كل عنايتنا ، كالدلالة التي تستفاد من « التصديق » ، ودلالة « الكذب » ، « الصحراء » ، و « النفط » ، و « النضوخ » إلى آخر ما في جملتنا السابقة .

فكل كلمة من كلمات اللغة لها دلالة معجمية أو اجتماعية ، تستقل عما يمكن أن توحيه أصوات هذه الكلمة أو صيغتها من دلالات زائدة على تلك الدلالة الأساسية ، التي يطلق عليها الدلالة الاجتماعية .

فكلمة « الكذاب » في جملتنا الآنفة الذكر تدل على شخص يتصف بالكذب ؛ وتلك هي دلالتها الاجتماعية غير أنها اكتسبت عن طريق صيغتها قدراً آخر من الدلالة يسمى بالدلالة الصرفية .

والفعل « تنضخ » كلمة تدل على تسرب السائل ، وتلك هي دلالتها الأساسية ، ولكننا في رأى اللغويين قد اكتسبت عن طريق تكوينها الصوتي وطبيعة الأصوات فيها ، قوة وعنفاً في تلك الدلالة الأساسية .

ومع أن لكل كلمة دلالتها الاجتماعية المستقلة ، نلاحظ أنه حين تتركب الجملة من عدة كلمات تتخذ كل كلمة موقفاً معيناً من هذه الجملة ، بحيث ترتبط الكلمات بعضها ببعض على حسب قوانين لغوية خاصة بالنظام النحوي ، وفيه تؤدي كل كلمة وظيفة معينة .

ولا يتم الفهم أو يكمل إلا حين يقف السامع على كل هذه الدلالات . وليس من الضروري أن نتصور السامع على علم بالنظام الصرفي والنحوي في اللغة على الصورة المعتدة التي نراها في كتب النحاة الأول . ولا نفترض في السامع لكي يتم فهمه جملة من الجمل أن يكون قد اتصل أى نوع من الاتصال بعلم اللغة من نحو وصرف ، بل يكفي أن يكون السامع قد عرف عن طريق التلقى والمشافهة في تجارب سابقة الفرق بين استعمال كلتي « الكذاب » و « الكاذب » ، وأن يكون قد تعود من المناسبات الكثيرة كيفية تكوين الجمل والربط الصحيح بين كلماتها .

ويكتسب أبناء اللغة كل هذه الدلالات عن طريق التلقى والمشافهة ، ويتطلب هذا الكسب زمنا ليس بالقصير قبل أن يسيطر المرء على لغة أبويه ، وتصبح أنظمتها بمثابة الماديات الكلامية ، يؤديها دون شعور بخصائصها ، أو على الأقل دون أن يشعر بها شعور عالم النحو والصرف .

ولا تلبث الدلالات الصوتية والصرفية والنحوية بعد المران السكافي أن تحل من كل مقام منطقة اللاشعورية أو شبه الشعورية يراعيها بطريقة تكاد تكون آلية دون جهد أو عناء كبير ، وتلك هي المرحلة التي يعرفها اللغويون بالسليقة اللغوية .

أما الدلالة الاجتماعية للكلمات فتظل تحتل بؤرة الشعور ، لأنها الهدف الأساسي في كل كلام . وليست العمليات العضوية التي تقوم بها في النطق بالأصوات إلا وسائل يرجو التكلم أن يصل عن طريقها إلى ما يهدف من فهم أو إفهام .

وقد اختص المحدثون من اللغويين تلك الدلالة الاجتماعية بالدراسة
(م ٤ — الألفاظ)

والبحث وجعلوا منها فرعاً دراسياً مستقلاً سموه Semantics ، زادت عنايتهم به خلال القرن العشرين .

ويبدو أن بعض اللغويين من المحدثين يميلون إلى التفرقة بين الدلالة المعجمية والدلالة الاجتماعية ، إذ أن المعاجم وإن كانت مهمتها الأساسية هي توضيح تلك الدلالات الاجتماعية ، غير أنها قد تعرض لبحث مسائل من النحو والصرف . فليس من مهمة المعجم الحديث أن يبين كيف نشق اسم الفاعل من كل فعل من أفعال اللغة ، ولا الجمع لكل اسم من أسماء اللغة ، ولكن المعجم قد يعرض لشيء من هذا حين تكون الصيغة الشائعة غير جارية على النظام المألوف لاسم الفاعل أو الجمع . فعالم اللغة يحاول تقييد القواعد ويوفقنا على المطرد القياسي منها ليستطيع كل منا استنباطها بنفسه ، أو قياسها دون حاجة إلى سماعها من غيره ، أو الكشف عنها في معجم من المعاجم . فإذا استقرت تلك القواعد وأصبح كل من يدرك كيف يشق اسم الفاعل اشتقاقاً قياسياً مطرداً وكيف يجمع الاسم جمعاً قياسياً مطرداً ، وكيف يستخرج المضارع من الماضي أو العكس بطريقة قياسية مطردة ، لم يعد هناك حاجة إلى النص على كل هذا في صلب المعاجم . أما ما يجري على غير المألوف من جموع أو مشتقات فتلك هي التي يعنى بها بعض مؤلفي المعاجم ويرى من الضروري النص عليها .

وقد أدرك هذه الحقيقة العلمية معظم أصحاب المعاجم العربية القديمة ، فزاهم في غالب الأحيان لا ينصون إلا على الصيغ الغريبة غير الجارية على القياس والاطراد في ظواهر اللغة .

فليس من الضروري أن ينص صاحب المعجم العربي على أن جمع « سيف » « سيوف » لأن هذا هو المطرد القياسي ، ولكنه قد يرى من الضروري أن يشير إلى أنه جمع أيضاً على (أسياف) . وليس من الضروري أن ينص على

أن مضارع الفعل « فكح » هو « يذكح » بفتح الـكاف ، ولكنه قد ينص على سماع هذا المضارع بكسر الـكاف أيضا .

ومن الحق أن يقال هنا إن معاجنا العربية القديمة لم تلتزم هذا الطريق السوى في عرض مفرداتها ، بل جمع بعضها بين المطرّد القياسى والشاذ السماعى في كثير من الأحيان . ولعلّ تشعب القواعد العربية واختلاف جهات النظر فيها ، بل واضطرابها في بعض الأحيان ، كل هذا جعل مهمة واضع المعجم العربى عسيرة .

ولكن المعاجم قديما وحديثها تتخذ من الدلالة الاجتماعية للكلمات هدفاً أساسياً ، وتكاد توجه إليها كل عنايتها . فلا غرابة إذن ألا يفرق بعض اللغويين بين الدلالة المعجمية والدلالة الاجتماعية ، وهذا هو ما ارتضيناه هنا أو قلنا به . فكلما ذكرنا الدلالة المعجمية لا نمنى بها سوى الدلالة الاجتماعية .

تلك هى الدلالات المتعددة التى يمكن أن تستفاد من النص المنطوق به ، أما تلك الدلالات الأخرى التى تستمد من الظروف والملايسات أو ما يسمى أحيانا بسياق الكلام ، فمتشعبة معقدة . ولعل من المفيد هنا إبيان قدر هذا السياق من التشعب والتعقيد أن نسوق حدثاً لنوياً صغيراً نفترض أن يتم بين شخصين متكلم وسامع ، محاولين وصف تلك الظروف والملايسات فى كل خطوة من خطوات هذا الحدث اللغوى ، حتى يتم فهمه ، ويتحقق الهدف منه .

كيف يتم الفهم ؟

تصور مى رجلا يسير فى أحد شوارع المدينة مع صبي صغير ، ثم تصور أن يمر الرجل والصبي بمطعم يعرض بعضاً من أصناف الطعام الشهى ، وتنبعث

منه رائحة مشبهة لبعض الشواء ، فيسترعى كل هذا انتباه ذلك الصبي ، ويسبل له لعابه ، ويحس بالجوع ، فينطق بمجموعة من الأصوات اللغوية ، ويقول للرجل جملة مثل (هات شطيرة من هذا الشواء) . وهنا يرى الرجل يتقدم نحو ذلك المطعم ، ويخرج بعضاً من النقود ، ويشتري تلك الشطيرة ، ويناولها للصبي فيلتمها التهاماً مسروراً مغتبطاً .

ففي هذا الحدث الصغير على بساطته تمت عمليات كثيرة بعضها عضوى وبعضها نفسى قبل أن يتحقق على صورة من الصور . وأولى تلك العمليات أن شعاعاً من الضوء قد انعكس على عيني الصبي من ذلك الطعام المعروض ، ففسره الصبي بأن أمامه طعاماً شهياً ، وقد صعب هذا الضوء المنعكس رائحة تمود الصبي أن يشمها مع كل طعام يشتهي ، وتصادف في نفس الوقت أن كان الصبي يحس بإفراز في فمه هو الذى نسميه باللعاب ، وإفراز في معدته في شكل عصارة تولد الإحساس بألم الجوع . وكل عملية من تلك العمليات تتطلب من المتخصص دراسة طويلة وبحوثاً مستفيضة ، فطبيب العيون يفسر لنا في مجلدات ضخمة كيف تنعكس أشعة الأشياء المرئية على العيون وكيف تتم الرؤية ، وطبيب الأنف يوضح لنا كيف يكون الشم وكيف يرتبط بالتجارب السابقة لكل منا ، مما قد يستنفد في بحثه زمناً طويلاً ، وجهداً عقلياً كبيراً . وطبيب ثالث يفسر لنا كيف يتم إفراز اللعاب ، ويوضح لنا كنه العصارة المعدية ، وما تتركب منه ، وأثرها في شعور الإنسان ، ويتطلب كل هذا بحوثاً علمية يتوفر عليها نخبة من ذوى العقول الجبارة في مجال من البحث يشترك فيه الطبيب والكيميائى والصيدلى وغيرهم .

وتتم كل هذه العمليات المعقدة لدى الصبي في سرعة لا تكاد تتجاوز بضعة ثوان ، بعدها ينطق الصبي بتلك الأصوات اللغوية . فهى الشرط الأول الذى لا بد أن يتحقق حتى يمكن أن يكون هناك مثل ذلك النطق .

أما عملية النطق فيشترك فيها هواء الرئتين ، ويشترك فيها الحنجرة واللسان والشفقتان ، وتم بعد عدة أشكال وأوضاع للسان في الفم ، وعدة أشكال وأوضاع للشفقتين . بعدها يصدر الهواء إلى الخارج ، ويفتقل في شكل موجات معينة إلى أذن السامع . فنحدث في طباتها أثراً خاصاً هو الذي تحمله أعصاب الأذن إلى المخ فيفسرها أو يفهمها .

وعملية النطق والفهم يعني بها اللغوى وعالم النفس ، ويعرفان في بحثها وتحليلها جهوداً علمية لا تقل عسراً عن الجهود التي يقوم بها من سبقوهم في بحث العمليات التي تمهد لهذا النطق .

أما ما يتم بعد النطق والفهم فكأن يسارع الرجل إلى تلبية رغبة هذا الصبي ، ويخرج نقوده ، وينتظر دوره في الشراء ، ويتحمل الوقوف والانتظار إلى أن يعد له صاحب المطعم ما يشتهي . وعملية الشراء ودفع تلك العملة الرمزية نظير شيء مرغوب فيه ، يستعين به المرء على دفع ضرر محقق هو الجوع وما قد يترتب عليه . هذه العملية الشرائية يبحثها رجل الاقتصاد في علمه الذي ينظم المعاملات بين الناس .

بهذا نرى أن الحدث الصغير من أحداث الحياة يتطلب عمليات كثيرة معقدة، بعضها يسبق النطق ويعده له ، ثم عملية النطق نفسها التي بعدها تتم عمليات أخرى . وكل هذه العمليات ضرورية لصحة الفهم والتفاهم ، ولا يتم هذا الفهم أو التفاهم إذا نقصت تلك العمليات عنصراً من عناصرها .

ولسنا نزعم أن الظروف التي أحاطت بالصبي في مثلنا السابق تؤدي حتماً وفي كل مرة إلى نفس العبارة التي نطق بها الصبي . فقد يرى الطعام ويشم الشواء ويحس بالجوع ، ومع هذا ينطق بعبارة أخرى أو لا ينطق ، إذ يتوقف هذا على صلة الصبي بالرجل ، وتجاربه معه ، فقد يكون الرجل والدّاً لهذا الصبي يدلّه

ويأتي كل طلباته . وقد يكون الصبي خجولاً فلا يتكلم ، وقد تكون تجاربه السابقة مع هذا الوالد لا تشجعه على النطق . كذلك ليس من الضروري أن يسارع الرجل إلى تلبية طلب الصبي ، فقد يكون خالي الوفاض لا يملك من المال ما يسمح بمثل هذا الشراء ، أو قد ينفّر من أن يزج بنفسه في وسط الشارين المتزاحمين على الطعام ، فيعرف الصبي في رفق أو عنف ، إلى غير ذلك من الظروف والأحوال والملايسات التي لا تكاد نحصى عندما نحمل مثل ذلك الحدث الصغير البسيط .

ويعنى اللغوى عادة بالتهرف على الدور الذي تقوم به العبارة المنطوقة ، أو تلك الأصوات اللغوية التي تصدر من الفم وتلقاها الأذن . ويتضح هذا الدور حين نتصور أن الصبي كان وحده : وأحاطت به نفس الظروف من رؤية الطعام والإحساس بالجوع ، هنا نراه قد يندفع في صمت نحو الطعام ويشتري منه ، أو يحتطف في خاسة بعض الشطائر . ومثله حينئذ مثل الحيوان الأعجم حين يرى الطعام أو يشمه فيندفع نحوه في شكل غريزي ليحصل منه على ما يسد رمقه ، ويمنع عنه ضرراً محققاً هو نتائج الجوع من مرض أو هزال . وقد يتججج في عمله فيحصل على الطعام وقد يفشل فيظل جائعاً . فالإنسان الصامت يشبه الحيوان الأعجم إلى حد كبير .

أما الإنسان الناطق فهو في ظروف مواتية أكثر توفيقاً وأقرب إلى تحقيق أهدافه ، إذ يستعين بأخيه الإنسان ، ويتعاون معه على الوصول إلى ما يشتهي بواسطة تلك الوسيلة التي ندعوها اللغة ، والتي تنظم كل الصلات بين أفراد مجتمع من المجتمعات . فاللغة أداة لتيسير مطالب الحياة ، فهي توفر على الناطق مجهوداً عضوياً كبيراً كان عليه أن يبذله لو أنه عاش وحده ، ولم يتعاون مع مجتمع إنساني ، يقوم كل فرد فيه بنصيب في تيسير سبل الحياة ومطالبها ، حتى يتكون

من تلك الجهود مجتمعة نظام اجتماعي دقيق محكم . ومن هنا نرى الدور الذي تقوم به اللغة في حياة المجتمع الإنساني ، وتنظيم الصلة بين أفراده .

ويستعين اللغوي الحديث بعلم وظائف الأعضاء ، وعلم التشريح وعلم الطبيعة لتفسير تلك الأصوات التي تصدر من الفم ، وتلقفها الآذان . فالصبي الذي نطق بقوله « هات شطيرة من هذا الشواء » قد حرك الوترين الصوتيين في حنجرتة حركات أو ذبذبات منتظمة ذات عدد خاص ، ثم جعل للسان أوضاعاً عدة ، وللشفقتين أشكالا متباينة ، مما جعل هواء الرئتين يحدث موجات صوتية تحرك الهواء الخارجى ، وتنقل إلى أذن السامع فيفسرها أو يفهمها ، ويتصرف تبعاً لها ، كما لو أنه يمرّ بنفس التجارب التي يمر بها الصبي ، أو كما لو أنه تحيط به نفس الظروف التي تحيط بهذا الصبي من رؤية الطعام واشتهائه والإحساس بالجوع .

والناس في مجتمع من المجتمعات لا يكادون يعنون بتلك الأصوات اللغوية إلا بمقدار ما تحقّقه لهم من أغراض دنيوية ، فهي لهم بمثابة الوسيلة لا الغاية . فالصبي يفهمه أولاً الشطيرة نفسها لأنها هي التي تسدّ رمقه ، ولا يكاد يعنى بتلك الأصوات التي تتكوّن من الشين والطاء والياء والراء والتاء .

ورغم أن بعض أنواع الحيوان قد تستجيب لبعض الأصوات على النحو الذي وصفناه آنفاً ، رى أن أصوات الحيوان محدودة قابلة يمكن حصرها بسهولة . فالهرة مثلاً لا تسكاد تستخدم في كل مطالبها وحاجياتها أكثر من ثلاثة أو أربعة أصوات يستطيع دارس الحيوان أن يتعرف عليها بسهولة وأن يميز بينها .

أما الإنسان فكلامه كثير التنوع متعدد الألوان ، ولا تسكاد تحصى أصواته أو ألفاظه ، وهو يتخذ لكل منها دلالة معينة تحقق له غرضاً من أغراض الحياة ، تلك الأغراض التي لا تحصى ، والتي لا تنتهى إلا بانتهاء الحياة نفسها . ويتوسل الإنسان بكلامه إلى التفاهم بين أفراد مجتمعه ، كما قد يستعين به في التأمل والتفكير ،

ولا غرابة حينئذ أن يقال إن الإنسان يفكر في كلمات شبه مقطوعة ، وإنه لا تفكير
بغير تلك الكلمات والألفاظ ^(١) .

ومن العسير أن نقصور إنساناً يفشأ وحده في جزيرة نائية ثم يفكر ويتأمل
ويصل وحده إلى الاهتداء إلى الإله ، كشخصية حتى بن يقظان التي وصفها ابن طفيل
وغيره من الفلاسفة ، أو كشخصية روبنسن كروزو المشهورة في آداب الغربيين .
أما الصلة بين تلك الأصوات وما تثيره في الأذهان من أمر أو ما يقبعمها من
تصرفات ، فأمر كان ولا يزال موضع بحث العلماء والمفكرين . وسنرى فيما بعد
أن فلاسفة اليونان قد اختلفوا بصدد هذه الصلة ، فكان سقراط وأفلاطون
ممن يرون أن الصلة بين الأصوات والمدلولات طبيعية حتمية ، في حين أن أرسطو
كان يراها صلة عرفية لا تعدو أن تكون بمثابة رمز اصطلاح الناس على وضعه
للمدلول . ومثله حينئذ كمثل كل الرموز العرفية كالإشارة باليد أو إشارات التلفراف
أو الشفرة ، أو الأعلام المتعددة الألوان والأشكال في السفن ، أو الأصواء من
أحمر وأخضر وأصفر حين يصطنعها الناس لتنظيم شئون الحياة .

وسواء كانت هذه الصلة طبيعية أو عرفية ، فالذي لا يزال يحير المفكرين
هو كيف تثير هذه الأصوات تلك الدلالات في الأذهان ، ولم لا تثير في كل مرة
نفس الدلالات ، أو تؤدي إلى نفس التصرفات ؟ وهنا يتدخل علم النفس ويرجع
هذا إلى الحالة النفسية للمتكلم والسامع ، وهي من التعقيد والغموض بحيث
يصعب الوقوف على نظامها ، ويتعسر إخضاعها للتجربة أو الملاحظة .

وعلماء اللغة صنفان من الناس ^(٢) :

الروحانيون : وهؤلاء يرون أن لكل منا نفساً أو عقلاً . وعمله الجسم

(1) Language in Society by M.M.Lewis. p. 235.

(2) Story of language. p 138. Language by Bloomfield p.142

ولكنه يختلف عن تلك المادة الملموسة المحسوسة في كنهه ، ويمت إلى عالم آخر غير عالم المادة المألوفة لنا ، عالم روحى أو روحانى غير خاضع للملاحظة أو التجربة بالحواس كما تخضع ظواهر الطبيعة الأخرى . فقد يسهل التعرف على كل تفاعل كيميائى ، أو ملاحظة النار وأثرها في الأشياء القابلة للاحتراق ، وقد يسهل تتبع النمو في النبات والحيوان ، وسقوط الأمطار ، وقصف الرعد ، وضوء البرق ، وتقلل الأصوات ، وغير ذلك من ظواهر الطبيعة التي أخضعها الإنسان للملاحظة والتجربة ، واستطاع تحليلها وتفسيرها ، وجعل لها أسبابا ومسببات ، وانتهى في شأنها بالكشف عن نظمها ، وأصبح معها يقنبا بالفتايج من المقدمات ، ويصل إلى كليات لا تقبل الخلاف أو النزاع ، فكل ماء يطفى النار ، وكل نار تحرق ، وفي كل يوم تشرق الشمس من الشرق وتغرب في المغرب ، وفي كل شهر يتناقص الهلال ويكتمل ، وكل ماء يتبخر بالحرارة ويتجمد بالبرودة ، إلى غير ذلك من النظام المادى الذى استطاع الإنسان أن يفسره ويحدده في غالب الأحيان .

ولاشك أن للنفس نظاما آخر ، ولكنه غير خاضع للتجربة والملاحظة بواسطة الحواس ، ولا شك أن كل مقدمات في هذا النظام النفسى تؤدي حتما إلى نتائج معينة ، فليست تسير الففوس على غير هدى ، أو دون نظام ، وإن كنا لا نزال نجعله ، ولا نقف على أسرارهِ .

فلو أننا نعرف تفاصيل هذا النظام النفسى لأمكن التنبؤ بنتيجة الكلام في كل مرة يتم فيها القطق بتلك الأصوات اللغوية .

أما الماديون من أصحاب علم النفس فيرون أن الجسم الإنسانى جهاز شديد التعقيد ، فيه الأعصاب بمثابة الأسلاك التي تكون شبكة معقدة غاية التعقيد ، ومحاكمة أدق الأحكام ، وأجزاءه متشابكة ، ونواحيه متداخلة ، ويتأثر الجهاز كله بأقل خلل في أى عضو ، بل في أى شعيرة من شعيرات الشرايين .

ولو تصورنا أعقد جهاز ميكانيكى وصل إليه العقل الإنسانى من تلك الأجهزة التى لا تكاد تحصى أجزاؤها ، والتى تستنفد فى تركيبها الشهور والسنين وقسمناه بالجهاز الإنسانى لبدننا كصندوق أجوف فيه عدة من الأسلاك تصل جنباته ، ولبدن الجسم الإنسانى كجهاز للإرسال والاستقبال فى الإذاعة ، وقد شحفت جوانبه وأنحاؤه بآلاف من الأسلاك المعقدة المتشابكة ، وآلاف القطع والأجزاء التى لكل منها وظيفة معينة فى ذلك الجهاز الضخم .

ومن طريف ما يذكر عن الجسم الإنسانى تلك الإحصائية التى قام بها الدكتور « ستيرنز » العالم الأمريكى ، والتى جاء فيها أن مجموع طول الأوعية الدموية الموجودة فى الجسم يبلغ ١٦٠ ألف كيلومتر ، وأن فى المخ البشرى ١٢ مليون خلية ، وفى الرئتين ٣٠٠ مليون خلية هوائية ، ويستبدل الجسم عشرة ملايين كرة حمراء من الدم فى كل ثانية .

وبتأثر الجهاز الإنسانى بأقل أنواع التأثير ، ومثله فى هذا مثل الآلة المعقدة حين يكفى عود من الثقاب لإدارتها أو تحريكها .

وقد عرف الإنسان حتى الآن عن ذلك الجهاز الجسمانى القليل ، أو أقل من القليل ، ولا يزال يحفل بالكثير ، بل لا يزال سره مغلوقاً عليه ، ونظامه غامضاً مجهولاً جهلاً تاماً .

من أجل هذا يعتمد أصحاب علم النفس إلى نوع من التجربة الخارجية حين شق عليهم ملاحظة ما يجرى فى داخل الجهاز الإنسانى ، وقنعوا بملاحظة الآثار التى تقترب على تلك العمليات الداخلية ، لعلهم يهتدون إلى شئ من أسرارهِ وخفاياه فهم يضعون عدة أفراد فى ظروف معينة ، ثم يلاحظون استجاباتهم لأثر خارجى معين ، ومن تلك التجارب والملاحظات الخارجية يحاولون تكوين رأى خاص .

ومن طرقهم مسائلة المرء موضع التجربة ، وطلبهم منه أن يصف ما يشعر به ، أو يتم داخل جسمه من عمليات على إثر دافع من الدوافع الخارجية ، ولكنهم في كثير من الحالات يضلون الطريق السوى . وذلك لأن المرء يصعب عليه وصف ما به وصفاً دقيقاً ، ويشق عليه أن يبين مكان الأثر الداخلي أو كنهه . ومثله مثل المريض حين يشير للطبيب على مكان الداء من جسمه ، ثم يكتشف الطبيب أن الداء في موضع آخر .

هذا إلى أن المسئول قد لا يجد من اللغة الإنسانية ، ما يكفي لوصف ما يحس به في داخل جسمه وصفاً دقيقاً ، فيتخبط في وصفه ، ويضال السائل .

ومن الأطباء من حاولوا الربط بين عملية النطق وعملية الفهم بملاحظة بعض الأمراض أو الإصابات التي تتركز المخ الإنساني . وتمت لهم على إثر الحروب حالات كثيرة من المصابين في أجزاء المخ ونواحيه . ومن هؤلاء المصابين من فقد القدرة على النطق ، وبقيت له القدرة على الفهم ، ومنهم من فقد كل ما حفظه من ألفاظ أفقته طول حياته من قبل ، ومنهم من يتلعثم في نطقه ، أو يفأىء أو يتأنىء في كلامه ، ومنهم من يفهم الألفاظ ولكنه لا يرتبها الترتيب المألوف حين يفككم . إلى غير ذلك من حالات كثيرة حاولوا عن طريقها أن يبينوا لنا اختصاص كل منطقة من مناطق المخ الإنساني بعملية معينة من عمليات الفهم والإفهام . ولكنهم مع هذا أو رغم ما بذلوه في هذا من تجارب ومشاهدات لم يصلوا إلى رأى قاطع في بحث الصلة بين الألفاظ ومدلولاتها ، أو ما تنبئه في الأذهان من عمليات اسمها الفهم مرة ، والتفكير مرة أخرى .

وإذا كنا قد أخذنا حتى الآن في دراسة هذه الظاهرة في الفرد الإنساني فمن الخير أن ندرسها في الجماعات ، وذلك بأن يمرض الأثر اللغوي على أكبر مجموعة من الناس ثم نلاحظ تصرفهم إزاء هذا ، مستعينين بعلم الإحصاء للوصول

إلى أرقى مرتبة من الاحتمال . ويكفى حينئذ أن يقال إن الناس في مجموعهم يتصرفون تصرفاً معيناً حين يسمعون جملة معينة دون أن نخصص فرداً معيناً منهم يمثل هذا الحكم . وتكون دراستنا حينئذ كدراسة كثير من المظاهر الاجتماعية الأخرى حين نحكم على عدد الزيجات والطلاق والولادة والموت في شعب من الشعوب ، دون التعرض لشخص بالذات ، أى أننا لا ندرى أو لا نحاول أن نقبأ ما إذا كان فلان بالذات سيتزوج أو يطلق أو يولد أو يموت .

ومن حسن الحظ أن دراسة اللغة في المجتمع لا تتطلب أحياناً الكثير من الإحصاء أو الاستقصاء ، بل يكفي في بعض الأحيان الحكم على البيئة اللغوية وتصرفاتها إزاء حدث لغوي من ملاحظة هذا في فرد واحد أو عدة أفراد .

فدروس اللغة العربية مثلاً حين يسمع أحد المصريين ينطق بعبارة مثل « صباح الخير » ، ويرى أن السامع يستجيب إلى مثل هذه العبارة ، ويقول « أهلاً وسهلاً » فله أن يحكم حكماً عاماً على هذه البيئة اللغوية ، مقررّاً أن أفرادها في مجموعهم يستجيبون لمثل هذه العبارة « هذه الاستجابة » ، ويردون عليها بنفس الرد .

وليس هذا الحكم بمناع من أن بعض المصريين قد يجيب إجابة أخرى أو لا يجيب . فأفراد البيئة اللغوية يخضعون في مجموعهم لنظام عام مطرد يألفونه ، ويشيع بينهم ؛ وكما عرض لهم حدث من الأحداث اللغوية يتصرفون على حسب هذا النظام . فاللغوي يحكم عليهم كجموعة لا كأفراد ، أى لا يختص فلان بالذات بذلك الحكم ، فلا يقول مثلاً عن فلان هذا إنه حين يحويه أحد الناس غداً أو بعد غد فن المؤكد أن استجابته ستكون على نحو معين . ولا يكاد يعنى اللغوي بتلك الظروف الخاصة ، أو الحالة النفسية الخاصة التي قد تدفع متـكـالماً معيناً إلى الفطـق بغير المألوف من الكلام ، بل يوجه عفايته إلى

ذلك النظام العام الذى ينتظم كل الأفراد ، والذى جرت به العادة فى بيئة افوية معينة . هب مثلاً أن شخصاً معيناً فى البيئة المصرية تعود لسبب ما أن ينطق بالتاء كالنطق الإنجليزى (أى بالتقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا) ، أو أن فى نطقه صفة الفأفة أو التأفة أو اللثة ، هنا لا يصح أن تتخذ هذه الحالة الخاصة مقياساً للحكم على سائر المصريين . أو هب مثلاً أن شخصاً آخر تعود أن يحبى الناس بالتحية الأجنبية « بنجور » لا يصح كذلك أن يعدّ هذا دليلاً على أن التحية فى البيئة المصرية تسلك هذا المسلك .

ولذا حين نسمع زائراً ابليد من البلدان يحكم على لفته حكماً ما بعد فترة قصيرة ، لا نسميه حينئذ متعجلاً أو مفسراً فى حكمه ، بل نقبله على أنه الحكم العام الذى ينطبق على المجموع لا على الأفراد كلا منهم على حدة . فالزائر لمصر لا يابث بعد زمن قليل أن يدرك أن المصريين بوجه عام حين يطلب منهم شئ ، ويعبرون عن استعدادهم لإجابة هذا الطلب يقولون « حاضر » ، ولكن هذا الزائر قد يحتاج إلى زمن أطول ، وتجارب أكثر حتى يمتز على أحد المصريين الذين يبدون نفس الاستعداد قائلين « ماشى » ! !

ولذا ننمى على الافويين القدماء مسلكهم حين خلطوا بين الصفات الخاصة والصفات العامة للغة ، فبينما زاهم يحكمون حكماً عاماً على لغة العرب ، زاهم فى بعض الأحيان يقحمون فى حكمهم تلك التجارب الخاصة فيقول أحدهم مثلاً سمعت أعرابياً يقول كذا ، أو سمعت امرأة من غنى تقول كذا ، متخذين من تلك الصفات الخاصة وجوهاً من القول أو رخصة يضعونها جنباً إلى جنب مع الوجه العام أو المسلك العام الذى ينتظم كل البيئة العربية .

الفصل الثالث

الصلة بين اللفظ والدلالة

- ١ -

نظرة فلاسفة اليونان

استرعت اللغة نظر المفكرين من اليونان القدماء ، فراحوا يتساءلون عن أمرارها ، ويمجبون لتلك المجموعات الصوتية التي ينطق بها المرء فتعبره عما يدور في خلده ، وتحقق له غرضاً دنيوياً نافعاً ، بل وتصله بيني جلسه صلة وثيقة تحمل منهم مجتمعاً إنسانياً متعاوناً متفاهماً ، وتغيزم من سائر المخلوقات الأخرى .

وكان أوضح ما استرعى انتباههم فتساءلوا عنه تلك المشكلة التقليدية في الربط بين اللفظ ومدلوله ، وهل تلك الصلة طبيعية كالتي بين الأسباب الكونية وما يتسبب عنها . هل هي كالصلة بين النار والاحتراق ، والخشب والتماء ، وككل تلك القوانين الكونية من مغنطيسية أو كثافة أو ضوء وما يترتب عليها من استقرار الأشياء فوق سطح الأرض ، ومن عومها أو غرقها في الماء ، ومن الرؤية والإبصار إلخ .

وبدا من سحر الألفاظ في أذهان بعضهم ، وسيطرتها على تفكيرهم ، أن ربط بينها وبين مدلولاتها ربطاً وثيقاً ، وجعلها سبباً طبيعياً لانهم والإدراك ، فلا تؤدي الدلالة إلا به ، ولا تخاطر الصورة في الذهن إلا حين انطق باللفظ . ومن أجل هذا أطلق هؤلاء المفكرون على الصلة بين اللفظ ومدلوله ، الصلة الطبيعية ، أو الصلة الذاتية .

ونلاحظ هذا الاتجاه من التفكير فيما يرويه أفلاطون في محاوراته عن استقائه سقراط الذي كان فيما يبدو يعيل إلى هذا الرأي . ولما تبين لهم غموض هذه الصلة بين ألفاظ لغتهم اليونانية ومدلولاتها ، ولم يستطيعوا لها تعليلاً مقبولاً تستريح إليه النفس وتطمئن إليه العقول ، أخذوا يفترضون أن تلك الصلة الطبيعية كانت واضحة سهلة التفسير في بدء نشأتها ، ثم تطورت الألفاظ ، ولم يمد من اليسير أن نلّين بوضوح تلك الصلة ، أو نجد لها تعليلاً وتفسيراً^(١) !!

وأخذ سقراط في محاوراته يعنى النفس بتلك اللغة المثالية التي تربط بين ألفاظها ومدلولاتها ربطاً طبيعياً ذاتياً كتلك الألفاظ المشتقة من أصوات الطبيعة من خفيف وخير وزفير .

وكان بجانب هؤلاء المفكرين طائفة أخرى من فلاسفة اليونان يرون أن الصلة بين اللفظ والدلالة لا تعدو أن تكون اصطلاحية عرفية تواضع عليها الناس . وتزعم هذا الفريق فيما بعد « أرسطو » الذي أوضح آراءه عن اللغة وظواهرها في مقالات تحت عنوان الشعر والخطابة ، وبين فيها عرفية الصلة بين اللفظ ومعناه .

وظلت كلمتنا « الطبيعية أو العرفية » محور الجدل والنقاش زمناً طويلاً بين مفكرى اليونان من لغويين وفلاسفة . وكان كل من الفريقين يؤسس رأيه على مجرد المناصرة الفكرية دون سند علمي من ملاحظة دقيقة أو استقراء للحقائق . ولكنهم جميعاً كما يصفهم « ستيورات شاس » Stewart Chase في كتابه طفيان الكلمات بقوله « إنهم مناطقة أقوياء يدور نظراؤهم في العالم إلا أنهم لم يزالوا على مقربة من المقدمات البدائية ، فلم تتخلص عقولهم من سحر الكلمة ، وحسبوا أنها ذات قوى كامنة فيها كما قد يحسب الطفل أو معتقد الشعوذة ، ولولا

(1) Miraculous birth of language, p. 162.

ذلك لما أقاموا كل شيء على « اللوغوس » وشغلوا العقول والنفوس بهذه الفكرة إلى اليوم^(١) .

— ٢ —

علماء العرب

وورث علماء العرب عن اليونان هذا النوع من التفكير ، فسطروا إلى فريقين أيضاً : أولئك الذين كانوا ينتصرون للفكرة الطبيعية الذاتية ، وأشهر من عرف عنهم هذا الرأي من مفكرى العرب « عباد بن سليمان الصيمرى » أحد المعتزلة ، فيروى أنه كان يقول « إن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة لا واضع على أن يضع ، وإلا كان تخصيص الاسم المعين بالمسمى المعين ترجيحاً من غير مرجح » . وكان بعض من يرى رأيه يقول « إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها ، فستل ما مسمى « إذغاغ » ، وهو بالفارسية الحجر ، فقال أجد فيه يساً شديداً وأراه الحجر^(٢) » .

ومع أن معظم اللغويين من العرب لا يأخذون بهذا الرأي ، نرى كثيراً منهم يربطون في مؤلفاتهم بين الألفاظ ومدلولاتها ربطاً وثيقاً يكاد يشبه الصلة الطبيعية أو الذاتية . ولعل السر في هذا الاتجاه هو اعتزازهم بتلك الألفاظ العربية وإعجابهم بها ، وحرصهم على الكشف عن أسرارها وخبائرها .

فابن جنى في كتابه الخصائص يعقد فصلاً أربعة في نحو ستين صفحة من كتابه ، ويحاول في تلك الفصول أن يكشف لنا عن شيء من تلك الصلة الخفية بين الألفاظ ودلالاتها : —

(١) ترجمة الاستاذ عباس العقاد في بحثه الذى ألفاه بمؤتمر مجمع اللغة العربية

سنة ١٩٥٢ .

(٢) الزهر للسيوطى صفحة ٤٧ .

١ — ففي فصل عنوانه « في تلاق المعاني على اختلاف الأصول والمباني »^(١) يربط ابن جنى بين كلمتي المسك والصور^(٢) ، فيقول إن كلا منها يجذب حاسة من يشمه، أى أن المسك في رأيه إنما سمي كذلك لأنه يمسك بحاسة الشم ويجتذبها. ويتخذ ابن جنى دليلاً على قوله من كلمة المسك بالفتح ومعناها الجلد ، لأن الجلد يمسك ما تحته من جسم !!

٢ — وفي الفصل الثاني^(٣) يتحدث ابن جنى عما سماه بالاشتقاق الأكبر الذي فسرناه لنا بأن الكلمة مهما قلبتها تشتمل على معنى عام مشترك ، ويضرب لنا مثلاً بمادة « جبر » فيقول [جبرت العظم والفقير إذا قويتها ، والجبروت القوة ، والجبر الأخذ بالقهر والشدة ، ورجل مجرب إذا مارس الأمور فاشتدت شكيمته ، ومنه الجراب لأنه يحفظ ما فيه والشيء إذا حفظ قوى واشتد .. الخ .

٣ — وفي فصل عنوانه « تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني » ، يعيد ابن جنى الحديث عن الاشتقاق الأكبر ، ثم يزعم أن مجرد الاشتراك في بعض الحروف يكفي أحياناً للاشتراك في الدلالة ، ويقارن بين الكلمتين « دمت » و « دَمَثَر » فالأولى من دمت المكان كفرح سهل ولان ومنه دمانة الخلق أى سهولته . والثانية معناها السهل من الأرض والجلل الكبير اللحم !!
ومع اعتراف ابن جنى أن كلمة « دَمَثَر » رباعية الأصول ، يرى أن مجرد الاشتراك في الحروف الثلاثة الأولى أدى إلى الاشتراك في الدلالة .

بل ينال فيعقد المقارنة بين رباعى وخماسى فيقول إن كلمة « دردب » تشترك مع كلمة « درديس » في المعنى . والدرديس كمانفص المعاجم هو الداهية ، والشيخ والعجوز الفانية ، ولسنا ندرى أى هذه المعاني يشترك مع ما تذكرة .

(١) الخصائص صفحة ٥٠٧ .

(٢) الفيروزى : الصور الرائحة الطيبة والقليل من المسك .

(٣) صفحة ٥٢٥ وأنظر أمرار اللغة صفحة ٧٤ .

المعاجم عن الكلمة الأخرى إذ تقول [وامرأة درذبٌ تذهب وتجيء بالليل ،
وفي المثل درذب لما عضته الثفاف أى خضع وذل] ؟ !

ويرى ابن جنى أن هذه الظاهرة لا تقتصر على الحالات التى أتحدث فيها
الأصوات ، بل قد تظهر أيضاً حين تتقارب الأصوات فى مخارجها أو صفاتها
فيقول ما نصه [وقالوا الغدر كما قالوا الختل ، والمعنيان متقاربان واللفظان
متراسلان . . . فالعين أخت الخاء ، والذال أخت التاء ، والراء أخت اللام] !!
[وقالوا أقل ، كما قالوا « غير » لأن أقل غاب ، والغابر غائب أيضاً . . . فلهمة
أخت العين والفاء أخت الباء واللام أخت الراء] !!

٤ — أما الفصل الرابع فعنوانه [فى إمساس الألفاظ أشباه المعانى] أى وضع
الألفاظ على صورة مناسبة لمعناها ، وهنا يفترض لنا أن صيغة « الفعلان » تفيد
الاضطراب كالفلبيان والفوران ، وأن صيغة « الفعللة » تفيد التكرير مثل صرصر
الجندب أى كرّر فى تصويته ، وأن صيغة « الفَعَلَى » تفيد السرعة مثل « الجزى » .

كما يبحث هنا أيضاً فى مناسبة الحروف فى اللفظ لصوت الحدث ، مثل
الفعل « قضم » حين يقارن بالفعل « خضم » نرى أن الأول يستعمل فى أكل
اليابس ، فى حين أن الثانى يستعمل فى أكل الرطب ، ويرى ابن جنى صلة وثيقة
بين القاف الشديدة والصوت الناشئ عن أكل اليابس ، كما يرى مناسبة واضحة
بين الخاء الرخوة والصوت الناشئ عن أكل الرطب .

وقد أغرم بعض اللغويين القدماء بتلمس هذا الربط بين اللفظ ومدلوله ،
فترام يقولون مثلاً إنما سمى الإنسان إنساناً لأنه مشتق من النسيان ، وكثيراً
ما ينسى الإنسان ! وبلغ بابن دريد وعنايته بهذه الناحية الاشتقاقية أن وضع
كتاباً سماه الاشتقاق ، وحاول فيه تحليل الأعلام العربية كأسماء القبائل والأمكنة
فى جزيرة العرب ، فيقول مثلاً إن « قضاة » سميت كذلك لأنها رحلت من

جنوب الجزيرة إلى شالها فهي مشتقة من انقضع الرجل عن أهله أى بعد !!

ووضع ابن فارس معجماً سماه مقاييس اللغة طبع حديثاً في ستة أجزاء ، وجه فيه كل عفايته لاستنباط الصلات بين الألفاظ ودلالاتها ، على نحو ما عالجها به ابن جني في فصوله الأربعة السابقة ، غير أن ابن فارس قد باغ الذروة في معجمة ، فعالي وأسرف في استنباطه ، وتلّس من الصلات ما لا يخالو من التعسف والتكلف . فهو يسوق في معجمة الكلمات التي تشترك في أصول ثلاثة ويشرح معانيها مع ذكر تغليات تلك الأصول . فيقول مثلاً إن « المم والراء والضاد ، مادة يمكن أن تنشأ منها صور متعددة [مرض ، رمض ، ضرم ، ضم ، رضم ، ومضر] ، ثم يحاول تلّس الصلة المشتركة بين معاني كل هذه الصور ، مستنبطاً معنى عاماً لهذه المادة . وفي بعض الأحيان يسوق كلمات كثيرة لا تشترك إلا في حرفين ، ويحاول أيضاً أن يبين الصلة بين معانيها على أساس الاشتراك في هذين الحرفين .

ويبدو أن هؤلاء الاشتقاقيين قد اقتبسوا فكرة تغليات الأصول من معجم العين وأمثاله ، فقد سلك صاحب العين وصاحب الجهرة وغيرها مسالكاً عجيباً في ترتيب الكلمات ، فكان كل منهم حين يعرض لشرح كلمة من الكلمات يذكر معها تغلياتها ، ويذكر معنى كل صورة من صورها ، دون التعرض لربط بين دلالات تلك الصور . فهي طريقة إحصائية أو قسمة عقلية لجأ إليها أصحاب هذه المعاجم بغية حصر كل المستعمل من كلمات اللغة وخشية أن يندب بعضها عن أذهانهم . فلما جاء أصحاب المدرسة الاشتقاقية كابن جني وابن فارس ربطوا أيضاً بين دلالات تلك الصور ، واستنبطوا معاني عامة مشتركة بينها فكلفهم هذا الصنيع من العنت والمشقة ندرأ كبيراً .

رأى المحدثين

يلخص « جبرسن^(١) » آراء المحدثين في الصلة بين الألفاظ والدلالات فيعرض أولاً لقال « همبلت » الذي يزعم فيه أن اللغات بوجه عام تؤثر التعبير عن الأشياء بوساطة ألفاظ أثرها في الآذان يشبه أثر تلك الأشياء في الأذهان .

أى أن « همبلت » كان من أنصار المناسبة الطبيعية بين الألفاظ والدلالات . وقد عارضه في هذا الرأي « مدفيج » ، وساق له كثيراً من الكلمات التى لاتتضح فيها هذه الصلة ، غير أن « مدفيج » فى رأى جبرسن كان متجنياً على « همبلت » ، لأنه لم يدع أن مثل هذه الظاهرة تطرد فى كل كلمات اللغة ، ولأنه بين فى ثنايا هذا الرأى أن الكلمات بدأت واضحة الصلة بين أصواتها ودلالاتها ، ثم تطورت تلك الأصوات أو تلك الدلالات ، وأصبحت الصلة غامضة علينا .

ويبدو أن جبرسن ، كان ممن ينتصرون لأصحاب المناسبة بين الألفاظ ودلالاتها ، غير أنه حذرنا من المغالاة فى هذا ، إذ يرى أن هذه الظاهرة لا تكاد تطرد فى لغة من اللغات ، وأن بعض الكلمات تفقد هذه الصلة على مر الأيام ، فى حين أن كلمات أخرى تكتسبها وتصبح فيها واضحة بعد أن كانت لا تلاحظ فيها .

ويسوق لنا جبرسن أمثلة لتلك الفواحي التى نلاحظ فيها وثوق الصلة بين الألفاظ والدلالات منها :

(١) وأوضح تلك الفواحي ما يسمى Onomatopoeia وهى الألفاظ التى

(1) Language its nature, development & origin: Chapter. XX.

تعد بمثابة الصدى لأصوات الطبيعة . وهذه ظاهرة واضحة في كل اللغات ، وهي تشبه ما عندنا في العربية من أمثال الخفيف ، والحرير ، والزفير والصهيل والهزيم واهواء والزئير إلى غير ذلك من كلمات استمدت ألفاظها من الأصوات الكونية وأصوات الحيوانات .

(ب) يؤكد لنا « جيسبرسن » أن الألفاظ التي تعبر عن الصوت الطبيعي قد تنتقل ، وتصبح معبرة عن مصدر هذا الصوت ، وذلك كأن يصبح الزئير اسماً من أسماء الأسد . ففي أوربا طائر يظهر في الربيع ويصيح « كوكو » ، وكان من الممكن أن تنفع هذه اللفظة بالتعبير عن صوت هذا الطائر ، ولكنها تستعمل الآن للطائر نفسه . كذلك قد تسمى حركات الإنسان بما ينبعث عنها من أصوات ، فصوت المشي قد يطلق على المشي نفسه .

فالصنع مثلاً كلمة بدأت فيما يبدو بمثابة صدى لوقع اليد على الوجه فهي حكاية صوت لتلك الحركة الإنسانية ، ثم أصبحت تعبر عن نفس الحركة .

ويبدو أن هذا النوع من الألفاظ يكثر في اللغات البدائية ، أو بين الأمم المتخلفة ، فقد لاحظ بعض الباحثين في لغات وسط إفريقيا أن الفعل الواحد قد يوصف بكثير من الألفاظ المعبرة عن حالاته المتعددة . فمثلاً في لغة « اليوروبا » نرى أن الفعل « يمشى » هو Zo ، فإذا شاء أحد أبناء هذه اللغة التعبير عن المشي منتصب القامة استعمل بعد الفعل Zo لفظاً يعبر عن هذه الهيئة أو يوحى بها ، وإذا أراد التعبير عن المشي بنشاط وحماس استعمل لفظاً آخر . وقد جمع أحد اللغويين نحو ثلاثة وثلاثين لفظاً مختلفاً تتخذ لوصف الحالات المتعددة لعملية المشي أو الفعل Zo وحده . ومن تلك الحالات (١) :

Zo Ka Ka

١ - يمشى منتصب القامة

Zo dze dze

٢ - يمشى بنشاط وحماس

- ٣ - يمشى بسرعة Zo tya tya
 ٤ - يمشى متثاقلاً لضخامة جسمه Zo boho boho
 ٥ - مشية الرجل المزن الطويل القامة Zo tyo tyo
 ٦ - مشية المرأة في هدوء ونبل Zo wudo wudo

(ح) كذلك قد ترتبط الألفاظ بالدلالات في بعض الحالات النفسية كالـكلمات التي تعبر عن الغضب أو الغفور والسكره . كما قد ترتبط بحجم الأشياء أو أبعادها ، فقد لوحظ أن « الكسرة » وما يتفرع عنها من « ياء المد » ترمز في كثير من اللغات إلى صغر الحجم أو قرب المسافة . ففي العربية مثلاً نجد أن « الياء » هي علامة التصغير ، وأن الكسرة علامة التأنيث ^(١) .

(د) كذلك يشير « جسرسن » إلى ما عرف عند علماء العربية من أن زيادة المبني تدل على زيادة المعنى ، فحين نقارن بين « صر الجندب » ، و « صرصر الجندب » نرى أن صيغة « صرصر » تفيد تكرير الصوت ، وحين نقارن بين « كسر » و « كسرّ » نرى أن التضعيف في الصيغة الثانية قد زاد في دلالتها .

ويختتم « جسرسن » هذا الفصل الذي يدعوه « رمزية الألفاظ » بقوله :
 إن كلمات اللغات تزداد مع الأيام إيجاء للدلالات ، وتكتسب الألفاظ بمرور الزمن قدراً أكبر من تلك الرمزية . ويتنبأ من أجل هذا ب تلك القبوءة المتفائلة التي كان يحلم بها فلاسفة اليونان من أن يأتي اليوم الذي تصبح فيه الصلة بين الألفاظ ودلالاتها أكثر وضوحاً وأوثق ربطاً مما عرف أجدادنا القدماء .

ويعد دي سوسير de Saussure من أشهر المعارضين لأصحاب الصلة بين الألفاظ والدلالات ، إذ يراها اعتباطية لا تخضع لمنطق أو نظام مطرد . ومع

(١) أنظر الالهجات العربية صفحة ٨١ .

اعترافه بتلك الصلة في الألفاظ التي تعد بمثابة الصدى لأصوات الطبيعة والتي تسمى onomatopoeia يقرر أنها من القلة في اللغات ، ومن الاختلاف والتباين باختلاف اللغات الإنسانية ، بحيث لا يصح أن نتخذ منها أساساً لظاهرة لغوية مطردة أو شبيهة بالمطردة . هي إذن في رأيه مجرد ألفاظ قليلة تصادف أن أشبهت أصواتها دلالاتها .

والأمر الذي لم يبد واضحاً في علاج كل هؤلاء الباحثين هو وجوب التفرقة بين الصلة الطبيعية الذاتية والصلة المكتسبة . ففي كثير من ألفاظ كل لغة نلاحظ تلك الصلة بينها وبين دلالاتها ، ولكن هذه الصلة لم تنشأ مع تلك الألفاظ أو تولد بمولدها ، وإنما اكتسبتها اكتساباً بمرور الأيام وكثرة التداول والاستعمال .

وهي في بعض الألفاظ أوضح منها في البعض الآخر ، ومرجع هذا إلى الظروف الخاصة التي تحيط بكل كلمة في تاريخها ، وإلى الحالات النفسية المتباينة التي تمرض المتكلمين والسامعين في أثناء استعمال الكلمات . فإذا تصادف أن عنى أحد المتكلمين بأصوات لفظ من الألفاظ ، واسترعى انتباهه أكثر من غيره ، لا يلبث أن يعقد الصلة الوثيقة بينه وبين دلالاته ، ويتصور نوعاً من المناسبة بين تلك الأصوات وما تدل عليه ، ويحاول نقل شعوره إلى غيره ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . فإذا تصادف أيضاً أن أحس فريق من الناس بنفس الإحساس ، بدأت عملية ذهنية أخرى هي الربط بين هذه الأصوات وأشباهاها في الكلمات الأخرى ، لأن ذهن الإنسان يميل إلى التجميع والتعميم . وتلتقى تلك العملية بعملية نفسية أخرى هي التي تسمى بتداعي المعاني ، أي أن المعنى حين يخطر في ذهن يدعو ما يشبهه أو يقاربه . وهنا قد يخطر في ذهن فكرة الربط بين مجموعة من الألفاظ المتشابهة المتقاربة ، بمجموعة من المعاني المتشابهة

أو التقاربة ، ويترتب على هذا أن يشيع بين أبناء اللغة نوع من الوهم يشعرون معه بوثوق الصلة بين الألفاظ والدلالات .

فالألفاظ لا تدور في حقيقتها أن تكون بمثابة الرموز على الدلالات ، كل لفظ يصلح أن يتخذ للتعبير عن أى معنى من المعانى ، فما يسمى « بالشجرة » يمكن أن يسمى بأى لفظ متى اصطلاح الناس عليه ، وتواضعوا على استعماله فليس فى لفظ « الشجرة » ما يوحى بفروعها وجذورها وأوراقها وخضرتها .

وقد كان من الممكن أن يعبر عن هذه المعانى برموز أخرى غير صوتية كالإشارة ونحوها . ولكن الإنسان بدأ منذ أمد بعيد جداً يتخذ من أصواته رموزاً للتعبير عما يخطر فى ذهنه ، واستغل فى هذا ما نسميه بجهاز النطق الذى وظيفته الأصلية الطبيعية المضغ والباع والتنفس .

دعنا نتذكر علامات المرور من أحمر وأصفر وأخضر التى يرمز كل لون منها إلى دلالة معينة اصطلاح المجتمع عليها وتقبلها قبولاً حسناً . فحين يرى السائق اللون الأحمر يخطر فى ذهنه دلالة معينة هى وجوب الوقوف ، فإذا رأى اللون الأخضر عرف أنه يرمز له بالسباح بالمرور . وليس بين هذه الألوان وما تدل عليه أى مناسبة طبيعية ، وكل ما بينها لا يعدو أن يكون اصطلاحاً ومواضعة هى من صنع الناس .

وكذلك الألفاظ اصطلاحها الإنسان للتعبير عما يخطر فى ذهنه ، غير أنها اكتسبت مع الزمن صفة ليست فى غيرها من الرموز الاصطلاحية ، ومن المجازفة أن ينظر إلى تلك الألفاظ الآن على أنها مجرد رموز ، فقد ارتبطت بالفكر الإنسانى ارتباطاً وثيقاً ، وأصبح من الصعب أن نتصور أى نوع من التفكير بغير هذه الألفاظ . فالإنسان يفكر بوساطة هذه الألفاظ ، والدلالة التى ليس لها لفظ لا وجود لها إلا فى مخيلة بعض الفلاسفة . حتى ما يسمى بالتفكير

الصامت أو التأمل لا يؤدي إلا بعملية نطقية يقوم بها التأمل ، وإن لم يسممها أحد ممن حوله . فعضلات نطقه تقوم بنفس الحركات اللسانية التي يقوم بها في الكلام المسموع . وقد برهنت التجارب الكثيرة على هذه الحقيقة العلمية ، فالمرء قد يشعر بإرهاق في عضلات نطقه بعد سماعه لخطيب يخطب أمامه لمدة طويلة ، وذلك لأن عضلات نطق السامع تتحرك حركات خافتة تشبه ما تقوم به عضلات نطق الخطيب تمام الشبه .

بل لقد لوحظ أن لاعب البيانو حين يستمع لعزف غيره مدة طويلة ، قد يشعر بعدها بتعب أنامله وأصابعه ، فكأنما قد مارس هو العزف بنفسه .

وليس يعترض على هذا بأن يقال إن الذي يولد أصم يدرك الأشياء والحوادث دون أن يكون له أى نصيب من تلك الألفاظ اللغوية ؛ وذلك لأن إدراك الأصم مولدا أدنى كثيراً من إدراك السامع ، فإدراكه للأشياء إدراك ناقص ، ومع هذا لا يتم له هذا الإدراك الناقص إلا عن طريق رموز أخرى تحل محل الرموز الصوتية كالإشارة ونحوها . بل إن مشاهد السينما الصامتة لم يكن يستطيع إدراك ما يراه إلا بعد ترجمته في ذهنه إلى ألفاظ يعرف دلالتها ، ولو قد عرض عليه من الأشياء أو الحوادث ما لا يستطيع ترجمته إلى الألفاظ ، لمزت بذهنه مروراً عابراً غامضاً لا يترك أثراً ، ولا يبعث على تفكير أو رغبة في مشاهدتها .

فأصناف الألفاظ للتعبير عما يحول في الأذهان قد مرت به مئات أو آلاف من القرون جعلت من تلك الألفاظ شيئاً أرقى من مجرد رموز . فليست كإشارات المرور أو العلامات التلغرافية أو الشفرة ، بل هي بالنسبة للإنسان مصابيح تهديه في ظلمات الحوادث ، وتعينه في معترك الحياة ، وتجعل منه مخلوقاً اجتماعياً نافعاً . وهو لهذا يعتز بها ، ويقبها ، وينقب عما تتضمن من أسرار ، وينسب لها فوق ما لها في الحقيقة والواقع . فهي التي ميزته عن سائر المخلوقات ، ويسرت له التفكير ولا غرابة إذن أن يوصف الإنسان بأنه المخلوق الناطق .

وقد اكتسبت تلك الألفاظ شيئاً من القدسية بعد أن حملت إلى الناس أرقى ما يفتحه العقل البشرى من آداب وعلوم ، وبعد أن اتخذت وسيلة لإيصال الوحي الإلهى إلى عقول البشر ، فكتبت بها أسفارهم المقدسة ونزلت بها الكتب السماوية .

أما كيف ربط الإنسان الأول بين الألفاظ ودلالاتها ، ولماذا اختص العربى « الشجرة » بهذا اللفظ « والبحر » بلفظ آخر ، واختصتهما الشعوب الأخرى بألفاظ أخرى ، ومتى بدأ أو تمّ للإنسان هذا الربط ، فكل هذه أسئلة حيرت عقول المفكرين منذ قرون سحيقة ولا تزال تحيرها حتى الآن .

الفصل الرابع

استدحاء الدلالة من الألفاظ

كثيراً ما نتساءل عن ذلك القدر من الدلالة الذى يمكن أن يستوحيه المرء من أصوات ألفاظ لا يعرف معناها ؟ ! وللإجابة عن هذا السؤال لجأنا أولاً إلى بعض الألفاظ المرتجلة رجاء أن نستشف من أصواتها دلالة مما لدى سماعها .

فهب مثلاً أنك ارتجلت كلمة مثل « تزلج » ، وطلبت إلى صديق لك أن يخمن لها دلالة ؟ فستراه يضع لها دلالة مما يستخرجها من تلك الذخيرة اللفظية التى يتخزنها فى ذهنه والتى اكتسبها فى مراحل تعلمه للغة قومه . فإذا عرضت نفس الكلمة على صديق آخر يشبه الأول فى وسطه الاجتماعى وفى ثقافته فقد يستخرج لك نفس الدلالة ، أو شيئاً شبيهاً بها أو قريباً منها . وهنا ندهش لمثل هذه الظاهرة ، ويرأى اللغوى المحافظ مظهرأ من مظاهر السليقة اللغوية التى تقصل بالوراثة ، والتى فطر عليها أفراد كل بيئة من البيئات اللغوية .

غير أن اللغوى الحديث لا يرى فيما يسمى بالسليقة اللغوية إلا المران الكافى ولا يفسرها الا على أنها ملكة مكتسبة وليس للوراثة أو الجنس أثر فيها .

لهذا يلتمس تفسيراً آخر لتلك الظاهرة ، وينسبها الى ما نسميه هنا بوحى الأصوات . فالمرء يتعلم لغة أبويه ، ويربط مفرد طفولته بين ألفاظ قومه ودلالاتها ربطاً وثيقاً ، وتخزن فى ذهنه تلك الألفاظ مع دلالاتها فى شئ من التنظيم والترتيب يساعد على أن يدعو بعضها بعضاً ، ويذكر بعضها ببعض .

ويقضى المرء فى اكتساب تلك الملكة اللغوية زمناً طويلاً من حياته

أو شبابه حتى يسيطر على قدر كبير من الألفاظ ودلالاتها ، وتآلف في ذهنه تلك الذخيرة اللفظية الدلالية ، وعلى أساس ما اكتسب من ألفاظ ودلالاتها يستطيع استنباط مدلول اللفظ الجديد على سمعه . ومع أن الناس يختلفون في تجاربهم مع الألفاظ والدلالات ، تتكون لديهم تلك القدرة على استيعاب الدلالة المجهولة ، أو طرف منها من لفظ معلوم ، وذلك لأنهم لا يزالون يشتركون في اختزان الألفاظ معينة هي الألفاظ البيئية . وعلى قدر اشتراك الناس في الوسط الاجتماعي والثقافة العامة يكون اشتراكهم أو تقاربهم في استيعاب تلك الدلالات المجهولة . فإذا عرضت تلك الكلمة المرجحة على جماعة من وسط واحد وثقافة متقاربة رأينا تشابهاً عجبياً في استنباطهم لدلالاتها . فعرض هذه الكلمة على مجموعة من طلبة الجامعة ينتج غير ما ينتجه عرضها على مجموعة من القرويين مثلاً .

وعلمنا أن نتذكر مع ما تقدم أن لكل لغة نظاماً خاصاً في تأليف ألفاظها ، فما يشيع في إحداها قد يندر في الأخرى . فالألفاظ اللغة العربية تتألف من تلك الحروف الهجائية المألوفة لنا ؛ ويتكون لتلك الألفاظ العربية نسج خاص ، إذا حاد عنه اللفظ قيل إنه غير عربي . وكان القدماء يشعرون بشيء من هذا حين أكد لنا بعضهم أنه لا تجتمع الجيم مع القاف في كلمة عربية مثل « المنجنيق » ولا تجتمع الصاد والجيم في كلمات العرب ، فكلمة مثل « صولجان » غريبة عن النسج العربي ، ولا تكون النون قبل راء إلا في الكلمات الأعجمية مثل « نرجس » ، ولا تكون الزاي بعد دال كما في كلمة « مهندز » الأجنبية التي صارت في لهجاتنا الآن « مهندس » ! ولا تكون الشين بعد لام ، ولا تجتمع الباء والشين والذال في كلمة عربية ، ولا تعرف لغتنا العربية الزاي ، والذال مع الشين إلا في تلك الكلمة المعربة التي نطق بها على صورة (ساذج) ،

ولا تجتمع الصاد والطاء ، ونذر اجتماع الراء مع اللام ولا بد من وجود حرف من حروف الذلاقة (م ن ر ل ب ف) في الرباعي والخماسي^(١).

نقرأ مثل هذه الملاحظات السريعة في كتب القدماء ، ولكن الأمر أعمق من مثل تلك الملاحظات القليلة ، ويحتاج إلى استقراء أوفى وأنهم حتى نستطيع الوقوف على نسج الكلمة العربية . فما يمكن أن يتألف من حروفنا الهجائية يجاوز ١٢ مليوناً من الكلمات ، قرر هذا الخليل من قبل ، وتقر صنفه الآن العمليات الحسابية الحديثة . ولكن المستعمل من الألفاظ لا يكاد يجاوز ثمانين ألفاً ، فيها بشيع حرف أكثر من حرف ، بل قد تختلف فيها نسبة شيوع الحروف على حسب موضعها من الكلمة . فلو أن اللفة كانت تسمح باستعمال كل تلك الملايين من الألفاظ لأشبهت الحروف بعضها بعضاً في شيوعها ، ولا يتكون للغة حينئذ نسج خاص تميز به . ولكن اللفة قد تحيرت مجموعات صوتية معينة هي التي اختصتها بالدلالة ، وأهملت السكتة الغالبة .

ونكتسب نحن ألفاظ اللفة كما وردت إلينا ، ونختزن قدرأ كبيراً منها يتألف على نظام معين ، ويمكن أن نقرر بعد دراسة واستقراء أن نسبة شيوع « السين » مثلاً في كلام فلان هي كذا ، ونسبة الميم في كلامه هي كيت ، وتوالى الفاء والذال في ألفاظه أقل من توالى الفاء والجيم مثلاً ، واجتماع اللام والعين والباء أكثر من اجتماع اللام والعين والقاف ، وغير ذلك من نسب كثيرة قد يهديننا إليها الاستقراء . فالمرء إذن يخضع لما يكتسبه من ألفاظ ، ويتأثر بنظام تلك الألفاظ ونسجها وتركيبها . ومع هذا فأفراد البيئة قد يشتركون في شيء من هذا ، ويتأثرون جميعاً بمجموعة كبيرة جداً من الألفاظ المشتركة بينهم .

غير أن هذا الاشتراك يكثر أو يعظم في الأوساط المتشابهة ، ولدى أصحاب الثقافات المتقاربة .

وعلى هذا فمجرد النطق بتلك الكلمة المرتجلة يدعو إلى الذهن لفظاً آخر معروفاً يشترك معها في بعض حروفها أو صفات تلك الحروف ، ويفد ذلك اللفظ المعروف ومعه دلالاته فيوحى بشيء من دلالة ذلك اللفظ المرتجل .

ويقالى بعض اللغويين فيتصورون من أجل هذه الظاهرة أن هناك ربطاً طبيعياً بين الألفاظ ودلالاتها ، ولا يخطر ببالهم أن القدرة على استيعاب الدلالات مرجعها إلى ما يكتسبه المرء من ألفاظ معينة ، ومن ربطه بين تلك الألفاظ ودلالاتها ربطاً وثيقاً . فالعملية كلها مكتسبة لا سحر فيها ولا غموض ، ويمكن أن يستدل على صحتها بالتجربة كما سنرى .

ويرى فندريس أنه من الحق الحكم بوجود علاقة ضرورية بين أصوات الكلمة ودلالاتها . وقد سخر من أولئك الذين نادوا بهذا الرأي أمثال « سان توماس الأكويني » غير أنه اعترف بأن بعض الألفاظ أقدر على التعبير من البعض الآخر ، ولكن المرء في رأيه حين يقيم انثقلاً بين اللفظ ومدلوله إنما يسير على نهج عادة قديمة جداً حين كانت الألفاظ تعد جزءاً لا يتجزأ عن الأشياء ، وحين كان الاسم له منزلة الجسد والروح كما هو الحال الآن عند بعض الأمم البدائية الذين يعتقدون أن الإنسان يتكون من الروح والجسد والاسم .

ويختتم فندريس كلامه بما نصه [كل كلمة أيا كانت توظف دائماً في الذهن صورة ما ، بهيجة أو حزينة ، رضية أو كريمة ، كبيرة أو صغيرة ، معجبة أو مضحكة ، تفعل ذلك مستقلة عن المعنى الذي تعبر عنه ، وقبل أن يعرف هذا المعنى في غالب الأحيان . اذكر اسم إنسان ما أمام شخص لم يره قط ، فإنه يكون عنه فكرة في الحال ، فكرة زائفة على وجه العموم ، فإذا قدمت له هذا

المجهول أجابك على الفور « أهو هذا ؟ ما كنت أظنه هكذا ». ومثل هذا الشيء نفسه يحصل بالنسبة للكلمات اللفظية . فإدراكنا للأشياء خاضع لانطباعات فجائية منبعثة من الاسم الذي يدل عليها ^(١) .

ويبدو من هذا النص أن فندريس يرى أن تلك الصورة التي تنطبع في الأذهان لدى سماع الكلمة المجهولة لا تسكاد تمت إلى الدلالة الحقيقية بأية صلة ، وهو بهذا يتجاهل أثر التجارب السابقة في ذهن كل منا ، وما تخضع له كل لغة في نظام مجموعاتها الصوتية ، وارتباط كل مجموعة منها بدلالة معينة . فمجرد النطق باللفظ يستدعي إلى الذهن أمثاله من الألفاظ ، ويستدعي معها دلالاتها ، ويستوحي المرء من كل هذا دلالة لذلك اللفظ المجهول على أساس ما اخترنه في حافظته . وقد يوفق في هذا الاستيعاء كل التوفيق أو بعضه ، ولكنه على كل حال يجد نفسه قريباً من الدلالة الحقيقية في نسبة غير قليلة من الحالات ، وهو ما برهنت عليه تجاربنا مع بعض طلاب الكليات والمدارس .

سجل أبو حيان التوحيدي ^(٢) في رسالة له كتبها في الانتقاص من الصاحب ابن عباد لموقف له مع أحد الشعراء حين أنكر على هذا الشاعر أن يتجراً على قول الشعر وهو يجهل كثيراً من الغريب . ثم سرد الصاحب على مسمع الشاعر طائفة كبيرة من الكلمات النادرة المهجورة التي كان يفخر بمعرفتها والإحاطة بدلالاتها منها : —

الهبلم ، الجرفاس ، الخيمعور ، النعل ، القهبلس ، القذعمة ، الطربال ، الشنعوف ، العنلط ، القفندر .

وقد عرضنا هذه الألفاظ على مجموعة من طلبة اللسانيات بكلية دار العلوم

(1) Language p.-237

(٢) المربية تاليف المستشرق يوهان فك ترجمة عبد الحليم النجار صفحة ١٦٢ .

عددهم أربعة وعشرون ، ثم عرضناها مرة أخرى على طلبة التوجيهية في إحدى المدارس الثانوية وعددهم ثلاثة وعشرون ، وطلبنا من كل طالب أن يسجل ما توحيه كل لفظة من دلالة في ذهنه .

ولكن رغبة في ألا نترك الطالب في ظلام دامس ، رأينا أن نلج له بما يحصر تخمينه في نطاق محدود ، فقلنا له إن الهبلع والجرفاس والخيتعور والنعثل صفات للرجل ، وإن القهبلس والقذعلة من صفات المرأة ، وإن الطربال صفة للبناء ، وإن الشنعوف جزء من الجبل وإن العثلط صفة لابن ، وإن القفندر لواحد من الجمال أو القبح فأيهما تختار ؟

وبلاحظ في التجربة أن بعض طلبة دار العلوم لم يجيبوا بشيء عن بعض الكلمات . وذلك لأننا طلبنا منهم عدم الإجابة حين يكون أحدهم على علم بمدلول الكلمة من قبل . وها هي ذى إجابات طلبة كلية دار العلوم :

١ — الهبلع :

فسرها تسعة من الطلبة على أنها « الأبله العبيط » ، وفسرها أربعة منهم على أنها « الأكلول النهم » وهو المعنى المجمعى الصحيح ، وفسرها أربعة على أنها « الضخم المهول » ، وفسرها ثلاثة من الطلبة على أنها « القصير » أما باقي الطلبة فتباينت إجاباتهم .

وهكذا نرى أن مجموعة كبيرة من هؤلاء الطلبة تشترك في الدلالة ، ونسبتهم

٣٧٪ أى ٩ من ٢٤ .

٢ — الجرفاس :

أجاب نحو ١٤ طالبا مفسراً الكلمة على أنها « القوى الضخم والشجاع

الخشن » وتلك هي دلالات متقاربة بنسبة ٥٨٪ .

أما باقى الإجابات فمتباينة . والمعنى المعجمى لهذه الكلمة هو « الضخم » .

٣ - الخيعةور :

أجاب ثمانية من الطلبة مفسراً الكلمة على أنها « الذليل الضعيف الجبان الكسلان » ، ولم يجب بشىء ستة من الطلبة ، أما الباقي فإجاباتهم متباينة ، أى أن نسبة الاشتراك فى الإجابة ٤٤ ٪ . والمعنى المعجمى لهذه الكلمة هو « الخداع المخاتل » ، فليس منهم من استطاع تخمين المعنى الصحيح .

٤ - النعثل :

لم يجب عن هذه الكلمة غير ١٣ طالباً ، منهم ثمانية فسروها على أنها « الهادى البائس الوديع » . أى أن نسبة الاشتراك فى الإجابة ٦١ ٪ . والمعنى المعجمى لهذه الكلمة هو « الشيخ الأحمق » .

٥ - القهبلس :

لم يجب غير عشرين من الطلبة ، منهم عشرة فسروها على أنها « المرأة الضخمة البدنية » ، أى أن نسبة الاشتراك فى الإجابة ٥٠ ٪ . والمعنى المعجمى هو « المرأة الضخمة » .

٦ - القذعلة :

أجاب ١٧ طالباً ، منهم ١٤ فسروها على أنها القصيرة القميئة ، وتلك هى الدلالة المعجمية الصحيحة فتكون نسبة الاشتراك هنا ٨٢ ٪ .

٧ - الطربال :

أجاب ١٧ طالباً ، منهم ٩ فسروها على أنها « البناء الضخم العالى الشامخ » ، وتلك هى الدلالة المعجمية الصحيحة فتكون نسبة الاشتراك ٥٣ ٪ . وأجاب ثلاثة فقط فوصفوا البناء بأنه « المهدم المنهار » . أما الباقي فإجاباتهم متباينة .
(م ٦ - الألفاظ)

٨ — الشنعوف :

أجاب عشرون طالبا ، منهم ١١ فسروها بأنها « قمة الجبل » أى أن نسبة الاشتراك ٥٥ ٪ ، فى حين أن ثلاثة فقط قالوا عنها إنها « أسفل الجبل » ، وأربعة من الطلبة وصفوها بأنها « طرف بارز رفيع » . والمعنى المعجمى لهذه الكلمة هو « القمة » .

٩ — المثلط :

أجاب عنها ٢١ طالبا ، منهم ١٧ وصفوه بأنه « اللبن المتجمد المتخمر » ، وتلك هى الدلالة المعجمية ، أى أن نسبة الاشتراك ٨٠ ٪ .

١٠ — القفندر :

أجاب عنها ٢٠ طالبا ، منهم ١٢ قالوا عنها إنها صفة للجميل ، ٨ من الطلبة قالوا عنها إنها صفة للقبيح . أما المعنى المعجمى للكلمة فهو « القبيح المظفر » .

وهكذا نرى أن مجموعة من الطلبة الذين ينتمون إلى وسط اجتماعى واحد ، ويشترون فى الثقافة والبيئة التعليمية ، قد استنبطوا دلالات مشتركة بينهم بنسبة ٦٠ ٪ فى المتوسط . ولم يبق سوى النسبة القليلة التى يمكن إرجاعها إلى التجارب الخاصة والأمزجة المختلفة . كذلك نرى أن الدلالات المشتركة لم تكن دائما الدلالة المعجمية الصحيحة ، فلا تكاد تجاوز الإجابة الصحيحة نسبة ٤٢ ٪ ، أى أن استنباط الدلالة الصحيحة من اللفظ أمر عسير حتى على أبناء دار العلوم الذين قطعوا شوطا بعيدا من الثقافة اللغوية .

أما إجابات طلبة التوجيهى فى المدرسة الثانوية ، فكانت نسبة الاشتراك فى المتوسط نحو ٦٠ ٪ أيضا ، ولكن الإجابة المطابقة للدلالات المعجمية لم تجاوز نسبتها ٣٠ ٪ لأنهم أقل اتصالا بالثقافة اللغوية المربية من أبناء دار العلوم .

فهم لأنهم من وسط واحد وعلى قدر واحد من الثقافة العامة اشتركوا في استيعاء الدلالات بنسبة كبيرة، ولكن إجاباتهم كانت مختلفة عن إجابات أبناء دار العلوم بشكل ملحوظ .

١ — المبلغ :

هنا رأينا ١٦ طالبا تحوم إجاباتهم حول جو واحد من الدلالة فمعظمهم وصف الكلمة بأنها « الأبله العبيط »، وبعض هؤلاء قالوا عنها إنها « الطويل »، ومن السهل علينا الربط بين الدالتين . أى أن نسبة الاشتراك ٦٩٪ (١٦ من ٢٢)

٢ — الجرفاس :

أجاب عنها ١٢ طالبا بدلالات متقاربة تتلخص في القوة وما يصحبها من شر أو شجاعة ، أى أن نسبة الاشتراك ٥٢٪ .

٣ — النعشل :

أجاب عنها ١٥ طالبا بدلالات متقاربة هي « النعسان النائم الهادى » ، أى أن نسبة الاشتراك ٦٥٪ .

٤ — القمبلس :

أجاب ١٢ طالبا بقولهم إنها « الغاية الجذابة غير الشريفة » ، أى أن الدلالة في أذهانهم حامت حول الجاذبية الجنسية ، فكانت نسبة الاشتراك ٥٢٪ .

٥ — القدعلة :

أجاب ١٦ طالبا فأصابوا في استنباط المعنى المعجمى الصحيح وقالوا إنها « القصيرة » أى أن نسبة الاشتراك ٦٩٪ .

٦ — الشفعوف :

أجاب ١٣ طالباً فقالوا عنها « القمة »، وتلك هي الدلالة المعجمية الصحيحة،
أن أن نسبة الاشتراك ٥٦٪.

٧ — الطربال :

أجاب ١٦ طالباً فوصفوا البناء بدلالات متقاربة مثل « العالى الشاهق
الضخم »، أى أن نسبة الاشتراك ٦٩٪.

٨ — المثلط :

وصفه ١١ طالباً بأنه « الجامد الريب المقطع »، أى أن نسبة الاشتراك
٤٨٪.

٩ — القفسدر :

وصف ١٤ طالباً هذه الكلمة بأنها تعبر عن الجمال . أى أن نسبة الاشتراك
٦٠٪.

ولسنا نزعم أن مثل هذه النسب تطرد في كل تجربة من هذا النوع ، فقد
تكون بعض الكلمات أكثر إيجاء من البعض الآخر ، وقد تختلف ظروف
التجربة فلا تؤدي إلى نفس النتيجة في كل مرة . ولكن الذى نؤكد هو أن
نسبة كبيرة من الاشتراك في استيعاء الدلالات تتم في الوسط الموحد الثقافة ،
والتقارب في التجارب . وتأييد هذا لدينا من تجارب أخرى متعددة أسست على
كلمات أخرى مجهولة الدلالة .

نتهى من هذه التجارب إلى أن اللغة تخضع لنظام خاص في تركيبها من
الحروف المجائية ، وأن بعض هذه الألفاظ يختزنها المرء في حافظته ، وهى
وإن خضعت للنظام العام للغة تتميز بصفات معينة ، وتترك أثراً قويا في ذهن من

بمعناها ويحفظها . فإذا دل استقراء المستعمل من ألفاظ اللغة على أن نسبة توالى الفاء والجيم مثلاً أكثر من توالى الفاء والصاد ، فقد يقصّاد أن ما يحفظه المرء من ألفاظ يعطى نسبة أخرى قد تكون عكسية ، فيها توالى الفاء والصاد أكثر من توالى الفاء والجيم . ويقال حينئذ إن توالى الفاء والصاد في ذهن شخص معين أوضح وأكثر شيوعاً منه في ذهن آخر ، ولكن الشخصين يخضعان معاً للنظام العام الذى تجرى عليه ألفاظ اللغة .

تلك هى الصفة التى تميز شخصاً من شخص ، وتجعل استيعاء الدلالة من اللفظ تختلف في بعض الأحيان بين شخصين من وسط اجتماعى واحد وثقافة واحدة .

وتختلف نسبة شيوع المجاميع الصوتية في ذهن كل منا ، فبعضها أوضح من الآخر وأقرب إلى التذكر ، فمجموعة مثل « ملع » تدعو إلى ذهن بعض الناس مجموعة مثل « دلع » ، وفي ذهن الآخرين مجموعة أخرى مثل « لمع » ، ولذا نرى أن « ملع » قد يوحى إلى الفريق الأول دلالة « الدلع والميوعة والتخفّث » ، وقد يدعو إلى ذهن الفريق الآخر دلالة « اللعان والبريق والضوء » .

هذا هو وحي الأصوات أو استيعاء الدلالات من الألفاظ ، وقد أطلقنا عليه الوحي لأنه لطيف لا يدرك إلا بعد التجارب والدراسة المستفيضة ، ولأنه عمل من أعمال العقل الباطن أو اللاشعور ، يحس به المرء دون أن يدرك كيف أحس به .

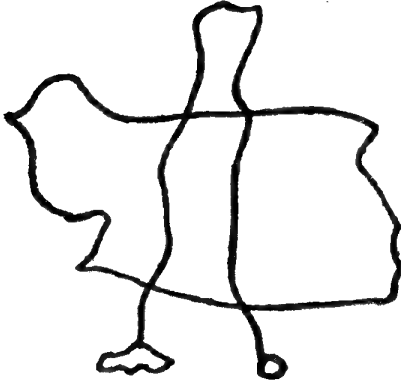
وللأدباء بصدد هذا الاستيعاء قدرة أخرى فوق ما للمرء العادى ، يستمدونها من خيالهم وتبنيهم للألفاظ . وتعدّ هذه القدرة بظلال من الدلالات لا تكاد تخطر في ذهن الآخرين . وليس من مجال هذا البحث التعرض لما يخطر في ذهن الأدباء والشعراء ، ولذا نؤثر الابتعاد عنه ، تاركين تلك الظلال الدلالية الخاصة بهم لدارسى النقد الأدبى .

وكما توحى الألفاظ بالدلالات ، فقد توحى الأشكال والمناظر بشيء من الدلالات أيضا . وذلك لأن المرء يمي في ذهنه تلك الأشكال كما يمي الألفاظ ، ويربطها ربطاً وثيقاً بالألفاظ الدالة على مناظر أو أشكال شبيهة بها . ففصر الشكل يدعو إلى الذهن الألفاظ التي تدل على صغر الحجم ، وتركب الشكل أو تمقده يوحى بالألفاظ الدالة على الجمع أو الكثرة .

وللغات في هذه الظاهرة حال تبعث على العجب والدهشة . فإذا تصادف أن ألفاظ اللغة التي تدل على صغر الحجم تشتمل في مجموعها على صوت معين ، رى أن المرء قد يستوحى لدى رؤية شكل صغير لفظاً مشابهاً لتلك الألفاظ ، ومشتقلاً أيضاً على ذلك الصوت المعين . وقد دلت الملاحظة على أن « الكسرة » وما يتفرع منها « كياء المد » تكون عنصراً أساسياً في كل الألفاظ الدالة على صغر الحجم . ولا تقتصر هذه الملاحظة على اللغة العربية ، بل لوحظت أيضاً في بعض اللغات الأخرى ، ولا غرابة إذن أن يقال إن الأشكال توحى بألفاظ معينة ، أو تجعل الرأى يؤثر لفظاً على لفظ ، ويستتبع هذا أنها تتدخل في استيعاء الدلالات .

وقد قمنا بعدة تجارب اتضح لنا منها أن الكسرة أو ياء المد توحى بصغر الحجم ، وأن حروف التفخيم توحى بضخامة الحجم ، وأن الشكل المتعدد الأطراف أو الأجزاء قد يوحى بفكرة الجمع وهكذا .

وبدأنا تلك التجارب بمرض شكلين خياليين لا يمثلان في الحقيقة شيئاً ، ولا فرق بينهما سوى أن أحدهما كبير الحجم والآخر صغيره مثل :



(شكل ٢)

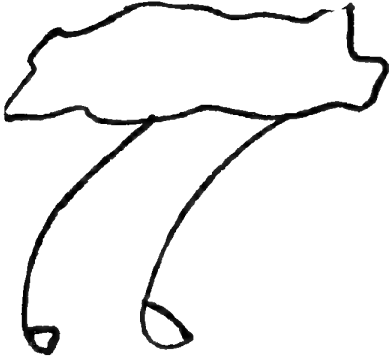


(شكل ١)

ثم طلبنا من مجموعة كبيرة من الطلبة أن يختيروا أحد اللفظين المرتجلين (زليع ، زلوع) للشكل الأول ، وأن يختيروا اللفظ الآخر للشكل الثاني ووجدنا أن نحو ٦٠٪ من الطلبة اختاروا لفظ « زليع » للشكل الصغير . ولا تختلف هذه اللفظة عن الأخرى إلا أنها تشتمل على (ياء المد) في حين أن الأخرى تشتمل على وار المد ، مما يؤكد تلك الملاحظات التي أبدأها بعض العلماء من ارتباط الكسرة وياء المد بصغر الحجم وضيق الوقت في بعض اللغات^(١).

ثم عرضنا شكلين آخرين يختلفان فقط في الحجم وطلبنا اختيار أحد اللفظين المرتجلين (سقين ، سليقة) للشكل الأول واللفظ الآخر للشكل الثاني ، فوجدنا أن الكثرة الغالبة قد اختارت لفظ (سليقة) للحجم الصغير . وهذا اللفظ يوحي بفكرة الأنيث ، وترتبط هذه الفكرة بصغر الحجم والرقّة وضعف الأنوثة ، والشكلان هما :

(١) جيسرسن صفحة ٤٠٢ .



(شكل ٤)



(شكل ٣)

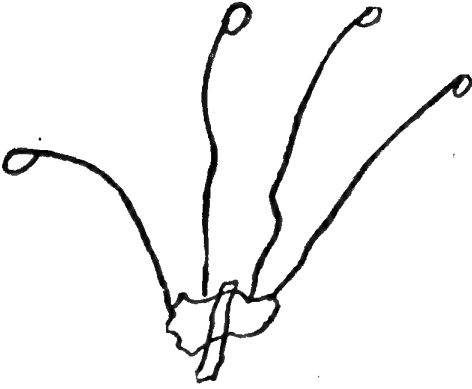
ثم عرضنا أشكالاً أخرى لا تختلف إلا في الحجم وعرضنا معها ألفاظاً مرتجلة مثل (الظاقع ، السالع) ، (السقيم ، الطقيخ) . فوجدنا أن السكرة الغالبة كانوا يختارون اللفظ المشتمل على حروف التفخيم كالقاف والطاء والظاء والحاء للشكل كبير الحجم .

ويقرر بعض الباحثين في اللغات الحامية أنها بوجه عام تميز بين المذكر والمؤنث بإضافة حرف « الكاف » في آخر المذكر ، وإضافة حرف « التاء » في آخر المؤنث ^(١) .

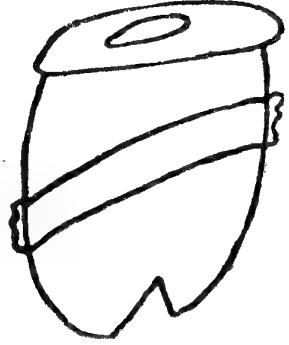
وبالمقارنة بين الحرفين نرى أن « الكاف » حرف يمكن أن يعد مفخماً إذا قيس بنظيره الأمامي وهو « التاء » . أي أن فكرة ارتباط حروف التفخيم بالرجولة والقوة وال ضخامة ، وارتباط حروف الترفيق بالأنوثة والضعف وصغر الحجم أمر غير مقصور على الألفاظ العربية .

وعرضنا أشكالاً أخرى مثل :

(1) The Language families of Africa P. 91 by Werner



(شكل ٦)



(شكل ٥)

ومعها ألفاظ مرتجلة مثل (السفآن ، الأفناس) ، (والشواجن ، الشفاف) ،
ووجدنا أن الكثرة الغالبة كانوا يستوحون من الشكل الثانى فكرة الجمع أو
الكثرة ، ويربطونه بما يوحى بتلك الفكرة من الألفاظ السابقة مثل (أفناس ،
شواجن) ، فصفة كل منهما تمثل صيغة مشهورة من صيغ جمع التكسير .

ومع اعترافنا بأن التجارب السابقة قد تمت فى نطاق ضيق نستطيع أن نقبأ
ونحن مطمئنون إلى أن إجراءها فى نطاق أوسع سيؤدى إلى نفس النتيجة أو
ما أشبهها شبيهاً كبيراً .

ونختتم هذا الفصل بأن نشير إلى أن استيحاء الدلالة غير مقصور على حروف
اللفظ وأصواته ، بل قد تتدخل الصيغة أو بنية اللفظ فى هذا الاستيحاء . فجرد
النطق بألفاظ مرتجلة مثل ، (سقيم ، مطافع ، عفول) يوحى إلى الذهن أنها
أوصاف أو أسماء ، فى حين أن صيغاً أخرى مثل : (ملع ، بلهط ، يسافع ، انشكع)
توحى إلى الذهن أنها أفعال .

الفصل الخامس

اكتساب الدلالة ونموها

- ١ -

لدى الأطفال

تلشأ الدلالة لدى الطفل ، ولكنها ليست كمشأتها الأولى لدى الإنسان الأول ، ليست خلقاً جديداً حين يدركها أطفالنا ، بل هي أمر شائع مألوف عند الكبار حولهم . وكذلك الألفاظ التي ترمز لهذه الدلالة ليس فيها من جديد ، بل هي أيضاً معروفة مألوفاة عند جميع أفراد البيئة اللغوية .

ولا يكاد يمر الطفل بمرحلة المناغاة حتى يدرك من طريق سمعه أن هناك مجموعة صوتية ينطق بها الكبار حوله وهي التي تسمى بالألفاظ ، وأن هذه الألفاظ تحقق للطفل رغبته كما حاول النطق بها .

ويبدأ الطفل بعد السنة الأولى من عمره يربط بين ما يسمع وما يترتب على هذا الذي يسمعه من أحداث ، ونقول حينئذ إن مرحلة الفهم قد بدأت لدى هذا الطفل . وقدرة الطفل على الفهم أكبر من قدرته على النطق في السنة الثانية من حياته ، لذا يقال دائماً إن فهم الأطفال لدلالات الألفاظ يسبق القدرة على تقليد تلك الألفاظ . فهو يفهم مدلول كلمة « العين واليد والرجل والرأس » وغيرها من ألفاظ كثيرة الشيعوع في محيطه قبل أن يفاخر فينطق بمثل هذه الألفاظ .

ثم لا يلبث الطفل أن ينطلق من عقاله فيقلد الكبار في نطق الألفاظهم ، ويوجه كل عنايته لإجادة النطق بها ؛ لأنها الوسيلة لإدراك رغبته والحصول

على ما يشتهى . وليس يقلد تلك الألفاظ حبا فيها لذاتها ، وإنما لما يترتب على النطق بها من أحداث وأعمال .

ويخطئ بعض الآباء والأمهات حين يتصورون أحيانا أن أطفالهم الصغار لا يكادون يفهمون شيئا مما يدور حولهم ، ثم قد يندمون فيما بعد حين يقين لهم أن هؤلاء الأطفال يفهمون أكثر مما يتصور أهلهم !!

وكذلك قد ينال بعض الأمهات والآباء فينسبون لأطفالهم قدرا من الفهم هو في الحقيقة فوق مداركهم ، ولم يخطر في أذهان هؤلاء الأطفال .

لهذا تجب الحيلة في الحكم إلا بعد أن يألف الطفل النطق بالألفاظ في سياق الحوادث ، ويمرن على تكوين العبارات والجل التي تبين بوضوح مقدار هذا الفهم ، ونصيبه من الصحة والصواب .

وتتكرر الحوادث أمام الطفل مصحوبة بتلك المجموعات الصوتية التي تسمى بالألفاظ . ، فيوثق الطفل الربط بين هذه الحوادث وتلك الألفاظ . ثم تتكرر تجاربه وتنوع ، ويشعر بمتعة كبيرة حين يجرب النطق بلفظ من الألفاظ فيتحقق له نتيجة هذا النطق ما كان يرغب ويشتهى .

ويبدأ الطفل إدراكه للدلالات في صورة ناقصة قاصرة تسمى أحيانا بمرحلة الدلالات الخاصة أو مرحلة العلية . فكل لفظ يسمع للمرة الأولى يتلقاه الطفل وكأنه علم من الأعلام لا يطلق إلا على ذلك الشيء العين الذي ارتبط به في تلك التجربة العيفة . فالطفل في أواخر السنة الأولى وأوائل الثانية حين يسمع كلمة (السرير) ويربط بينها وبين سرير الصنير ، يأخذها على أنها علم لذلك الشيء الذي ينام فيه والذي يحل مكانا معينا في حجراته والذي غطي بنطاء ذي لون معين أحمر أو أخضر .

ثم تتكرر التجارب ويسمع الطفل لفظ « السرير » يطلق على سرير

أخيه الكبير وسرير أبوه ، وها يشتركان مع سريره في صفات ويختلفان في صفات أخرى . وهنا يبدأ عملية التعميم لعله يصل إلى المعنى الكلى للأشياء ، فيتلمس وجوه الاختلاف بين تلك الأشياء التي يطلق عليها لفظ « كرسى » مثلاً ، ويحاول تمييز الصفات الأساسية من الصفات العرضية ، ولكنه في هذه المحاولة قلما يصيب الهدف ؛ بل يتعثر ويخلط بين تلك الصفات ، وقد يحمل من الصفات العرضية صفات أساسية . فإذا رأى شخصاً يجلس على صندوق مثلاً خيل إليه أن الصفة الأساسية لما يسمى بالكرسى هي إمكان الجلوس عليه ، وهذا قد يطلق على الصندوق كلمة « كرسى » !! .

وليس منا من لم يمر بمثل هذه التجربة مع الأطفال ، « فالكنتبة » عند بعضهم « سرير » ، و « المكتبة » عند آخرين « دولاب » و « المكتب » « ترابيزة » وهكذا . ويشغف الطفل بعالم الحيوان شغفاً كبيراً ، ولا يلبث أن يلتقط ألفاظاً مثل الحمار ، الحصان ، الجمل ، البقرة على حسب ما تسمح به بيئته . فالطفل في المدن قد يسمع لفظ « الحمار » قبل أن يسمع لفظ « البقرة » . فإذا تكررت أمامه رؤية « الحمار » ، وتكرر سماعه لهذا اللفظ ، ثم تصادف أن رأى للمرة الأولى « حصاناً » فقط يطلق عليه لفظ الحمار ، بل قد يطلقه على الجمل أو البقرة ؛ لأن الصفة الأساسية في كل هذه الحيوانات أنها تمشي على أربع .

ويخلط الطفل كذلك بين أنواع الطيور ، فقد يسمى « الببغاء » « فرخة » ، و « الحمامة » « عصفورة » ، والحدأة غراباً ، على حسب ما تسمح به تجاربه ، وما تسمح به البيئة التي ينشأ فيها .

ولعل كلمة الأب والأم من أسبق الألفاظ إلى ذهن الطفل ، ولا يلبث هذا الصغير أن يتخذ لدلول لفظ الأب صفات غير أساسية يلتصقها من صفات أبيه ، ثم يخلع لفظ الأب على كل من يتصف بهذه الصفات العرضية . فإذا كان أبوه

مطر بشاً وله شوارب طويلة ويمسك عصا في يده ، ثم تصادف أن رأى رجلاً يتصرف يمثل هذه الصفات العرضية أطلق عليه في براءة الأطفال كلمة الأب .

والطفل في الوقت الذي يحاول فيه تعميم الدلالة ، نراه أحياناً يختصص من العام ، ويقتصر ما هو عام الدلالة على شيء معين مر به في تجاربه مرتبطاً بذلك اللفظ ذي الدلالة العامة . فقد يتصادف أن يسمع الطفل ممن حوله وفي أثناء لعبه عبارات مثل : خذ لعبتك ، هات لعبتك ، لمبتك حاة ، وكانت لعبته حينئذ على صورة حيوان أو طيارة أو قطار ، نرى الطفل يربط بين لفظ « لعبة » ذي الدلالة العامة ، وبين لعبته المميّنة . ويصر على عدم استعمال هذا اللفظ إلا حين تكون اللعبة على ذلك الشكل الميّن .

نرى من كل هذا أن الطفل يقضي زمناً غير قصير يحاول فيه تعميم الخاص من الدلالات وتخصيص العام ، ويلتقي في هذه المحاولة عتناً ومشقة قبل أن يهتدى إلى الدلالة الصحيحة على النحو الذي يدركه الكبار حوله .

ويتسبب بعض الآباء دون عمد أو قصد في تضليل أطفالهم إزاء لفظ من الألفاظ يستعمله الكبار استعمالاً غامضاً ، فيرتبط في ذهن الطفل بمدلول غامض لا يتخلص منه إلا بعد تجارب كثيرة .

فقد يقف بعض الكبار حول الطفل ينظرون وهو يجرب لعبة جديدة للمرة الأولى ويمسح تجربتها ، فيصبح أحدهم دهشاً متعجباً « هايل » ! فيأخذ الطفل هذه اللفظة ويطلقها على كل لعبة من هذا النوع ، وقد يطلب إلى طفل من جيرانه أن يحضر ليأب معه « بالهايل » ١١ .

كذلك قد تكرر الأم أمام الطفل عبارة مثل « تعالى نام جنبى » فلا يلتقط منها الطفل سوى كلمة « جنبى » التي يفهمها على أنها معنى عملية محببة لكل الأطفال وهو النوم في أحضان أمهاتهم ، ولا نلبث أن نسمع حينئذ ذلك الطفل يصبح متوسلاً إلى أمه وناطقاً بكلمة « جنبى » بمعنى « النوم » ! .

ويستمتع بعض الكبار بمثل هذا الانحراف في الدلالة لدى الأطفال ، فيضحكون ، وقد يستعملون اللفظ على غرار ما فعل الطفل ، فيثبتون الخطأ في ذهنه وتظل تلك الأخطاء الدلالية موضع السمر والفكاهة في الأسرة زمناً طويلاً .

وعيز الطفل بعد زمن قليل بين المفرد والجمع أو بين القليل والكثير من الأشياء ، ولكنه يظل يتعثر في الأعداد زمناً طويلاً . وقد يعلمه والداه النطق بالأعداد من واحد إلى عشرة فيردد ما تعلم وما لقن دون فهم حقيق لمعناها ، حتى إذا جئته بهد من التفاح أو البرتقال وطالبته بعدها شاهدت تعثره وخطئه بين الأرقام .

ويصادف الطفل إزاء طائفة معينة من الألفاظ سمويات جمة تمقد الأمر عليه وتزيد في عثراته ، وتلك هي :

(١) الألفاظ ذات الدلالات المتقابلة أو المضادة مثل « فوق ، تحت » و « سخن ، بارد » و « على ، واطى » و « يمين ، شمال » . فيخلط بينها ويستعمل إحداها مكان الأخرى زمناً غير قصير .

(ب) المشترك اللفظي ، وذلك كأن يدل اللفظ الواحد على أكثر من دلالة ، « قالسيجارة » في يد أبيه غير « السيجارة » في يده أمه أثناء الرقى أو الخياطة ، و « الملف » قد يسمعه من أبيه الموظف ويسمع « ملفاً » آخر من الحوذى أمام بيته ، و « السكتاب » في يد أخيه التلميذ « والسكتاب » في ليلة عرس لعمته أو خالته . ويتضاحك الناس في أمثالهم على مثل هذا الخلط بين الدلالات ونسمع منهم ذلك المثل المصري :

[قال أبوى من خيار الناس ، قال باباهات لى خيار]

(ح) كلمات متشابهة الأصوات مثل :

[النضاع والقلاع ، الحنطور والطرطور ، العياقة واللياقة ، والافتراح والاختراع ، الصورة والسورة]

فإذا تصادف أن سمع الطفل للمرة الأولى كلمتين من هذا النوع في ظرفين مختلفين سبب له هذا بعض الحيرة والدهشة ، فيقابلهما أحياناً بالصمت ، وأحياناً بالتساؤل والاستفسار . ويظل بعد هذا يخلط بينهما زمناً ما إلى أن تنضج له معالم كل من الكلمتين . بل إن الخلط بين هذه الكلمات غير مقصور على صغار الأطفال ، فكثيراً ما يقع فيه الكبار ، وهو ما يفسر لنا الخلط بين شبابدا المتعلم في كلمتي « العتيق والعتيد » وجعلهما بمعنى واحد . ومن التلاميذ من لا يفرقون بين « الظرافة » من الظرف ، « الزرافة » للحيوان المعروف ، بين الزكاء للنماء والذكاء ضد النباهة ، وبين ذل ، زل .

(د) كلمات تختلف دلالاتها باختلاف السياق ككلمة « صاحب » التي يسميها الطفل في عبارة مثل « صاحب البيت » أى المالك ، ويسمى مرة أخرى تشير إلى صديقه في مثل « صاحبك » . وأسبق هذا النوع من الكلمات إلى محيط الطفل تلك التي نسميها بالضماير . فالطفل يسمع أباه يقول « أنا » ويسمع أمه تقول « أنا » ويسمع الخادم يقول « أنا » ، فلا يدري أى هؤلاء هو « أنا » الحقيقي ؟ ولا ندهش من أجل هذا أن نسمع طفلاً يقول لأبيه [أنا روح] يريد [أنت اذهب] ، أو حين يشير إلى نفسه بالضمير « أنت » ويقول [أنت نفي] أى أريد أن أنام . ويزيد بعض الكبار صعوبة هذه الضماير حين يستعملون في خطاب الأطفال الأسماء بدلاً منها فيقولون مثلاً (توتو دحّة) و « توتو » هنا طبعاً اسم الطفل ، فيعوقون سيطرة الطفل على الضماير والتفرقة بينها . وقد كان بعض فلاسفة الألمان يحتفل باليوم الذي يستطيع فيه طفله استعمال الضمير « أنا » ، متخذاً من هذا دليلاً على بدء شهور الطفل بكيانه واستقلاله .

ومما يعقد الأمر على أطفالنا في تلك الضمائر ، المتصلة منها والمنفصلة ، فيظل الطفل يتعثر فيها إلى سن الثالثة أو الرابعة أحياناً . فيقول الطفل مثلاً « توتوخد اللعبة من انت » بدلاً من « منك » ، أو يقول « من أنا » بدلاً من « منى » ، و « جزمة انت » بدلاً من « جزمتك » ، و « من هو » بدلاً من « منه » وهكذا ...

فليس الأمر كما يتصور بعض الدارسين من أن الطفل يسيطر على دلالة الألفاظ في غير عفت أو مشقة ، بل الصحيح أنه يصادف في هذا صعوبات كثيرة تظل تلازمه زمناً طويلاً . فقد يسيطر على الأصوات وتراكيب الجمل وطرق النفي والإثبات والتوكيد وغير ذلك من المظاهر الصوتية أو النحوية قبل التحاقه بإحدى المدارس . فلا يكاد الطفل الأوربي يمر بمرحلة التعليم الثانوى حتى يصبح الخطأ في مثل هذه الظواهر أمراً غير مألوف . ولكن الطفل فيما يتعلق بالدلالات يظل يتعثر فيها طول حياته ، ويختلف فهمه لها مرحلة بعد أخرى ، فهي تضيق حيناً ، وتوسع حيناً آخر ، وتتجدد وتنوع وتنفو مع الزمن ، فلا يكاد يسيطر على بعضها بعد سن معينة حتى يصادفه سيل جارف منها يستأنف الصراع معها . فنحن نقضى كل حياتنا في صراع مع تلك الدلالات ، ويندر أن يسيطر أحدها على دلالات كل الألفاظ اللفظية ، بل يكاد يكون هذا مستحيلاً .

وتعد أجزاء الجسم من أسبق الألفاظ إلى سماع الطفل ولسانه ، فهو يعرف كل أو جل أجزاء جسمه في سن الثانية : كالعين والأنف والأذن والإصبع والظفر والرجل واليد والبطن والرأس والشعر .

وهي لذلك تعد من أقدم الألفاظ في اللغات البشرية . ويكفى أن نقارن بين ألفاظ عدة لغات من فصيلة واحدة ليتضح لنا أنها تشترك في مثل هذه الألفاظ ، لأنها استمدت من الأم الأصلية لهذه اللغات ، فأنحدرت إليها جميعاً

على صورة واحدة ودلالة متحدة . فحين نقارن بين العربية والعبرية ونستعرض
منهما تلك الألفاظ التي تدل على أجزاء الجسم نراها في اللفتين متحدة
الصورة والدلالة:

رأس = ראש	شعر = שער	أذن = אזן
أنف = أنف	عين = עין	فؤاد = פוע
دقن = דקן	شفة = שפה	يد = יד
رجل = רגל	بطن = בטן	جسم = גוף
كبد = כבד	كتف = כתף	

وتنتقل دلالات هذه الألفاظ القديمة إلى الجداد فتتصور للكرمي رجلاً
وبداً ، ونقول مثلاً : أسنان المشط والمشار ، يد السكين ، عين الإبرة ، أذن
الإبريق ، فم النهر ، عنق الزجاج ، لسان الجزمة ... ونحو ذلك من مجازات
واضحة العلاقة سهلة التفسير يتقبلها الطفل الصغير دون غرابة أو دهشة ، لأن
الاستعمال الجديد يشترك في المظهر الخارجي مع القديم . ويساعد على تقبل الطفل
لهذا النوع من المجاز أنه يعيش زمناً غير قصير في عالم الخرافات والخيال ، ويشخص
الأشياء فيجعل منها مخلوقات حية أو شبه حية .

وبعد هذا الانتقال في الدلالة من المجازات العامة ، التي تنشأ بين أفراد
البيئة اللغوية ، رغبة في توضيح الحديث وإبراز صورته . ولا تقابل تلك
المجازات من جمهور الناس مهارة خاصة ، أو حذقاً خارقاً للعادة للاهتمام إليها ،
فليست كتلك المجازات التي يتذكرها الشعراء والكتّاب ، ويجهدون قرائهم
في الفصوص عنها . ولذلك تعد تلك المجازات من أقدم أنواع المجاز ، فلم تعد تثير
في الأذهان غرابة أو طرافة ، وأصبحت بعد شيوعها من الحقيقة .

وكما يستعير الناس أجزاء الجسم ويخلعونها على الأشياء ، قد يستعمرون أيضاً أجزاء الحيوان والنبات ويلصقونها للجماد فيقولون مثلاً :

جفاح الطائفة ، ذيل الفستان ، جذور الأسنان .

وهكذا يمرن الطفل منذ صغره على نقل الدلالة من مجالها إلى مجال آخر ، ويدرك أن الدلالة لا تكاد تستقر على حال واحدة ، وأنها قابلة للتغير والتطور . وكثيراً ما يعتمد الطفل في فهم الدلالة على الاستنباط من سياق الحديث والحوادث ، فيحدد قيمتها على حسب فهمه واستنباطه ، وترتبط في ذهنه بتلك التجارب السابقة التي تعلم منها اللفظ .

وقد يسأل الطفل عن دلالة لفظ من الألفاظ فيجيبه أبوه أو أمه إجابة دقيقة أحياناً وغامضة أحياناً ، فتأخذ الدلالة في ذهنه حدوداً خاصة تختلف في كثير من الأحيان عما في أذهان الكبار حوله .

فدلالات الأشياء ترتبط في أذهان الأطفال بتجاربههم السابقة ارتباطاً وثيقاً ، وعلى قدر اختلاف تلك التجارب تختلف الدلالات في أذهانهم . فالطفل الذي تعود منذ صغره أن يكون له كلب صغير يدله ويؤاكله ويلعبه ، وقد ينام معه في سرير ، يدرك من دلالة لفظ « الكلب » غير ما يدرك طفل آخر كل تجاربه مع الكلاب فتلخص في أن أحدها قد عضه في رجله في يوم من الأيام !! .

والطفل في القرية الذي تعود منذ صغره أن يقود البقرة أو الجاموسة إلى الحقل ، وبنائها طعامها ، ويداعب قرونها وقد يركب عليها ، يدرك من مدلول هذين اللفظين حدوداً من الدلالة واضحة التفاصيل والمالم ، في حين أن الطفل بالمدن يظل زمناً طويلاً غير مستطيع التمييز بين البقرة والجاموسة ، وتبقى دلالتهم في ذهنه غامضة وقفاً غير قصير .

وموقف الأمم البدائية من دلالة الألفاظ يشبه إلى حد كبير تلك المرحلة التي

فيها نرى الأطفال لا يكادون يميزون بين الدلالات الكلية والدلالات الخاصة ،
والتي لا يتصورون عقدها أنه من الممكن أن يوجد في الدنيا أب غير أبيهم أو أم
غير أمهم أو سرير غير سريرهم ، فالكلمات عندهم أعلام أو ما يشبه الأعلام ،
لا تطلق إحداها إلا على شيء معين .

فيحدثنا بعض الباحثين ممن درسوا لغات الأمم البدائية أن الهنود الحمر ليس
لديهم كلمة يمكن أن تطلق على شجر البلوط بأنواعه المختلفة وألوانه المتباينة
ولكنهم يقتصرون « البلوط الأسود » بكلمة معينة ، والبلوط الأحمر بكلمة أخرى
لا تمت للأولى بأى صلة ، فهم لا يكادون يدركون الدلالة الكلية للأشياء ، بل
يتخذون لكل نوع كلمة خاصة تدل عليه . فما تدل عليه كلمة مثل « شجرة »
لا مفهوم له في أذهانهم ، وإنما الذى يدركونه هو نوع معين من الشجر ، كشجرة
الكافور أو شجرة الموز أو شجرة التوت ، فلكل من هذه الأنواع كلمة خاصة
في لغتهم .

كذلك يحدثونا أن الهورونين (سكان أمريكا الشمالية) ليس في لغتهم
ما يعبر عن عملية الأكل بمعناها العام ولكنهم يتخذون لأكل اللحم كلمة خاصة ،
ولأكل الخبز كلمة أخرى ، ولأكل الموز كلمة ثالثة وهكذا .

ومما حدثونا به أن سكان جزيرة تسمانيا (قرب استراليا) لا يكادون
يستعملون اللغات بمعناها العام ، فصفة الطول لا وجود لها بين ألفاظهم ، وهم من
أجل هذا يلجأون إلى التشبيه للتعبير عن هذه الصفة ويقولون ، مثلاً هو « كالشجرة
أو النخلة — أى أنه طويل أو مفرط في الطول .

وفي بعض لغات وسط أفريقيا اختلط الأمر على أصحابها ، ولم يربطوا بين
الأشياء التى من نوع واحد فلم تكون لها فى أذهانهم دلالة كلية ، فليس لديهم

كلمة للتعبير عن « السمك » بأنواعه ، ولكنهم يصطادون كلمة خاصة لكل نوع من أنواع السمك المعروفة لهم . وقد أدى هذا إلى أن لنفهم قد خات أو كادت من الفكرة المجردة للجمع ، فلا يجمعون الاسم المفرد ، أو يتخذون للجمع صيغة مخالفة لصيغة المفرد ، فإذا اضطروا في النادر من الأحيان للتعبير عن الجمع أو الكثرة لجأوا إلى وسائل أخرى غير مألوفة في اللغات المشهورة^(١) .

كذلك مما حدثنا به هؤلاء الدارسون أن بعض القبائل في وسط البرازيل يتخذون كلمة خاصة لكل نوع من أنواع الببغاوات ولكل نوع من أنواع الدخيل ؛ وأن الـ *mohicans* لا يعرفون كلمة للتعبير عن القطع بمعناه العام ، بل تختلف الكلمة عندهم باختلاف القطوع ، وأن قبيلة « الزولو » تصطنع كلمة خاصة للبقرة البيضاء ، وأخرى للبقرة الحمراء ؛ وأن في « شيروكي » يختلف الفسيل باختلاف الفصول فلهيهم كلمة لفصل اليد وأخرى لفصل الثوب وثالثة لفصل الأطباق ١١ .

وليس في كثير من اللغات البدائية كلمة للأخ ، بل هناك كلمة للأخ الكبير وأخرى للأخ الصغير .

كذلك يقال لنا إن كلمات الألوان في « ليتوانيا » تختلف باختلاف الشيء الملون ، فكلمة « الأزرق » حين يوصف بها الصوف تختلف عنها حين يوصف بها البحر . ويشبه هذا ما نعرفه عن كلمة « آدم » العربية التي يوصف بها الفرس الأسود ، ولكن لا يقال عن الثوب الأسود إنه ثوب « آدم » مثلاً !

ومما يروى لنا من لغات « أميرندا » أن ألفاظ الأعداد فيها تختلف باختلاف العدود . ويشبه هذا ما يزال شائعاً حتى الآن في بعض اللغات من حيث المقاييس والموازين .

1—Language families of Africa, p. 48.

وأخيراً وليس آخراً فقد ظهر لهؤلاء الدارسين أن الشعر القوطى Gothonic يشتمل على كلمات مترادفة كثيرة للتعبير عن [السيف والبحر والمركة والأبطال] ونحو هذا مما تضمنته ملاحظتهم . وكانت كل كلمة من تلك المترادفات تتميز بصفات معينة ، ثم تفرست تلك الصفات فتولد الترادف بين كلمتين أو أكثر ، أى أن ما حدث فى بعض المترادفات العربية حدث مثله فى لغة الشعر « القوطى » ، وفى العربية مثلاً ألفاظ كثيرة للسيف رويت لنا على أنها ألفاظ مترادفة ، ولكن كلا منها كان فى وقت من الأوقات يتميز بشيء ليس فى الألفاظ الأخرى . فلما أهملت الفروق أو نسيت نشأ الترادف بين ألفاظ السيف .

وفى رأى هؤلاء الدارسين أن أوضح ما نتصف به اللغات البدائية هو ذلك العدد الوفير من ألفاظ يمكن الاستغناء عنها لو أن الفكرة الكلية فى الدلالة قد انضخت فى أذهان أصحاب هذه اللغات . ومع ما بها من ألفاظ لا حاجة إليها تموزها ألفاظ كثيرة جداً للتعبير عن الدلالات المجردة والمعانى العقلية السامية . ولعل ما يسيطر على هؤلاء القوم من التطير والتفاؤل والقساؤم كان من أهم الأسباب فى كثرة كلماتهم ذات المعانى المتقاربة . فكثيراً ما يهجون ألفاظاً ويتبنون أخرى مكانها للتعبير عن نفس المعنى .

الدلالة لدى الكبار

حدود الدلالة :

هناك أمور ثلاثة يجب التمييز بينها وهى : اللفظ ، الشيء ، الصورة الذهنية . فكلمة « التفاح » لفظة تتكون من عدة أصوات يعرف دارس الأصوات كيف تصدر من الفم ، وصفات كل صوت منها ، وما تحدته من اهتزازات

وذبذبات حين النطق بها . و « الشيء » بالنسبة لكلمة التفاح هو تلك الفاكهة اللذيذة المعروفة ، أما الصورة الذهنية فهي ما يتصوره كل منا حين يسمع تلك الكلمة . والربط الحقيقي لا يكون إلا بين الشيء وصورته الذهنية ، أى أن اللفظ شيء أجنبي عنهما اتخذ دليلاً عليهما أو رمزاً لهما ، ولكنه اكتسب مع الزمن صفة سمت به فوق اعتباره مجرد رمز من الرموز .

ونحن في تجاربنا العادية نعرف على التفاح للمرة الأولى برؤيته والاستمتاع بأكله ، ونحدد له في أذهاننا صورة ندعوها كلما سمعنا هذا اللفظ ، وتكرر تجاربنا مع التفاح فتزداد تلك الصورة الذهنية وضوحاً ، ونصف أنفسنا حينئذ بأننا ندرك دلالة هذا اللفظ .

وتعود منذ الصغر على التمييز بين الصفات الأساسية والصفات العرضية لهذا الشيء ، فلا نتخذ من الحجم أو اللون صفة مميزة للتفاح ، ولا نخلط بين التفاح والكمثرى والبرتقال ، بل يستطيع الطفل الصغير أن يميز بينها بسهولة بمجرد رؤيتها . فالصورة الذهنية لكل منها واضحة جلية ، غير أنه حين نسأل أنفسنا عن تلك الصفات الأساسية التي تجعلنا نسمى التفاح تفاحاً ، والتي تميزه من البرتقال مثلاً ، نجد أنفسنا في حيرة ويصعب علينا وصفها أو تحديدها ، بل إنها تتطلب عالماً إحصائياً ليحدد تلك الصفات تحديداً دقيقاً^(١) . ونكتفي في غالب الأحيان حين يسألنا أحد الناس عن معنى التفاح ، بأن نعرض عليه تفاحة ، أو أن نصفها وصفاً تقريبياً بعيداً عن الدقة ومشتملاً على بعض الصفات العرضية . ويتقبل السامع هذا الوصف التقريبي ويقنع به ، بل قد يستعمله حين يسأل عن معنى التفاح دون محاولة الفوص عن دقائقه وحدوده المميزة .

ولا يجد المرء متسعاً من الزمن أو فرصاً من المعرفة ليتعرف على كل ما حوله في صورة دقيقة المعالم والحدود ، وهو مع ذلك في حاجة إلى التعبير عما حوله

في حديثه اليومي مع أفراد بيئته . ولذا يقنع بما يسمع بين الناس من فهم قاصر للدلالات ، ويظل يتعامل بها معهم حتى تتاح له فرص من العلم يدرك بعدها أن فهمه لتلك الدلالات، كان غير دقيق ، فكلنا نعرف معنى السكر وإن صعب علينا وصفه ، ولكن دارس الكيمياء يعرف كيف يتكون ، ومم يتكون ، ويؤلف لنا معادلة كيميائية تعد في الحقيقة التعريف الصحيح الدقيق لهذا الشيء المؤلف لنا جميعا .

على أنه إذا أمكن لدارس الكيمياء أن يحدد لنا معنى «المالح» أو «السكر» فسنظل في حيرة أمام تلك الدلالات المحررة كالحب والكره والسعادة ، وغير ذلك من ألفاظ. تكون الأكثر الغالبة في معظم اللغات . فالدلالات قدمومعنا ، وتحدد معالمها على قدر مانصل إليه من معرفة . فدلالات الأطفال هي أطفال الدلالات ، نقبناها منذ صغرنا ، ونفذيها بما يقاح لنا من علم وتجارب ، فتتغير وتطور مع الزمن حتى تستقر على حال معينة في ذهن كل منا .

وتكتسب القلة من الدلالات هذا الاستقرار منذ التجارب الأولى ، ولكن الكثير منها يتطور مع الزمن ومع التجارب المتعددة . فالحوت يظل في أذهاننا في صورة السمكة الكبيرة حتى نتعلم شيئاً عنه فنذكر أنه حيوان ثديي يتنفس الهواء مباشرة .

ويقنع كل لغة بذلك الفهم التقريبي ، ويقنع معها اللغوي عادة بما يسمع بين الناس من دلالات قاصرة ، فيضع معجمه ويفسر ألفاظه على قدر فهم جمهور الناس لها ، لا على قدر فهم العلماء المتخصصين تاركاً تلك الدلالات الدقيقة المعاجم العلمية وكتب المصطلحات .

وتتأثر الدلالة في نموها وتطورها بمؤثرات أوضحها أنها تختلف لدى كل منا باختلاف التجارب التي نمر بها ، والظروف المحيطة بهذه التجارب . فالطفل يرى التفاح للمرة الأولى في صورة معينة وفي حجم معين ولون معين ثم تتكرر

تجاربه ويراها في صورة أخرى، وظروف أخرى، مرة وهو سليم معاف وأخرى وهو مريض لا يشتهي، فلا تكاد تتفق التجارب في حياتنا إزاء شيء معين. ويتكون في آخر الأمر من كل تلك التجارب المختلفة لدى كل منا صورة ذهنية معينة، نستحضرها كلما سمعنا لفظ التفاح. فمننا من يستحضر صورة التفاح لدى سماع لفظه، كبير الحجم أحمر وقد وضع في إناء بلوري كبير، ومنا من تكون صورته الذهنية عن التفاح أن نصفه أحمر ونصفه أصفر، وفريق ثالث يستحضرون صورة ذهنية عن التفاح الأصفر الذهبي اللون.

ومتى سلمنا باختلاف تجارب المرء نفسه في الظروف المختلفة، فأجدر بنا أن نسلم باختلاف التجارب باختلاف الأشخاص. فالصورة الذهنية عن المهرات في ذهن الفلاح غيرها في ذهن أهل المدن. فليس منا من لم ير المطر أو يجرب سقوطه تجارب لاحصر لها وفي ظروف لاحصر لها أيضاً، فإذا سمع لفظ المطر أدرك مدلولها، ولكننا وقد اختلفنا في التجارب المرتبطة بهذه اللفظة يتكون في ذهن كل منا دلالات مختلفة في نواح ومتفقة في نواح أخرى، ولا يقال حينئذ إن دلالة المطر في أذهاننا متحدة، بل تصطبغ في ذهن كل منا بصبغة خاصة.

هذا إلى أننا نختلف في أجسامنا بين صحة ومريض أو ضعف وقوة، ونختلف في تركيب أعصابنا وأمزجتنا، وفيما يرثه كل منا من أبويه وأجداده، ويترك كل ذلك أثراً كبيراً في فهمنا للأمور، وتحديدنا للدلالات. وهكذا نرى أن الدلالة أمر فردي لانكاد نتحدد فيه الأذهان؛ بل تتباين تبايناً كبيراً.

ورغم كل ذلك لا يقف اللغوي أمام تلك الدلالات المتباينة مكتوف اليدين، بل يحاول تحديدها في معجمه على أساس مشترك بين جمهور الناس، أو بين طبقة متميزة منهم، وقد يلجأ في تحديد الدلالة إلى خبرة الخبراء وأهل العلم فيستعين بمعلوماتهم في تحديدها، ويكون وصفه لها أقرب إلى المصطلحات العلمية.

ولسكن الناس في حياتهم العامة يعمدون إلى التعاون والتفاهم ، ولا يمكن أن يتم هذا إلا بعد أن يتنازل كل منهم عن تلك الفروق التي تميز شخصاً من شخص ، أو فهماً من فهم ، حتى يمكن أن يتحقق التعاون بين أفراد المجتمع . ومع ذلك فكثيراً ما يحدث الشقاق بين الناس ، ويشهد النقاش والجدل نتيجة تلك الفروق التي في ذهن كل منهم عن دلالات الألفاظ .

ومع قدر من هذا التسامح والتنازل يستطيع اللغوي أن يحدد الدلالات في معجمه ، وأن يقول إن لفظ كذا مدلوله في اللغة العربية مثلاً هو كذا ، دون التعرض لقوة هذه الدلالة ، أو ضعفها ، ودون الإشارة إلى وضوحها أو إبهامها ، لأن مرجع كل هذا إلى الأفراد وتجاربهم المختلفة .

وأذكر بهذه المناسبة أن صحفياً طلب إليّ في يوم من الأيام أن أخبره عن « أحزن » كلمة و « أسر » كلمة في اللغة العربية ! ! أخذته عن أن هذا يختلف باختلاف تجارب الأفراد ، وأنه ليس هناك شيء يسمى « أحزن » كلمة أو « أسر » كلمة في اللغة العربية ، وإنما الواجب أن يسأل فرد عن « أحزن » كلمة في قاموسه « وأسّر » كلمة في هذا القاموس الخاص .

ومن هنا جاءت فكرة المركز والهامش في الدلالة ، وهو ما سنحاول علاجه في الفصل التالي .

الفصل السادس

المركز والهامش في الدلالة

يعيش الناس في مدينة القاهرة حياة اجتماعية تتضمن قدراً كبيراً من التعاون وتبادل المصالح ، فيتصل بعضهم ببعض ، وينتفع بعضهم ببعض ، ولا يقتصر هذا الاتصال أو تلك المنفعة على حدود ضيقة كالأسرة أو الأقارب ، بل يسعى الفرد منهم وراء رزقه ومصالحه يوماً في شمالها وآخر في جنوبها ، وساعة مع باعها ، وأخرى مع موظفيها ، ويتخذون في هذا الاتصال وسيلة واحدة هي اللغة التي تنظمهم جميعاً ، وتيسر عليهم ذلك التعاون الاجتماعي الفشود ، وهم مع هذا ربما نشأوا في بيئات مختلفة ، وتأثروا بتجارب متباينة في حياتهم السابقة ، مما قد يترك أثراً قوياً في فهمهم للألفاظ ، ولأنهم رغم ذلك يتعاملون بتلك الألفاظ ، ويقتارل كل منهم عن تلك الفروق التي تلون الدلالات بلون خاص في ذهن كل منهم ، ويقنعون في تلك الحياة الاجتماعية بقدر مشترك من الدلالة يصل بهم إلى نوع من الفهم التقريبي الذي يكتفي به الناس في حياتهم العامة .

وهذا القدر المشترك من الدلالة هو الذي يسجله اللغوي في معجمه ، ويسميه بالدلالة المركزية ، وقد تكون تلك الدلالة المركزية واضحة في أذهان كل الناس كما قد تكون مبهمه في أذهان بعضهم . ويمكن أن تشبه الدلالة بتلك الدوائر التي تحدث عقب إلقاء حجر في الماء ، فها يتكون منها أولاً يمد بمثابة الدلالة المركزية للألفاظ ، يقع فهم بعض الناس منها في نقطة المركز ، وبعضهم في جوانب الدائرة أو على حدود محيطها . ثم تتسع تلك الدوائر وتصبح في أذهان القلة من الناس وقد تضمنت ظلالاً من المعاني لا يشركهم فيها غيرهم .

وأقصى ما يطمع فيه اللغوي هو أن يجعل تلك الدلالة المركزية واضحة في أذهان الناس ، ولذا يعتمد إلى ذلك القدر المشترك فيجده ويشرحه في مجمله ، مستعيناً في هذا بطبقة المثقفين من جمهور الناس ، ومتخذاً منهم نماذج الدلالية في ذلك المعجم .

فالدلالة المركزية لكلمة مثل « الشجرة » تتضح في ذهن الطفل منذ السنين الأولى من حياته ، وتظل واضحة في ذهنه طول حياته دون زيادة كبيرة في دلالتها المركزية ، في حين أن كلمة أخرى مثل « الحزن أو الغضب » تتطور دلالتها المركزية معنا ، وتأخذ وضعاً في طفولتنا غير الذي تأخذ في شبابتنا ، ثم تستقر على حال معينة في شيخوختنا .

ومع اختلاف كثير من الناس في تلك الدلالة المركزية ، لا يعوقهم هذا الاختلاف عن التفاهم وتبادل وجهات النظر ، لأنه خلاف في نسبة الوضوح لتلك الدلالة ، فهي عند بعضهم أوضح منها عند آخرين ، ولكنهم على كل حال واضحة وضوحاً كافياً عندهم جميعاً .

أما الدلالة الهامشية فهي تلك الظلال التي تختلف باختلاف الأفراد وتجربتهم وأمزجتهم وتركيب أجسامهم وما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم . فالتكلم ينطق باللفظة أمام السامع محاولاً بهذا أن يوصل إلى ذهن السامع دلالتها ، فتبعث تلك اللفظة في ذهن السامع دلالة معينة اكتسبها هذا السامع من تجاربه السابقة ، ويفترض بعد سماعها أن مادار في خلد هذا المتكلم يطابق تمام المطابقة ما يدور بخالده . فهو لم يتعامل في عقل ذلك المتكلم ، ولم يكشف عن حقيقة ما يحاول في ذهنه ، ولم يقف على حدود دلالاته وما حولها من ظلال أو هالة ، وإنما بنى فهمه وأساسه على تجاربه هو وفهمه الخاص لمثل تلك اللفظة .

فهناك شاب يسمع لفظ « المسدس » ويدرك من توه دلالاته المركزية ، ولكن هذا اللفظ لا يكاد يشير مع دلالاته المركزية ، شيئاً من ظلال المعاني ،

أورد بما يذكره بطفولته وملاعب صباه حين كانت له لعبة صغيرة في صورة « المسدس » يطلقها في الهواء فتبعث شرراً أو تقذف قطرات من الماء أمام لداته من الأطفال ، والجميع يضجكون ويمرحون ، وهو بلمبته نفور مسرور .

وهناك شاب آخر مر به في حياته حدث أليم رأى فيه مجرمًا أثمًا يصوب مسدسًا نحو أبيه أو أحد أقاربه ، ثم يطلقه فينبعث منه طلق يدوى في أنحاء المكان ، ويخر الأب بعده صريعاً تتدفق الدماء من صدره . فلفظ المسدس أمام هذا الشاب لا يصور تلك الدلالة المركزية وحدها ، بل يبعث في ذهنه صورة بنيضة مؤلة تختلف كل الاختلاف عن تلك التي تجول في ذهن زميله الآخر .

ولفظ « البنسلين » أمام قروي صحيح البدن إن دل على شيء فإنما تقتصر دلالاته على نوع من الدواء سمع عنه أو رآه ، ولكن نفس اللفظ يقع من أذن المريض وقمًا آخر بعد أن جرب آلام الحقن عدة مرات ، وقامى عذاب المرض زهناً ما ، فأحيط لفظ البنسلين في ذهنه بظلال من المعاني لا أثر لها في ذهن القروي .

وأصحاب الأمزجة المرحية يسمعون لفظ « الموت » فلا يفزعهم ، في حين أن المشائيم يجفل لدى سماعه ، وترتعد فرائصه ، وقد يتصور ملاك الموت مقبلاً عليه في صورة بشعة مخيفة .

من أجل هذا اختلفت الدلالة الهامشية باختلاف تجارب الناس وأمزجتهم وما ورنوه من أسلافهم .

فبينما تجمع الدلالة المركزية بين الناس ، تفرق بينهم الدلالة الهامشية ، وبينما تساعد الأولى على تكوين المجتمع وتعاونونه وقضاء مصالحه ، قد تعمل الثانية على خلق الشقاق والنزاع بين أفرادها . ولكن الناس في حياتهم العامة يعتمدون على الدلالات المركزية ويكتفون بها عادة ، وهو من يمن الطالع أو رحمة الخالق

بعباده ، وإلا كانت الحياة جحيماً لا يطاق ، كلها شقاق ونزاع وسوء فهم بعضهم لبعض .

وتسود الدلالة الهامشية في بعض مجالات الحياة ، وتصيح حينئذ شراً مستطيراً لبنى الإنسان . وأوضح مجال للدلالة الهامشية المجال السياسى .

المجال السياسى :

هنا تفرق الدلالة الهامشية بين الإنسان وأخيه الإنسان ، وتنفر الشعوب بعضها من بعض ، وتقيم بينهم أسواراً وحواجز ، بل قد تدفعهم إلى الحروب وويلاتها . فالديمقراطية كمنظوم سياسى يفهمها الروسى فهماً مبالغاً فهم الأمريكى لها ، والاشتراكية عند الإنجليز غيرها عند الألمان أيام هتلر ، والحرية لدى هؤلاء وهؤلاء تتخذ مظاهر متباينة .

ويعمد السياسيون أحياناً إلى شحن تلك الألفاظ السياسية بقدر كبير من الدلالات الهامشية ، ويستغلونها أسوأ استغلال فى دعاياتهم ، وفرض آرائهم وعقائدهم على جمهور الناس . فالفدائى يجعلونه إرهابياً ، والوطنى قد يصفونه بالتهور المتعصب ، والمهزبة يصورونها فى صورة النصر المبين .

فالألفاظ السياسية فوق أنها ألفاظ كاذبة الدلالة فى غالب الأحيان تحاط عادة بهالة من الدلالات الهامشية التى تؤثر فى عقول الناس ونفوسهم ، وتوجههم توجيهها معيناً نحو الخير حيناً ونحو الشر أحياناً .

وإذا صح ما يقوله بعض علماء الفرنسيين من أن الإنسان إنما يتكلم ليخفى ما يدور فى ذهنه ، فليس ينطبق هذا القول على شيء مثل انطباقه على لغة السياسة ومؤتمرات السياسيين . ففيها يحتدم النقاش ، ويشتد الجدل حول مدلولات الألفاظ لأنها شحنت فى أذهان المؤتمرين بظلال من المعانى تفرق بين وجهات النظر وقد تؤدي إلى فشلهم فى الوصول إلى حل من الحلول .

وفي مثل هذه المجالات السياسية لا نحقق اللغة الهدف الأساسي لها ، بل تصبح
نقمة على بني الإنسان ، وهي التي أريد بها أن تكون نعمة لهم .

ولا تفشل المؤتمرات السياسية لتبيان العقائد والمبادئ وحدها ، بل كثيراً
ما تفشل لتبيان دلالات الألفاظ ، وما تتضمن في الأذهان من دلالات
هامشية مختلفة .

أمام القضاء والمحاكم :

تهدف الشرائع السماوية والقوانين الوضعية إلى الوئام والتعاون وتبادل المصالح
بين الناس ، ولكن الناس لا يزالون بخصصهون ، لا فطر عليه بعضهم من شر
أو أنانية . ولكن ذلك الخصام يزداد اشتعالاً ، ويمتد لهبه نتيجة تلك الدلالات
الهامشية التي تختلج في أذهانهم وتباعد بينهم . وبشهادة القضاء كل يوم صراعاً
قوياً نشأ عن تلك الدلالات الهامشية ، فيحاول المشرع سد الثغرات ، وتحديد
الدلالات ولكن هيهات .

حتى الألفاظ القرآنية نراها أحياناً مثار النزاع في تفسيرها بين الأئمة وعلماء
الشريعة ، فهم جميعاً يقرأون : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة فروع » ،
ويختلفون في مداول « الفروع » ، ويرتبون على هذا الخلاف أحكاماً شرعية .

ولعل رجال القانون يدركون أكثر من غيرهم أثر تلك الدلالات الهامشية
في النزاع بين الناس . فيسمع القاضي للمتخاصمين وقد احتدم بينهما الجدل
لا شيء سوى أن أحدهما — دون دلالة لفظ من الألفاظ بلون خاص ،
واصطبح هذا اللفظ في ذهن الآخر بصيغة أخرى ، ثم يحكم القاضي متأثراً في
حكمه بدلالته الخاصة ، وفهمه الذي اكتسبه من تجاربه السابقة ، لا تجارب
المتخاصمين أو فهمهم .

وقليل من الألفاظ القانونية تلك التي تكتسب صبغة الاصطلاح ، فتصبح كالمصطلحات العلمية في الهندسة أو الكيمياء أو الطب ، وذلك لأن الكثرة الغالبة من ألفاظ القانونيين تتصل اتصالاً وثيقاً بحياة الجمهور ومعاشهم ، وتصف مشاكهم ، وتدبر شؤونهم ، وترعى مصالحهم . فالألفاظ الخطاب هي ألفاظ القانون في غالب الأحيان . والقانوني يحاول في تشريعه أن يحدد معالم تلك الألفاظ ، ويلقى في هذا من العنت والمشقة الشيء الكثير ، ولكن الناس مع هذا لا يزالون يختصمون .

فالشرع ينص على وجوب « إعلان المدعى عليه في موطئه » ، قائماً بمثل هذا النص ، معتقداً أن كلمة « الموطن » ذات دلالة محددة في أذهان الناس ، ثم لا يلبث أن يخيب ظنه حين يفد المتقاضون يتنازعون حول هذه الكلمة التي لها في أذهانهم ظلال من المعاني متباينة .

وليس من الضروري أن نفترض المغالطة في كل نزاع من هذا النوع فقد يكون النزاع حول مدلول اللفظ عن عقيدة وإيمان بين كل من المتخاصمين .

فالقضاة والمحامون يقضون نصف حياتهم أو حياتهم كلها في صراع مع تلك الألفاظ ومدلولاتها ، وحُدود تلك الدلالات ، فيوفقون حيناً ويفشلون حيناً آخر .

يقف الدائن ويعلم أن مدينه أفلس ، فيصر الخصم على أن هذا لا يسمى إفلاسا ، وهنا يشتد الجدل حول معنى « الإفلاس » !!

يقف المتقاضون فيدعى بعضهم أن المبلغ كان بمثابة تأمين ، فيصيح الخصم بل وديمة ، أو أنه بمثابة « عربون » فيقول الخصم بل هو « خلو رجل » !! ولذا لا ندهش حين نقرأ تلك المذكرات المسهبة التي يحاول فيها القانوني شرح لفظ من الألفاظ وتحديد دلالاته .

فمعملية « النصب » قد يفسرها المحامى أحياناً بأنها لا تمدو أن تكون
« كذبا » جاز على عقل أحد المفلين ، ولا يحى القانون أمثال هؤلاء
المفلين !!

بل قد تكون الدلالة للفظ من الألفاظ مسألة حياة أو موت ، فكلمة
« العمد » تكون ركناً أساسياً فى الجنایات الخطيرة . فإذا اقتنع القاضى بنية
« العمد » فى سلوك الجانى فقد يدفع به إلى حبل الشفقة ، وإلا تحولت الجنایة إلى
جنحة ، وعدت الجريمة من قبيل الخطأ . ولكن هل من اليسير تحديد معالم
تلك الدلالة المجردة فى كلمة « العمد » ؟ أليس مرجعها أولاً وقبل كل شىء إلى
النية وإلى الضمير ؟ ولا غرابة إذن حين يثبت ركن العمد عند قاضٍ ويتقضى عند
آخر فى نفس الجريمة ، لأن دلالة « العمد » فى ذهن كل منهما متأثرة بتجاربهما
الخاصة ، وبذلك الظلال الهامشية التى تختلف باختلاف الناس .

ففى كل يوم نقرأ على صفحات الجرائد عن جدل ثار أمام القضاء حول تفسير
لفظ أو مدلول كلمة . ولما صدر قانون التشرد حار رجال القانون فى تحديده
وتكليفه حتى استقرت دلالاته أو كادت بعد حين من الزمن . ومنذ صدور قانون
القمار والمحاكم فى صراع حول حدوده ، ولا يزالون حتى الآن يختلفون فى مدلول
« القمار » الذى عناه المشرع وأوجب تحريمه .

وعلى قدر ما يتاح للمرء من تجارب تصطبغ دلالاته بصبغة خاصة وتلون بلون
خاص ، وتحاط بظلال من المعانى لا يشرك فيها غيره من الناس . وتصبح وقد
شجفتها تلك التجارب بما نسميه بالدلالة الهامشية .

ولست تقتصر تلك التجارب على الأحداث وفرص السماع ، بل إن الرق
المغلى ، وما يكتسبه المرء من علم ومعرفة ، وما يتاح له من فرص ثقافية ، كل
هذا يترك أثراً قوياً فى دلالاته ، ويصبغها بصبغة متميزة ، فليست كلمة « البيع »

فى ذهن البائع المتجول تؤدى مانؤديه فى ذهن أستاذ كنجيب الهلالى الذى أخرج
لنا كتاباً ضخماً جعل عنوانه « البيع » ، وعالج فيه تلك العملية الشرائية التى تتم
بين الناس صغيرهم وكبيرهم فى كل لحظة من لحظات النهار وطرفاً من الليل .

وهل « الملكية » فى ذهن رجل أمد من أصحاب الأملاك أو الضياع ،
هى « الملكية » التى كانت فى ذهن الدكتور كامل مرسى حين ألف كتابه المشهور
وجعل عنوانه « الملكية » ؟ .

ولعل من تنمة الفائدة أن نشير هنا إلى وقائع معينة ، أو قضايا مشهورة كانت
فيها الدلالة محل نزاع وجدل فى تاريخنا الحديث .

فلنذكر مثلاً محاكمة الشيخ عبدالعزيز جاويز بسبب مقاله المشهور فى ذكرى
دنشواى ، وما فيه من ألفاظ فهمتها النيابة على أنها « إهانة » ، وفسرها الدفاع
على أنها من القذف المباح . وإن ماثار فى تلك المحاكمة من جدل ونقاش بين النيابة
والدفاع حول مدلول الألفاظ لما يشير الدهشة والعجب . ولنتذكر أيضاً كتاب
« وطنيتى » للشيخ الغابانى ، ومحاكمة محمد فريد والشيخ جاويز لكتابتهما مقدمة
لهذا الكتاب ، وما ثار فى هذا الشأن من نقاش وتأويل وتخريج مرة على لسان
النيابة وأخرى على لسان الدفاع . ولنقتسم معاً لتلك العبارة التى جاءت مرتين
على لسان النيابة ، ولنقتسم ما ذا كان الغائب يعنى بقوله^(١) . [وهل من أصالة
الرأى إنهاض الهمم] ؟ [أفلا يدل هذا على أن الجماعة إنما قصدوا إنهاض
الهمم] ؟ .

ولعل الإمام أباحيفه حين اشترط لنفاذ عقد الزواج أن يكون الزوج كفتاً ،
لم يخطر فى ذهنه أن الناس سيخلفون من بعده فى مدلول « الكفاءة » وحدودها .
ولم يخاف لنا ذلك الإمام المشهور من معالم تلك الصفة التى يجب أن تتوفر

(١) المرافعات وأشهر القضايا لحدود عاصم صفحة ١٠٨ المجموعة الثانية .

(م - ٨ - الألفاظ)

في الزوج سوى لفظ « الكفاءة » ، وترك الداس بعده يذهبون فيها كل مذهب ، إلى أن كانت تلك القضية المشهورة في تاريخنا الحديث حين تزوج الشيخ علي يوسف صفية السادات ، واعترض ولى أمرها على هذا الزواج . وقد شغلت هذه القضية الرأى العام شهوراً فيها كان الداس يتساءلون عن معنى الكفاءة وحدودها و عما إذا كان من المقبول المقول أن يوصف كاتب مشهور من كتاب مصر ، وصاحب جريدة المؤيد بأنه غير كفء ؟ ! ولم يشفع له أنه استحق التكريم من حاكم البلاد فنحج الباشوية ، ولم تشفع له شهرته السياسية ولا ثقافته ولا ماله .

ومثل هذه القضية تربنا إلى أى حد يمكن أن يختلف الداس في دلالات الألفاظ ، عن هوى حيفا ، وعن إيمان وعقيدة حيناً آخر ، والدلالة في كلتا الحالين قد شجنت بظلال من المعانى ، وأحيطت بصفات هامشية يستمسك بها كل فريق ، ويناضل عنها نضال المستعيت .

أمام القضاء الإنجليزي .

كنا في لندن سنة ١٩٣٦ حين أبرمت المعاهدة المشهورة ، ودعى أحد الصحفيين المصريين لإلقاء محاضرة في النادي المصري ، ولا أدري ما إذا كان هو الذى اختار عنوانها ، أو اختارته له اللجنة التنفيذية للنادى . وكان عنوان المحاضرة على كل حال [واجبنا بعد المعاهدة] . فتصدى له الأستاذ (ق) وحاول أن يوجه المناقشة نحو البحث في نصوص المعاهدة ، معلناً أنه من المستحيل أن نعرف واجبنا بعد المعاهدة ما لم ندرس المعاهدة ذاتها ، ونتعرف على مزاياها ونقائصها . وكان من المعروف حينئذ عن هذا الأستاذ أنه من المعارضين للمعاهدة ، فتكهرب جو المحاضرة . وخشى رئيس النادي والمشرف على المحاضرة الدكتور (م) أن يتورط الأعضاء في نقاش سياسى معارض قد تكون عاقبته وخيمة . فحال بن الأستاذ (ق) ومنعه من الاسترسال في الكلام ، فكان بينهما نقاش

حاد تبودلات فيه بعض العبارات القاسية ، وانصرف الأستاذ (ق) مهتداً مقوعداً .

ثم انمقدت اللجنة التنفيذية لتفظر فى أمر الأستاذ (ق) بوصفه عضواً من الأعضاء ، ورات أن قانون القادى يسمح لها بإحالةه إلى مجلس تأديب ما لم يعتذر عما صدر منه

وأصر كل على موقفه ، واستحال التفاهم ، وتطور الأمر ولم يعتذر الأستاذ (ق) ، وقررت اللجنة تنفيذ نصوص القانون . وكان لهذا القانون صورتان إحداها بالعربية ، وأخرى بالإنجليزية فيها ترجمت عبارة « مجلس تأديب » بالعبرة الإنجليزية Disciplinary Council .

وأحيل الأستاذ (ق) إلى مجلس تأديب ، ووضع القرار فى لوحة الإعلانات بالنادى كإحدى العادة فى كل قرارات اللجنة التنفيذية .

وهنا رفع الأستاذ (ق) أمره إلى القضاء الإنجليزى مدعياً أن فى إعلان هذا القرار تشهيراً به ، وقذا فى حقه ترتب عليه خسارة مادية وأدبية . فهو بوصفه من أصحاب الأعمال فى لندن ، وأصحاب السمعة الطيبة بين المتعاملين قد لحقه من هذا الإعلان ضرر بليغ فى سمعته وفى ماله . وكلف « السير ستافرد كريبس » بإقامة الدعوى على أعضاء اللجنة التنفيذية الخمسة ، وكلهم الآن فى مراكز كبيرة ، متضامنين مع مدير البعثات حيثئذ والمستشار السيامى للسفارة المصرية [ع . ح .] .

وكان أهم ما استند إليه الأستاذ (ق) فى دعواه أن كلمة « تأديبى » تناظر الكلمة الإنجليزية Punitive ، فهى فى رأيه كلمة مهينة فيها قذف وتشهير .

وظلت القضية ثلاث سنين حار فيها القضاء الإنجليزى بصدد ترجمة كلمة

« تأديبي » الواردة في الإعلان ، هل هي Disciplinary أو Punitive وانتدب
لشهادة بعض المصريين من المتخصصين في اللغتين العربية والإنجليزية ، فلم
يجمعوا على رأى ، واختلفت وجهات النظر ، أو بعبارة أخرى ظهر ما لدى كل
فريق من دلالة هامشية إزاء هذه الكلمة . وتحملت الحكومة المصرية آلاف
من الجنبات في هذه القضية العجيبة ، كما تحمل الأستاذ المدعى آلافاً أخرى ،
وانتهت القضية بأن تدخل بعض أعضاء البرلمان الإنجليزى من أصدقاء الطرفين
للتوفيق بين فريقين من المصريين في لندن . وكانت اجتماعات ومداولات
شهدتها حجرة خاصة في البرلمان الإنجليزى ، ثم تصافى الفريقان ، وتنازل الأستاذ
عن قضيته ، دون الاهتمام إلى رأى حاسم قاطع في دلالة كلمة « تأديبي » ١١

من كل ما تقدم نرى كيف تسيطر الدلالة الهامشية على أذهان بعض الناس ،
وكيف تثير بينهم النزاع والشقاق ، وكيف فشلت اللغة في أداء مهمتها حين
استعملت في المجال السياسى أو في فض المنازعات القضائية ، وكيف يمكن أن
تسمى الأشياء بغير أسمائها ، أو يزداد أو ينقص من دلالاتها . وسواء كانت تلك
الدلالة الهامشية سببها الهوى والغرض ، أو عن عقيدة وإيمان ، فهى تصل
اتصالاً وثيقاً بما يسميه علماء النفس بالمعاطفة .

وقد أحس الفلاسفة قديماً وحديثاً بنموض الدلالات ، وأن الألفاظ سرعان
ما تتحكم في تصور الناس للأشياء ، مما ساعد السفسطائيين القدماء على استغلال
ذلك النموض في دلالة الألفاظ ، فتمكّنوا عن طريقه من هدم حقائق العلم
ومبادئ الأخلاق ، بل استقطعوا تأييد موضوع ما ومعارضته في وقت واحد .
ولذا دعا « أرسطو » إلى تحديد معانى الألفاظ ، وتعرف مدلولاتها على وجه
دقيق ، حين كان يناقش موقف السفسطائيين .

ولست تلك الدلالة الهامشية كلها شراً ، فقد تكون سبباً من أسباب المتعة

البنى الإنسان حين يستغلها الأدباء والشعراء الذين لا يقنمون في غالب الأحوال بتلك الدلالات المركزية ، ويعدون ما يقتصر عليها من الأساليب ، أسلوباً علمياً لا يهدف إلا إلى إيصال الحقائق دون زيادة أو مفالة .

فكلمة « الربيع » حين يقتصر في شأنها على الدلالات المركزية تصبح كما يصفها علماء الطبيعة بقولهم مثلاً « الربيع أحد فصول السنة يحل لأسباب طبيعية خاصة وفي شهور معينة وتصحبه خضرة في الأشجار واعتدال في الطقس » ، وإن كان الربيع في رأى الأدب حين يستغل عاطفته ، ويشحن دلالاته بصفات هامشية يصبح شيئاً آخر^(١)

فالدلالة الهامشية هي المسئولة عن روائع الآداب ، وهي التي خلقت علماً يسمى بالنقد الأدبي ، ألفت فيه الكتب ووضعت له الأسس والمقاييس . ويعرض أصحاب النقد العربى إلى ما يسمونه بالذوق العام والذوق الخاص ، ولا شك أن ذلك الذوق الخاص يتأثر إلى حد كبير بما نسميه بالدلالة الهامشية التي تختلف باختلاف الناس ، وتجاربهم وأمزجتهم ، وعواطفهم ، وبيئاتهم .

ويتضح أثر الدلالة الهامشية في تلك الأمثلة الكثيرة التي يسوقها نقاد الأدب في كتبهم ، ولا سيما حين ينصب نقدهم على دلالة لفظ من الألفاظ . وفي كتاب الملوّش للمرزابانى ، والموازنة بين الطائيين للآمدى ، والعمدة لابن رشيق والصناعتين لأبى هلال العسكري ، وأسرار البلاغة للجرجاني ، والمثل السائر لابن الأثير وغيرها ، أمثلة كثيرة نكتفي هنا بمعرض طرف منها لتوضيح أثر الدلالة الهامشية في الحكم على دلالة الألفاظ العربية .

ولسنا في اقتباس هذه الأمثلة القليلة من كتب النقد الأدبي نحاول اقتحام هذا الميدان أو الزج بأنفسنا في مجال الأدب ونقده .

(١) أصول النقد الأدبي للشاذي صفحة ٦٢ .

١ — روى أن الأصمعي كان يعيب على ذي الرمة الشاعر قوله :

نثار إذا ما الروح أبدى عن الوري ونقرى عبيط الشحم والماء جامس

فيقول : إنما يقال للجامد من السمن وما أشبهه جامس !! فدلول كلمة (جامس) في ذهن الأصمعي مقصور على الدهن وما شاكله، والماء المتجمد لا يقال له «جامس». فكيف تمت هذه الصورة في ذهن الأصمعي إلا عن طريق تجاربة مع نصوص أخرى تصادف أن سمها وتأثر بها، وتصادف أن استعملت فيها هذه الكلمة مع السمن والدهن ونحوها من السوائل . ولكن ذا الرمة الشاعر العربي قد تعود مع نفس الكلمة غير ما تعود الأصمعي ، ولعله عرفها في نصوص أخرى وقد استعملت مع الماء ، أو لعله خلع عليها من الدلالة الهامشية ما سمح له بمثل هذا الاستعمال . فكل من الرجلين تجاربه الخاصة ، ومزاجه الخاص ، ولا يشتركان إلا في الدلالة المركبة وهي تجمع السائل ، متخذاً هذا التجمد في ذهن كل منهما صورة معينة ، ولا يقال حينئذ إن أحدهما أصاب وإن الآخر أخطأ ، ولا يصح أن نحمل أحدهما أو غيرها حكماً في مثل هذا الأمر لأن الدلالات الهامشية في أي لغة من اللغات مسألة فردية شخصية لا تكاد تعرض لها المعاجم أو تعنى بها .

فالشاعر يصف قومه بحب الغارات وشنها كلما ثارت حرب بين الناس ، وأنهم في نفس الوقت كرماء يقدمون لضيوفهم أشهى الطعام في أيام الشتاء حين يقل الخير ، ولا يجد الناس ما يسد الرمق .

٢ — وكان الأصمعي أيضاً يعيب قول عدى بن الرقاع :

لهم راية تهدي الجموع كأنها إذا خطرت في ثلب الرمح طائر

فيقول : الراية لا تخطر إنما الخطران للرمح !!

٣ — وعاب النقاد على أبي تمام قوله :

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه بكفيك ما ماريت في أنه ثوب

فيقول أحدهم : ما علمت أحدا من شعراء الجاهلية والإسلام وصف الحلم بالرقّة
وإنما يوصف الحلم بالعظم والرجحان والنقل والرزانة !!

٤ — وعجب أحد النقاد لأن أبا العتاهية مقدم بين الشعراء مع قوله :

رويدك يا إنسان لا أنت تقفز

ورأى هذا الناقد أن كلمة « تقفز » لم تخرج من فم شاعر محسن قط !!

فأى ثأر بين هذا الناقد وهذه الكلمة ، إلا أن تكون قد ارتبطت في ذهنه
بدلالة هامشية خاصة نتيجة تجاربه السابقة ، مما بغضه فيها ، وصور دالاتها في ذهنه
على صورة بغيضة كريهة لا تليق بالشعر والشعراء .

فلما قال : أبو العتاهية في نسييه أو تشبيهه بإحدى الحسان قوله :

إني أعوذ من التي شغفت مني الفؤاد بآية الكرسي

قال الناقد : آية الكرسي يهرب منها الشياطين ، ويحترس بها من الغيلان !!
ولا يخطئ في أذهانهم أن لآية الكرسي دلالة هامشية خاصة في ذهن الشاعر
تختلف عما في أذهانهم ، أو بعبارة أخرى لم يسمحوا للشاعر أن يسبقه من تجاربه
الخاصة ومزاجه الخاص دلالة هامشية لهذه الكلمة تباين ما عندهم .

٥ — ولما حلت قطر الندى بنت مخاريه إلى الخليفة المعتضد وكتب معها
أبوها يذكره بخدمة سلفها ، أمر الخليفة وزيره بالجواب عن الكتاب ، وكلف
الوزير أحد كتّابه بالرد ، فجاب أياها وأتى بنسخة يقول فيها « وأما عن الوديعة
فهي بمنزلة شيء انتقل من يمينك إلى شمالك ، عناية بها وحياطة عليها »

ثم أقبل على الوزير معجبا بحسن ما وقع له من هذا وقال : تسميتي لها بالوديعة
نصف البلاغة !! فقال الوزير ما أفصح هذا ! فقامت لامرأة زفت إلى صاحبها
بالوديعة ، والوديعة مستردة !!

فلكامة الوديمة في ذهن كل من الرجلين دلالة هامشية خاصة تتصل بتجارب كل منهما ، ولذا حسنت في عين أحدهما ، وقبحت في عين الآخر .

ومما تقدم رى أن قدراً غير قليل من أحكام النقد الأدبي مرجعها إلى تلك الدلالة الهامشية التي تختلف باختلاف الأفراد في البيئة الواحدة ، وبمعظم اختلافها باختلاف الناس في البيئات المتباينة . فليست ريح الشمال لدى سكان جزيرة العرب كريح الشمال لدى المصريين ، فهي في شبه الجزيرة ترتبط بالبرد والجذب والعسر ، فهي بفيضة وكريهة لدى سكانها ، ولكنها محببة في مصر تعدّ النوافذ والشبابيك وواجهات البيوت لاستقبالها والتمتع بدسيمها .

في الأدب الحديث :

ولعل من تنمية الفائدة بصدد هذه الدلالة الهامشية أن نسوق هنا مثلاً من الأدب الحديث لسكان كبير هو الأستاذ عباس العقاد ، حين يحدّثنا في مقال ممتع نشر في إحدى الصحف الأسبوعية عن كلمتي السعادة والخير فيقول : أيهما نتمناه لو أعطينا مغاناً ؟ نتمنى الخير أو نتمنى السعادة ؟ وزجو أن نوصف بالأخير أو زجو أن نوصف بالسعداء ؟ بغير حاجة إلى استفتاء خاص أو عام يمكننا أن نجزم بأن السعادة تظفر بأكثر الأصوات في انتخابات الأمنية المشتهة . وبغير حاجة إلى استفتاء على الإطلاق يمكننا أن نقول إننا في الواقع نختار اسماً جذاباً حين نختار السعادة ، وقلما نترث أو نتدبر في حقيقة معناه . « إلى أن يقول » وإذا تصورنا السعادة فصورتها أمامنا صورة فتاة حسناء تتمتع بالحس والنفس وتشمع اللذة والأمل . ولكننا لا نتصور الخير في صورة أنثوية ، وينلب على الخيال أنه يرسم لنا في صورة شيخ جليل مهيب الطلعة طويل الحية ، ولعلنا نتصوره في الصورة الأنثوية ، ونخلع عليه سمات الأمومة التي تتقاضانا الجد والأدب ، ولا ترتضى منا أن نتلقاها باللعب والمزاح . وشتان بين الصورتين . »

« أما بعد الروية فالأمر يختلف . بعد الروية ترجح أصوات الخير على أصوات السعادة في معركة الانتخابات . فالسعادة في تبرير الأكثرين نوبة فرح طافية ، وليس من طبيعة النوبات أن تدوم . ونكاد أن نقول إنها كالطعام الحسن الشهى الذى نستحب مذاقه ، ولكننا نسأمه ونعافه إذا تكرر علينا ولم نذق معه شيئاً يخالفه ، ولو لم يكن مقبول المذاق كما نتمناه . والخير لا سآمة فيه . لأنه حالة تحتوينها ولا نحكم عليها بإحساسنا ، وإنما تعترينا السآمة من جانب الإحساس ... » إلى أن ينتهى من مقاله بقوله : « والشرق إذن أدرى بما يقوله في أعياده وتهنئاته لأنه يقمى لأبناءه الخير كل عام ، ولا يرتضيه أن تكون التهنئة بالعام السعيد » .

تلك هى دلالة السعادة ودلالة الخير عند كاتب كبير جرب من شئون الحياة تجارب كثيرة متنوعة فلما يشركه فيها غيره ، وتثقف بثقافات متباينة منها ما طبع بالطابع العربى الشرقى ، ومنها ما اصطبغ بصبغة أوربية حديثة ، فكان له من مزيج الثقافات ووافر العلم والتجربة شخصيته المميّزة التى لونت مدلول كلمتى السعادة والخير على النحو الآنف الذكر . ولكننا رغم تلك الصورة الممتعة التى صورها لنا الكاتب سنظل نختلف فى دلالة السعادة ودلالة الخير .

وأفراد البيئة اللغوية رغم اختلافهم فى تلك الدلالات الهامشية ، يشتركون فى إحساس لطيف غامض يصعب تحديد مداه ، ولم يفتن له معظم اللغويين ، وهو ما نكتسبه من كثرة تجاربنا مع ألفاظنا ودلالاتها من إمكان التنبؤ بالدلالة أو جزء منها لدى سماع ألفاظ لم نسمعها من قبل ولم نتعلم شيئاً عنها ، وذلك هو ما سميناه بوحى الأصوات .

الفصل السابع

تطور الدلالة

- ١ -

ظاهرة التطور

يدرك دارس اللغة الإنجليزية في مراحلها التاريخية أن كثيراً من الألفاظ قد أصابها مع الزمن تطور وتغير في صورتها حيناً ، وفي دلالتها حيناً آخر . فلم يكذب غير بعد عهد « تشومر » في القرن الرابع عشر الميلادي نحو قرنين ونصف من الزمان حتى ظهر « شكسبير » ، وشهدنا أدبه يتضمن من دلالات الألفاظ ما لم يخطر في ذهن من سبقوه . فكثير من تلك الألفاظ التي ألفها الناس في زمن تشومر - أبو الشعر الإنجليزي كما يسمونه - قد أصبحت تحتاج في عهد شكسبير إلى مترجم أو مفسر لدلالاتها ، رغم أن ما مر بينهما من الزمن يعد قصيراً في تاريخ الأمم . ذلك لأن اللغة الإنجليزية في تلك الفترة قد تركت نهبا للتطور والتغير ، ولم تقيد بقيود تحول بينها وبين ذلك التطور السريع ، بل تركت وشأنها حرة طليقة تصيب حظها الأوفر من الحياة والنمو . وقد كان من الممكن أن يقيم لألفاظ هذه اللغة بعد عهد شكسبير من التطور في دلالاتها مثل الذي حدث بعد تشومر لو لم يستقر الأدب الإنجليزي بعض الاستقرار خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر . فقد عنى علماء اللغة حينئذ بتسجيل آثار شكسبير وروايتها ، هو ومن عاصره أو جاء بعده من الأديباء والشعراء . وبدأوا يثبتون ظواهر اللغة الإنجليزية ، ويحددون من دلالات ألفاظها بعد أن استقر لهذه

الأمة من الوضع السياسى ما جعلها أشهر الأمم فى القرن الثامن عشر أو أقواها، وما جعل أهلها يعتزون بتاريخهم الأدبى وتاريخهم الثقافى .

ومع هذا ورغم هذا تطورت دلالات كثير من الألفاظ ، وأصبح الناس الآن لا يكادون يفهمون ما فى أدب شكسبير من دلالات بعض الألفاظ، ويحتاجون إلى معاجم تاريخية للكشف عنها. وكان لهذا أستاذ الأدب الإنجليزى يحذرنا من تلك الألفاظ. التى نظن أننا نفهم معناها ، ويقول لطلابه إننى لا أخشى عليكم فى أدب شكسبير من تلك الألفاظ الغريبة التى لم تصادفوها فى نصوص أخرى، أو لم تسمعوا بها من قبل ، ولكنى أخشى عليكم من تلك الألفاظ التى لا تزال تشيع بصورتها القديمة فى الأدب الإنجليزى الحديث، والتى يخطر فى أذهانكم لأول وهلة أن دلالتها واضحة مألوفة لكم جميعاً. فهى محط الزلل والخطأ لأن كثير أمتها قد تطورت دلالاته وتغيرت مع الزمن . أما الأولى فأمرها هين لا تكلفكم سوى البحث عنها فى مظانها والوقوف على معناها .

كذلك يدرك دارس اللغة الإنجليزية أن نحو نصف الألفاظ التى استعارتها الإنجليزية من اللغة اللاتينية قد أصبحت ذات دلالات مغايرة لما كانت عليه فى لغتها الأصلية المستعار منها . أى أن تطور الدلالة لا يقتصر على الألفاظ الأصلية فى لغة من اللغات ، بل قد يجاوزها إلى الألفاظ المستعارة من لغة أخرى^(١) .

فتطور الدلالة ظاهرة شائعة فى كل اللغات يلجسها كل دارس لمراحل نمو اللغة وأطوارها التاريخية . وقد يعده المتشائم بمثابة الداء الذى يفسد أن تفر أو تنجو منه الألفاظ ، فى حين أن من يؤمن بحياة اللغة ومسايرتها للزمن ينظر إلى هذا التطور على أنه ظاهرة طبيعية دعت إليها الضرورة الملحة .

ودارس التطور الدلالى فى لغة من اللغات يستعرض أمامه « فيلم » من الأحداث التاريخية لتلك الأمة التى تنكلم بهذه اللغة ، وتلقى دراسته ضوءاً

(1) The Story of Language. p. 144.

قويا على تطور حياتها الاجتماعية ، لأن دلالات ما ننطق به من الفاظ تتضمن كل ما لدينا من فنون وعلوم وحرف ومهن ، وكل مظاهر حياتنا العامة والخاصة . فيحدثنا بعض اللغويين المحدثين أن لقب « القيصر » في اللغة الألمانية Kaiser ، والمعروف في اللغة الروسية في صورة « السار » Tsar ، إنما يعود إلى اسم علم اشتهر به أحد أباطرة الرومان وهو المسمى « بيوليوس قيصر » ، ثم تطورت دلالاته وأصبحت عامة تطلق على كل حاكم عظيم الشأن يحكم إمبراطورية عظيمة . وقد اشتق اسم ذلك الإمبراطور الروماني من فعل لاتيني ومعناه (يقطع أو يشق) ، ذلك لأنه ولد بعد عملية شق البطن فأطلق عليه هذا الاسم ، ولا يزال الأطباء والجراحون يسمونها بالعملية القيصرية Caesarian operation^(١) .

دعنا بعد هذا نستعرض طائفة من الألفاظ الشائعة الآن في لهجات كلامنا نرى إلى أي حد تطورت دلالاتها :

١ - كلمة « بايخ » العامية مألوفة المعنى في لهجات الخطاب ، وقد انحدرت من فعل عربي صحيح قصر استعماله على النار والغضب ، فيقال باخ الرجل أي سكن غضبه ، وباخت النار أي سكنت وفترت .

٢ - كلمة « مبطوح » أي مجروح في رأسه ، اتخذت هذه الدلالة من الفعل الصحيح بطح على وجهه ألقاه ، مما قد يترتب عليه جرح الرأس .

٣ - « البغددة » بمعنى التبدال ، والتي يسكاد يقتصر استعمالها على وصف المرأة ، جاءت إلينا من استعمال قديم هو « تبغدد الرجل أي انتسب إلى بغداد وأهلها » أي أصبح متحضراً راقياً في سلوكه ، لأن نظرهم إلى « بغداد » حينئذ كانت كقنطرة بعضنا الآن إلى المدن الأوروبية .

(1) Bloomfield: Language. p. 429.

٤ - « البهدة » ذات معنى مألوف في لهجات الخطاب يخالف ما كانت عليه في العربية الصحيحة من معنى « الخفة » .

٥ - تقول في خطابنا (بص) بمعنى انظر ، ومعناها القديم هو « بص » برق ولمع وتلألأ .

٦ - « الأرف » نعا ف شيئاً فنقول في خطابنا « إيه الأرف ده » ! .

والمعنى القديم لكلمة « القر ف » هو القهمة ومنه الفعل « قرفت » الرجل أى عبته ووصفته بالميب .

٧ - يقال للطفل حين يكثر بكأؤه أو كلامه « أر » وقد يستعمل للكبير فى استعمالات مألوفة معروفة ، غير أن « القر » بمعناه القديم هو ترديدك الكلام فى أذن الأبكم حتى يفهمه ! .

٨ - يقال للمرء إذا رجع عن رأيه أو تردد « أمحك » والدلالة هنا فيها من المزمز والسخرية ما هو مألوف معروف ، فى حين أن الدلالة القديمة لا تسكاد تتضمن شيئاً من هذا . وذلك أن « المحك » المنازعة فى الكلام والتبادى فى اللجاجة عند المساومة ، وتماحك اليمين والحصان تلاجياً .

٩ - فى لهجات الخطاب فعل مشهور ينطق به « باظ » ومعناه فسد مادياً أو خلقياً ، فإذا نحن أرجعناه إلى الفعل العربى الصحيح « بازبوز » بمعنى زال من مكانه إلى مكان آخر ، أو أرجعناه إلى فعل آخر هو « باظ ببوط » ودلالته تنصل بالعملية الجنسية دون أن تتضمن وصمة أو تجريحاً ، شهدنا فى كلتا الحالين تطور الدلالة .

١٠ - « حرامى » للفس ، هر فى الحقيقة نسبة إلى الحرام ، وتخصصت دلالاته واستعمل بهذه الدلالة الخاصة فى القرن السابع الهجرى فى بعض النصوص المروية ^(١) .

(١) راجع المحكم فى أصول الكلمات العامة ، لأمجد عيسى صفحة ٦٢ .

١١ — « الحريم » في الاستعمال القديم هو الذى حرم منه ، ولكنه اشتهر في لهجات الخطاب بوصف المرأة .

١٢ — « حصان » التى تستعمل في لهجات الخطاب بمعنى الفرس ، هى في الاستعمال القديم وصف لها فيقال « فرس حصان بين التحصن ينفذ صاحبه من الهلاك » .

١٣ — « الخبص » في لهجاتنا بمعنى الكذب والافتراء والنميمة ، وقد يستعملها بعض الناس بمعنى التردد على المواخير ولكنها في المعنى القديم مجرد خلط الشئ بالشئ .

١٤ — « الشنب » في لهجات الخطاب بمعنى الشارب ، وفي الاستعمال القديم ماء ورقة وعذوبة في الأسنان .

١٥ — « السفرة » من حجرة السفرة ، أصل معناها طعام المسافر .

١٦ — بل إن بعض الألفاظ المستعملة من الفارسية قد تطورت دلالتها في لهجات خطابنا :

فكلمة « بشت » كلمة فارسية « پشت » بمعنى العجز والظهر .
وكلمة « فهلوى » كلمة فارسية بمعنى شجاع رياضى مصارع محارب .

أضيف إلى ما تقدم أن « طول اليد » كان وصفاً للسخاء والجود فأصبح الآن يوصف به السارق ، وأن (الطهارة) شاعت الآن في الختان ، وأن (الكباش) عند القدماء هو سيد القوم ، وأن التربة عندهم هى فوهة الجدول من الماء ، وأن الرحمة في القرافات هى الفطير وما شاكله ، وأن الوظيفة معناها القديم أجر العمل ، وأن الذقن في لهجات الخطاب تطلق أيضاً على اللحية . إلى آخر ما هناك من الألفاظ كثيرة تغيرت دلالتها في لهجات الخطاب ، أقول إذا أضيفت تلك الطائفة

من الكلمات وجدنا أنفسنا أمام قدر كبير من الألفاظ التي تبرهن بوضوح على تطور الدلالة مع الزمن ، وهنا يجدر بنا أن نمرض لتلك الظاهرة البلاغية التي سميت في بحوث القدماء « بالحقيقة والمجاز » ، لأنها لا نعدو أن تكون مظهراً من مظاهر التطور في دلالة الألفاظ .

— ٢ —

الحقيقة والمجاز ✓

كثر حديث القدماء عما يسمى الحقيقة والمجاز ، فوصفوا الحقيقة بأنها الدلالة الأصلية للفظ من الألفاظ ، وأن المستول عنها هو الواضع الأول للغة ، كما وصفوا المجاز بأنه ما أريد به غير المعنى الموضوع له في أصل اللغة . وجعلوا كلاماً من الحقيقة والمجاز أقساماً منها اللغوي ومنها الشرعي ومنها العرفي خاصاً أو عاماً^(١) .

ويذكر ابن الأثير^(٢) أن فريقاً من العلماء كانوا يرون أن الكلام كله حقيقة ، وأن آخرين كانوا يزعمون أن كله مجاز ولا حقيقة فيه ، ثم يبرهن في حديث مسهب على فساد هذين المذهبين ، وينتصر للرأى الذى ساد بين الدارسين من جمهور العلماء من أن اللفظ قد يستعمل استعمالاً حقيقياً وقد يستعمل استعمالاً مجازياً .

ويخلص السيوطى تلك المذاهب المختلفة فينسب « لابن فارس » القول بأن أكثر الكلام حقيقة ، وينسب لابن جنى رأياً آخر محمله أن الكلام أكثره مجاز ، ثم ينتهى برأى اسحاق الاسفرايينى وهو من ينسب للمجاز ويأباه^(٣) .

(١) شروح التلخيص ج ٤ ص ٢٤ .

(٢) المثال السائر ص ٢٤ . (٣) الزهر ج ١ ص ٢٠٧ .

و نحن في بحثنا هذا للدلالة الحقيقية أو للدلالة المجازية لا نعرض لتلك الناحية البلاغية ، فلا نسلك مثلاً مسالك القدماء حين كانوا لا يذكرون شيئاً من المجاز إلا قالوا أنه أبلغ من الحقيقة ، وحين كانوا يلتزمون في المجاز عقاصر بلاغية أو جمالية أولى بها مجال النقد الأدبي . ولكننا ننظر إلى ما يسمى بالحقيقة والمجاز على أنه مظهر للتطور الدلالي في كل لغة من اللغات .

وأبرز نواحي الضعف في علاج القدماء للحقيقة والمجاز أنهم وجهوا كل عنايتهم إلى نقطة البدء في الدلالة ، وركزوا نظرتهم نحو نشأتها ، فتصوروا ما سموه بالوضع الأول ، وتحدثوا عن الوضع الأصلي ، كأنما قد تم هذا الوضع في زمن متعين ، وفي عصر خاص من عصور التاريخ . ولم يدركوا أن حديثهم عن نشأة الدلالات ليس في الحقيقة إلا خوضاً في الفسأة اللغوية للإنسان ، تلك التي أصبحت من مباحث ما وراء الطبيعة ، والتي هجرها اللغويون المحدثون بعد أن يتسوا من إمكان الوصول في شأنها إلى رأى علمي مرجح ، وأصبحوا الآن يفتنون ببحث اللغة وتطورها في العصور التاريخية ، التي خلفت لنا آثاراً لغوية مدونة أو منقوشة .

كذلك يبدو من بحوث القدماء من علماء العربية أنهم نظروا إلى كل عصور اللغة على أنها عصر واحد ، ومن هنا ظهرت بعض الألفاظ على أنها حقيقة بعد أن شاع أمرها وتنوسيت مجازيتها فقال من قال إن الكلام كله حقيقة ، وتبين لآخرين من العلماء أن معظم الألفاظ لها تاريخ مجازي ، فخيّل إليهم أن كل الألفاظ تبدأ مجازية الدلالة وأن لا حقيقة فيها . وكان كذلك الفريق الثالث وهم جمهور العلماء الذين اعترفوا بكل من الحقيقة والمجاز على أساس الأصالة والفرعية في دلالة اللفظ .

وبحوث القدماء على استفاضة ودقتها وحسن عرضها قد تجاهلت أمراً هاماً هو في الواقع الأساس الأول للحكم على الدلالة ، ذلك هو أثرها في الفرد حين يسمع اللفظ أو يقرؤه ، فهو وحده الذي يستطيع الحكم على الحقيقة والمجاز .

ذلك لأن الحقيقة لا تعدو أن تكون استعمالاً شائعاً مألوفاً للفظ من الألفاظ ، وليس المجاز إلا انحرافاً عن ذلك المألوف الشائع ، وشرطه أن يشير في ذهن السامع أو القارئ دهشة أو غرابة أو طرافة . وحدود تلك الغرابة أو الطرافة تختلف باختلاف تجارب المرء مع الألفاظ ، وباختلاف وسطه الاجتماعي أو الثقافي ، فقد تضعف تلك الغرابة أو الطرافة في ذهن السامع إزاء استعمال أحد الألفاظ ، ويوشك اللفظ حينئذ أن يكون كالحقيقة رغم انحرافه عن المألوف الشائع ، وقد تقوى فتتحرك من السامع مشاعره وعواطفه فتتال إعجابه أو سخريته على حد سواء ، لأنه مجاز في كلتا الحالتين ، أو خروج عن المألوف المعروف في دلالة اللفظ .

فنجن مثلاً حين نقرأ ما يروى عن العظيم عيسى بن الملك العادل حين قال في صفة مشروب يعالج به داء الذنوب :

[شراب مركب نافع ، لشاربه يوم الفزع الأكبر شافع ، يؤخذ من مستحكم مرير الصبر ، وما أحلولى من لذيق الذكر ، فيغربلان بغربال التفكر السهرى ، ويدافان بماء العين النظرى ، ثم يصفى المجموع بلباب العلم التجردى ، ثم يمجن بمسل الهبة الإلهية] .

أقول إن المرء عادة حين يقرأ مثل هذه القطعة لا يكاد يتألمك نفسه من الابتسام أو الضحك ، لأن ما يشير استعمال ألفاظها قد جاوز الحدود المألوفة لها مجاوزة كبيرة ، جعلت من المجاز فكاهة وسخرية ، ومع ذلك فقد يقف الصوفى من مثل هذه القطعة موقفاً مبيناً ، فيتبين فيها نواحي من الجمال ، وتحل من نفسه ومن قلبه محل الرضا والإعجاب .

ومن خلال هذه النظرة الفردية للألفاظ يستطيع الباحث أن يتبين ما يمكن أن يسمى بالحقيقة العامة أو المجاز العام في بيئة معينة ، وفي جيل معين من الناس . ورغم اختلاف الأفراد إزاء كل لفظ نرى قدراً كبيراً من الاشتراك بينهم ، وذلك القدر المشترك في فهم الدلالات هو الذى يكون الحقيقة العامة أو المجاز العام .

فهناك لفظ مجازى لدى فلان من الناس بلغت به المجازية حدود الإسراف ، وأوشكت أن تصبح هزواً وسخرية ، ولكنه لدى آخر من نفس البيئة معتدل المجازية لا إسراف فيه ولا مغالاة . وإذا تتبعنا هذا اللفظ لدى مجموعة كبيرة من الأفراد فقد نراهم جميعاً يشتركون إزاء اللفظ . في قدر من المجازية ، ولا يختلفون إلا في نسبتها أو درجتها ، ويقال حينئذ إن مثل هذا اللفظ من المجاز العام في تلك البيئة . وهو وأمثاله من الألفاظ المسئول عما يسمى بالمجاز في لغة من اللغات . ومثل هذا يمكن أن يقال عن الألفاظ الحقيقية الدلالة .

فاللفظ قد يشيع استعماله في جيل من الأجيال للدلالة على أمر معين ، وكما ذكر اللفظ. خطرت نفس الدلالة في الأذهان دون غرابة أو دهشة ، وهو من أجل هذا مما يسمى بالحقيقة . فإذا انحرف به الاستعمال في مجال آخر ، فأنار في ذهن غرابة أو طرافة قيل حينئذ إنه من المجاز . وتلزمه تلك الغرابة أو الطرافة في الاستعمال زمنياً ما بعده قد يفقدها ، ويصبح من الألفاظ والذويع بحيث تنسى مجازيته ويصير من الحقيقة .

وينحرف الناس عادة باللفظ من مجاله المألوف إلى آخر غير مألوف حين تموزم الحاجة في التعبير ، وتتراحم المعاني في أذهانهم أو التجارب في حياتهم ، ثم لا يسمعون ما ادخروه من اللفاظ ، وما تملوه من كلمات افهمنا قد يلجئون إلى تلك الذخيرة اللفظية المألوفة ، مستعينين بها على التعبير عن تجاربهم الجديدة لأدنى ملائمة أو مشابهة أو علاقة بين القديم والجديد .

وتظل هذه الظاهرة تلازمنا طول الحياة ، إذ يلجأ الطفل الصغير إلى ذلك المجاز الضروري ، كما يلجأ إليه الكبير . فالطفل قد يرى ثقباً في رأس الأبرة التي بيد أمه وهي تحيط له الثياب ، فلا يتردد في أن يقول « عين الإبرة صغيرة » . أى أنه عمد إلى لفظ مألوف له منذ كان لا يستطيع النطق بكلمة واحدة من لغة أبويه ، وانحرف به عن ذلك المجال المألوف حين دعت الضرورة إلى ذلك .

وكذلك الكبير قد يرى الراديو للمرة الأولى ، ثم يشهد من بحـربه أمامه فلا يتردد في التساؤل عن « الزر » الخاص بعلو الصوت أو انخفاضه ، وعن « الزر » الخاص بتغيير الموجات ، أى أنه ينتقل بكلمة « الزر » من مجالها المألوف الى آخر جديد .

وقد لا تدعو الضرورة إلى مثل ذلك الانحراف بالألفاظ ، ومع هذا ورغم هذا يلجأ كثير من الناس فى حياتهم العادية إلى الخروج بالألفاظ عن مألفها رغبة فى التغيير ، وفراراً من الاستعمال الشائع وما قد يصاحبه من ملل أو سأم ، رغبة فى زيادة التوضيح والتجلية للدلالة . ويتم كل هذا فى حياة الناس العادية ، ومنه يتكون نوع من المجاز الذى لا ينتمى إلى فرد معين بقدر ما ينتمى إلى بيئة معينة أو وسط معين خاص .

وتظل الألسنة والأسماع تتلقفه حتى يذيع وبشيع ويصبح من المألوف أو مما يسمى بالحقيقة .

وهناك نوع آخر من المجاز يتميز بالطرافة ، وبصادف من جمهور الناس الإعجاب ، ويفتار إليه على أنه نوع من الابتكار والاختراع ، وذلك هو ما تتفق عنه قرائح الأدباء والشعراء والصفوة من أصحاب البلاغة واللسن ، حين يعتمدون إلى الألفاظ فيجحفون بها عن عمد وقصد إلى مجال آخر ، وتلك هى الصفة التى يتنافس فيها أصحاب الشعر والأدباء ، وتقاس بها مهارتهم وقدرتهم . ويظل هذا الاستعمال الأدبى محل الإعجاب والثناء زمناً أطول ، ولكن مصيره مع هذا إلى الشيوع والألفة فى زمن ما عنده يصبح من الحقيقة ، ويفقد ما لازمه من الطرافة والجدة ، وراه قديماً بالياً فى عصر من العصور .

ولا يكون الحكم صحيحاً على الحقيقة والمجاز فى الألفاظ إلا إذا اقتصر على بيئة معينة وجيل خاص ، فالمجاز القديم مصيره إلى الحقيقة ، والحقيقة القديمة قد يكون مصيرها إلى الزوال والاندثار ، وتبقى الألفاظ إذا قدر لها البقاء تنقل

من مجال إلى آخر جيلا بعد جيل ، وذلك هو التطور الدلالي . فكثير من الدلالات التي كانت سائدة شائعة في العصر الجاهلي قد أصابها البلى ، ولم نعد نراها إلا في المعاجم كرموز متحفية تشبه ما نراه في المتاحف من قطع خزفية لم تعد صالحة للاستعمال . أى أن أسمى درجات الجدة والطرافة في الاستعمال هو ما يسمى بالمجاز ، ثم تنقلص تلك الجملة مع الزمن ويؤول أمرها إلى الألفة والذبوع ، وتصبح ما نسميه بالحقيقة التي قد ينتهي أمرها إلى الاندثار والزوال بتطور الحياة الاجتماعية للإنسان .

تلك هي الظاهرة التي جملها أو تجاهلها الرغشري حين عرض للحقيقة والمجاز في معجمه أساس البلاغة . ففي رأيه أن « الكتابة والقراءة ، والخلق والهجاء » كلها من المجاز ، ويقول إن الدلالة الحقيقية للفعل « كتب » هو في مثل « كتب السقاء أى خرزه بسيرين » أى بمعنى الضم والجمع ، أما الكتابة المألوفة فدلالاتها مجازية ، وكان أيضاً يقول إن الدلالة الحقيقية للقراءة هي الجمع والضم ، وإن الدلالة الحقيقية للفعل « خلق » هي التي في مثل [خلق الخـذاء الأديم والخياط الثوب قدره قبل القطع] ، « ومن المجاز خلق الله الخلق » !! وكان يزعم أن معنى « هجا الحروف يهجوها عددها ، ومنها عن طريق المجاز [الهجاء بمعنى تعدد المعانيب] !!

هو إذن يفترض أن العرب قد عرفوا من « الكتابة » خرز السقاء قبل أن يعرفوها بمدلولها الشائع الآن ، وتلك قضية ليس من اليسير البرهنة عليها حتى مع علمنا بشيوع الأمية لدى العرب القدماء . ومع هذا فإذا سلمنا جدلاً بصحة تلك الأصول والفرعية في دلالة « الكتابة » ، فن الواجب ألا يفوتنا أن الدلالة الحقيقية قد تعدد ، أى أن اللفظ ينحرف من مجاله الحقيقي إلى مجال مجازي ثم يشيع ذلك المجاز حتى يصبح مألوفاً ، ويدد حينئذ من الحقيقة ، وتظل تلك الدلالة القديمة ملازمة للفظ في حدود ضيقة ، ويكون للفظ دالتان أو استعمالان

وكلاهما من الحقيقة ، غير أن إحدى الداللتين تكون أكثر شيوعاً من الأخرى ، بل قد يصل الأمر إلى أن تصبح الدلالة القديمة من القدرة وقلة الاستعمال بحيث تسترعى الانتباه ، وتكاد تعد بمثابة المجاز حين تقارن بالدلالة الجديدة الشائعة المألوفة . . ومثلهما حيثئذ كمثل الشيخ والشاب كلاهما معروف موجود في بيئته غير أن أحدهما في طريقه إلى الزوال والآخر في عطفوانه . ومن النادر أن يكون للفظ الواحد داللتان مشهورتان بنفس النسبة في وسط من الأوساط .

الفصل الثامن

عوامل التطور في الدلالة

رأينا آنفاً كيف أن كثيراً من ألفاظ اللغات تتطور دلالتها بمرور السنين وتوالى العصور . ویمیننا هنا البحث عن أسباب ذلك التطور الدلالي أو عوامله ، فنراها ذات شطرين ، منها تطور لاشعوري يتم في كل لغة ، وفي كل بيئة ، ثم لا يفتن إليه إلا بعد المقارنة بين عصور اللغة . ومنها ذلك المقصود المتعمد الذي يقوم به المهرة في صناعة الكلام ، أو تقوم به المجامع اللغوية ، لهدف ما أو لآخر . وهذا التطور المقصود المتعمد أقل أثراً في اللغات بوجه عام ، ويمدّ من تطور الطفرة في دلالة الألفاظ ، ولذا قد نراه في الجيل الواحد من الناس ، ويشهده المرء خلال حياته القصيرة . ويمكن أن نغزو التطور الدلالي إلى عاملين أساسيين لكل منهما عناصره ومقوماته :

- ١ -

الاستعمال

ذلك لأن الألفاظ لم تخلق لتحبس في خزائن من الزجاج أو البلور ، فيراها الناس من وراء تلك الخزائن ، ثم يكتفون بتلك الرؤية العابرة ! ! ولو أنها كانت كذلك لبقيت على حالها جيلاً بعد جيل دون تميز أو تحول ، ولكنها وجدت ليتداولها الناس ، وليتبادلوا بها في حياتهم الاجتماعية ، كما يتبادلون بالعملة والسلع . غير أن التبادل بها يكون عن طريق الأذهان والنفوس تلك التي تتباين بين أفراد الجيل الواحد والبيئة الواحدة ، في التجربة والذكاء ، وتشكل وتشكيف الدلالة تبعاً لها . ومع اشتراك الناس في ناحيتها المركزية تراهم يختلفون في حدودها

الهامشية وفي ظلالها ، وما يكتنفها من ظروف وملابسات تغير كل يوم ، وتتنوع بتنوع التجارب والأحداث . فإذا ورثتها الأجيال الفاشئة وأخذتها أيضاً للتعامل والتبادل لم ترثها على حالها الأولى ، بل ترثها مع بعض الانحراف في الدلالة ، ثم يتضخم ذلك الانحراف على توالى الأجيال .

وأوضح عناصر هذا العامل الرئيسي يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ - سوء الفهم :

وتلك تجربة قد يمر بها كل منا ، حين يسمع اللفظ للمرة الأولى فيسـيء فهمه ، ويوحى إلى ذهنه دلالة غريبة لا تسـكاد تمت إلى ما في ذهن المتكلم بأية صلة . ثم قد لا تنحصر لهذا السامع فرص أخرى لتصحيح خطئه ويبقى اللفظ في ذهنه مرتبطاً بتلك الدلالة الجديدة . وليس من غير الشائع أن تتم هذه الظاهرة بين عدد من الأفراد كلهم يسيئون فهم الدلالة بطريقة واحدة ، ويتجهون في فهمها اتجاه واحد ، مما يساعد على تطور اللفظ تطوراً مفاجئاً يرثه الجيل الناشئ ويركن إليه . ورب إشارة من يد في أثناء الكلام ، أو غمزة من عين ، أو أى حادث طارئ عارض يكتنف الكلام ، فيؤثر في دلالة اللفظ ، وينحرف به عن مسراه المألوف نحو آخر بعيد عنه كل البعد . رغم أن تلك الإشارة ، أو ذلك الحادث لم يكن مقصوداً متعمداً ، ولم يكن مما تتطلبه الدلالة للإيضاح أو البيان ، بل إن المصادفة البهتة هي التي ربطت بينهما ، فأدت إلى ذلك التطور أو التفسير في الفهم .

ويتم مثل هذا التغير الفجائي عادة في البيئات البدائية ، وحيث الانزوال بين أفراد الجيل الناشئ وجيل الكبار . ثم تسود تلك الدلالة الجديدة ، ويحير الدارس في شأنها ، فلا يستطيع لها تعليلاً ، ولا يقدر على الكشف عن ظروفها . وليس من الضروري حينئذ أن تفدثر الدلالة الأصلية ، أو أن تفنى من الوجود ،

بل قد تبقى جنباً إلى جنب مع تلك الدلالة الجديدة ، ويحيل للناس بعد ذلك أن
للفظ دالتين مستقلتين ، وأنه من الممكن استعماله في هذه أو في تلك . وهنا ينشأ
في اللغة ما يسمى بالمشترك اللفظي في صورته الأصلية الحتمية .

وبغير أن نسلم بإمكان وقوع هــ هذا الانحراف الفجائي ، لا نستطيع تفسير
تلك الألفاظ العربية الكثيرة التي نرى كلا منها يعبر عن دلالات متباينة لا ارتباط
بينها ولا وجه شبه . فحين تؤكد لنا المعاجم العربية أن كلمة « الأرض » تعني
الكوكب المعروف ، وتعني أيضاً « الزكام » ، وحين يقال لنا إن كلمة « الليث »
هي الأسد وهي أيضاً « العنكبوت » ، لا نكاد نجد تفسيراً معقولاً إلا بالاتجاه
إلى تلك الطفرة الدلالية .

وقد يروى للفظ الواحد عدة دلالات يتناولها الشعراء أو الناظمون ،
فيجمعون بينها في أبيات من الشعر ، ويستدلون بها على بعد تلك الدلالات
المتباينة بعضها عن بعض . فكلمة « الغروب » مفردة أو جمعاً ذات دلالات
ثلاث جمعها بعض الناظرين في قوله :

يا ويح قلبي من دواعي الهوى	إذ رحل الجيران عند الغروب
أبعتهم طرفي وقد أزمعوا	ودمع عيني كفيض الغروب
بانوا وفيهم طفلة حرة	تفتر عن مثل أقالحي الغروب

فالغروب في البيت الأول لوقت المغرب ، وفي الثاني الملاء جمع دلو ، وفي
الثالث للوهاد المنخفضة .

وكثيراً ما يساعد على حدوث هذه الطفرة الدلالية أن اللفظ قد يكون قليل
الشيوع ، أو يقتصر استعماله على أساليب معينة ، ولا يقع في تجارب كثيرة ،
فتصاب دلالاته بشيء من الغموض ، ويصبح أكثر تعرضاً إلى الانحراف في
الدلالة من الألفاظ الأخرى .

وليس سوء الفهم في الحقيقة إلا نتيجة تلك العملية الذهنية التي تسمى بالقياس الخاطيء ، والتي تلازم كلاً منها في مراحل الحياة ، فقد تتم بين الأطفال كما تتم بين الكبار . ذلك لأننا كثيراً ما نعتمد في فهم ما نسمع أو نقرأ من ألفاظ جديدة على ما سبق لنا سماعه واختراجه من ذخيرة لفظية ، وما سبق أن تلقيناه عن طريق المشاهدة ، وما تعلمناه من لغة أهلينا . فيقوم كل منا باستنباط الجديد على أساس القديم ، ولا يلجأ في استنباطه إلى غيره من الناس بل يحاول الكشف عنه بنفسه ، لأن تجارب الحياة كثيرة جداً ومتشعبة جداً ، وليس من الممكن أن تتاح الفرصة للفرد ليتلقى أو يشافه غيره في كل تجربة ، وليس من الممكن أن يجد المرء في كل ظرف من يساعده على الفهم ويوضح له الدلالة . ولذلك لا يرى مفرّاً في بعض الظروف من الاعتماد على نفسه ، ومن القيام بتلك العملية الذهنية القياسية ، فيقيس ما لم يعرف على ما عرف من قبل ويستنبط على أساس هذا القياس ، فيصيب في استنباطه حيناً ويصل إلى الدلالة الصحيحة ، ويخطيء حيناً آخر فيستخرج دلالة جديدة قد تصادف الشيوخ والذيوخ بين الناس . ولا يتوقف المرء عن الكلام بكل جديد قبل سماعه من غيره وقبل تلقيه عنه ، بل تحتم عليه ضرورة الاتصال بمجتمعه ، والتعاون مع أفراداه ، أن يتكلم وأن يظل يتكلم ما بقيت فيه الحياة .

فالأطفال وهم يمشون بالأعيهم قد يقابلون جزءاً من أجزاء إحدى اللعب ويرون أهميته ، ويدركون وظيفته ، وهم مع هذا لم يسموا له اسماً ، ولم يلقنوا له لفظاً . وهنا نراهم لا ينصرفون عن لعبهم بغية السؤال عن هذا الاسم ، ولا يترددون في استنباط اسم له غير المؤلف لدى أهلهم فيسمون « الفرملة » مثلاً بالوقافة ، ويقال حينئذ إن عمالية ذهنية قد تمت فأنتجت ذلك القياس الخاطيء ، وأنتجت معه لفظاً لم يسمعه الطفل ممن حوله ، بل استخرجه بنفسه قياساً على ما سمع وعرف من قبل .

وكذلك الكبير قد يجلس وحده يقرأ في كتاب ما ، ثم تصادفه كلمة لم يسمها من قبل فيحاول استنباط دلالتها ، وقد يصيب ، وقد يخطئ . وليس بين الناس من يتحرج في استنباط الدلالات ، أو يجلس إلى القراءة وعن يمينه معجم من المعاجم وعن يساره أستاذ عالم مطلع ، ليستعين بهذا أو بذلك في كل ما يمنّ له من ألفاظ جديدة !! .

ويفسر لنا القياس الخطأ تلك الأخطاء التي نشهدها بين الطلاب والتلاميذ ، حين نراهم ينحرفون بمعنى كلمة « العقيد » إلى معنى « العتيق » ، وحين يظنون أن « المستشفى » أو « الرأس » كلمة مؤنثة .

٢ - بلى الألفاظ :

أما المفصر الثانى للاستعمال فنراه حين يصيب اللفظ بعض التغير في الصورة ويصادف بعد ذلك أن يشبه لفظاً آخر في صورته ، فتختلط الدالتان ، ويصبح اللفظ مما يسمى بالمشتراك اللفظى . فتطور « السين » في كلمة مثل « السفين » إلى حرف مناظر لها في المخرج والهمس « كالتاء » ينتج لنا صورة جديدة للكلمة غائلة تمام المائلة كلمة أخرى موجودة فعلاً وتسمى « الدرن والوسخ » وهى كلمة « الثقب » . ويترتب على هذا التطور الصوتى تطور دلالى هو أن يصبح للفظ الواحد أكثر من دلالة واحدة .

دعنا نتجول قليلاً مع كلمة « القماش » المألوفة لنا الآن والتي تحمل من نفوسنا حل الاحترام والاهتمام لاسيما حين نفسيها إلى الحرير أو الصوف ونقول الأقمشة الحريرية والأقمشة الصوفية ! هذه الكلمة نبحت عنها في معجم الفيروزبادى فلا نراه يذكر لها من المعانى إلا « القماش أراذل الناس ، والقماش ما وقع على الأرض من فئات الأشياء » ! ! غير أن الجوهرى يذكر أيضاً أن من معانى « القماش » متاع البيت ؟ !

وأيا ما كانت دلالة هذه الكلمة على حسب ما جاء في المااجم العربية القديمة ، لا ندرى كيف تطورت تلك الدلالة حتى صارت على النحو المؤلف لنا الآن . وإذا صح ما يرويه بعض الدارسين ^(١) للألفاظ الدخيلة من أن هذه الكلمة مأخوذة من كلمة فارسية هي « كائن » بمعنى نسيج من قطن خشن ، تكون الكلمة العربية الأصلية قد نطقت قافها « جافا أو كافا » لسبب أو لآخر ، فأشبهت الكلمة الفارسية ، وانصرفت دلالتها إلى الدلالة الفارسية بمعنى النسيج .

كذلك أغلب الظن أن الذي ساعد كلمة « الخيشوم » التي تعنى الأنف إلى أن تتطور فتصير في لهجات الكلام الآن بمعنى « الفم » أن صورتها قد أصابها بعض البلى فاختصرت إلى « الخشم » .

فكثيراً ما تتطور صور الكلمات ، ويترتب على هذا التطور تغير أو تطور في الدلالة . وقد يصل التطور في الصورة مداه ، فتندثر الكلمة وتفى من الاستعمال ، لا سيما إذا كانت قصيرة البنية . وبهذا يحدثنا فندريس فيؤكد لنا أن كلمة « os » اللاتينية التي معناها « الفم » قد اندثرت من اللغات الأوروبية الحديثة التي انحدرت عن اللغة اللاتينية ^(٢) .

٣ - الابتذال

العنصر الثالث للاستعمال هو « الابتذال » الذي يصيب بعض الألفاظ في كل لغة من اللغات لأسباب منها السيامى ومنها الاجتماعى ومنها العاطفى .

(١) فنحن حين نتذكر أن بعض الظروف السياسية ، قد تتطلب الخط من ألقاب ورتب اجتماعية ندرك السبب في ازواء بعض الألفاظ التي تعبر عنها

(١) القس طويبا المنيسى الحلبي اللبناني في كتابه تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية

سنة ١٩٣٢ .

(٢) اللغة من ٢٧٢ .

من اللغة . ولعل أقرب مثل لهذا هو إلقاء الألقاب والرتب في مصر ، فانزوت كلمات مثل (باشا ، بك ، أفندى) ، وغيرها من ألقاب تركية مرت بها تطورات في دلالتها ، وانحط قدرها على توالى الأيام ، وصارت كلمة « أفندى » في آخر عهدها ذات قدر تافه ، وأصبحت أقل الرتب بعد أن كان لها خلال القرن التاسع عشر مركز هام ومكان مرموق .

ويحدثنا بعض الباحثين عن كلمة « الوزير » العربية التي أصبحت في الأسبانية لا تعنى أكثر من « الشرطى » ، وفي الإيطالية « مساعد عشماوى » ^(١) .

ومثل هذا يمكن أن يقال عن كلمة « الحاجب » التي كانت تعنى فى الدولة الأندلسية « رئيس الوزراء » ، ثم صارت على النحو المألوف الآن .

ويترتب على هذا الابتذال عادة أن تفقد الدلالة ، أو أن تنزوى الكلمة وتندثر ، فلا تجرى على الألسنة ، ولا ترد فى الاستعمال . وكان بعض علماء العربية بشيرون فى ثفايا كتبهم إلى هذا الابتذال إشارة عابرة لدى الحديث عن بعض الألفاظ دون عناية بظروفه أو أسبابه ، كأن يقولوا مثلاً إن كلمة « خش » بمعنى « دخل » كلمة مبتذلة رغم أنها عربية صحيحة . وقد اكتفوا بقتبع بعض الألفاظ التي جرت كثيراً على ألسن العامة والجهلة أو السفلة من القوم ووصفوها بهذا الوصف .

(ب) ولعل أوضح الأسباب فى ابتذال بعض الألفاظ ، تلك التي تفصل بالناحية النفسية العاطفية ، وذلك كأن يكون اللفظ قبيح الدلالة ، أو يتصل بالقذارة والدنس ، أو يرتبط بالفرية الجنسية . فهنا نلاحظ أن كل اللغات تفقد بعضاً من ألفاظها التي تعبر عن هذه النواحي ، فتندثر تلك الألفاظ أو تنزوى ، ويحل محلها لفظ آخر أقل وضوحاً فى دلالاته ، وأكثر غموضاً أو تعمية .

فالشقائم والسباب ألفاظ شاء لها التقدر أن تسكتنف بظروف اجتماعية جعلت منها ألفاظاً قبيحة الدلالة ، بنهيضة إلى السمع واللسان . ولذلك كثيراً ما تعرض للانزواء أو الاندثار .

وكذلك الألفاظ التي ترتبط بالقذارة والنجس تظل على شيوخها حيناً من الدهر ، بعده تصبح مبتذلة ، وتزوى أو تندثر من الاستعمال . خذ مثلاً كلمة « البربور » التي أصبحت الآن قبيحة مبتذلة ، والتي انزوت في استعمالها ، فلا نكاد نسمعها إلا بين العامة ، أو الوسط الخاص حيث تزول الكلفة بين البرء ولداته ، وفي مجال الفكاهة والدعابة بصفة خاصة . هذه الكلمة إذا صح أنها انحدرت من الكلمة العربية الصحيحة التي ترد في المعاجم وهي : [البربور بمعنى الحشيش من البر ، والبربرة صوت الماعز وكثرة الكلام والجلبة والصياح] ، أقول إذا صح أنها انحدرت من هذه الدلالة لوجه الشبه بين المخاط والبر الجشوش ، ولأنه يصدر من الأنف مع صوت كصوت الماعز ، أو عند كثرة الكلام والصياح ، تكون الكلمة حينئذ قد أصابها من سوء الحظ ما أصابها ، فاشتهرت أولاً في المعنى العامي المألوف ، ثم ابتذلت أكثر استعمالاً ، وأصبحنا نستعيز عنها بكلمة أخرى هي المخاط . ولعل فيما ورد بمعجم الفيروز بادى من قوله : [والبرابر طعام يتخذ من فريك السنبيل والحليب] ما يؤيد أن الدلالة العامة المألوفة لهذا اللفظ قد انحدرت عن أصل عربي ثم ابتذلت .

وكذلك حين يقارن بين كلمتين عربيتين بمعنى واحد ما [المدة والصديد] نرى أن الأولى أصبحت الآن مبتذلة ، وأوشكت على الانزواء من الاستعمال ، ويحل محلها الآن كلمة « الصديد » التي لا تزال تحتفظ بقدر من الاحترام والاحتشام في الوسط الاجتماعي .

ومن الألفاظ الدائمة التطور والتغير في دلالتها تلك التي تشير إلى التبول والتبرز فلا يكاد اللفظ منها يشيع حتى يعجه الذوق الاجتماعي ، وتأباه الآداب

العامة فيستعاض عنه بآخر من نفس اللغة أو من لغة أجنبية . . . ويكفى لتوضيح هذا أن نستعرض الألفاظ الآتية :

الكنيف ، الششمة (كلمة فارسية) ، الكرسي ، المستراح ، بيت الراحة ، بيت الأدب ، الرحاض ، السكايفيه (كلمة أوردية) .

فإذا عرضت اللغات للناحية الجنسية وما يتصل بها رأينا التطور الدلالي أسرع ، وشهدنا أن الكناية والتعمية مطلوبة مستحبة . فلا أعضاء التناسل في كل لغة كلمات مبتذلة وأخرى محترمة ، وللعملية الجنسية في كل لغة كلمات مفضوحة يفر منها الناس ، وأخرى معماة مكنية يقبلون عليها .

وكذلك كل ما يتعلق بالزنا أو هتك العرض أو العريضة ، بل بلغ الأمر ببعض اللغات أن أصبحت تسكنى عن أسماء الزوجة ، وعن الملابس الداخلية للإنسان ، مما هو معروف شائع . وقد كنى القرآن الكريم عن العملية الجنسية بألفاظ كريهة هي : السر ، الحرث ، والإفشاء ، والمباشرة ، والملاسة ، والدخول ، الرفث : « نساؤكم حرث لكم » ، (من نسائكم اللاتي دخلتم بهن) « أولامستم النساء » ، « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » ، « فالآن باشروهن في المضاجع » ، « وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض » ، « ولكن لا تواعدوهن سرا » ، « فتحرير رقبة من قبل أن يماسا » .

وتسكنى عنها العامة بالنوم ، والاستحمام ، والاجتماع ، وأصبحوا يتحاشون كلمة « النكاح » التي لم تكن تعنى سوى الزواج ، ثم ارتبطت في أذهان العامة بالعملية الجنسية ارتباطاً وثيقاً ، وقد كانت لاتستعمل فيها إلا عن طريق الكناية المقبولة لدى العرب القدماء .

(جـ) ومن أوضح الألفاظ التي نستعين منها الضعف الإنساني تلك التي تتصل من قريب أو بعيد « بالموت والأمراض » ، أو بالأشباح والعالم الروحي .

فهى ألفاظ تثير الخوف والهلج فى نفوس البشر ، فينفرون من سماعها ، ويقفادون ذكرها ، فراراً مما تبعته فى الأذهان من كوارث أو مصائب أو آلام .

وتعرض الألفاظ التى تعبر عن هذه النواحي إلى التغير الدائم ، والتطور السريع ، فمنها ما يندثر غير تارك بعده أثراً ، ومنها ما ينزوى ويصبح نادر الاستعمال . وفى كلتا الحالتين نرى الناس يستعينون عن تلك الألفاظ بأخرى تمت إليها بسبب من الأسباب ، وتعب عن نفس الدلالات فى أناة ورفق لا يفزع منها السامع أو يفسد ، لأنها تغطى الدلالة بغلالة رقيقة تقلل من وضوحها ، وتحد من تأثيرها فى الأذهان .

وتقوى هذه الظاهرة فى البيئات البدائية ، حيث يلعب التفاؤل والتشاؤم والتطير دوراً خطيراً فى حياة الناس ، ولكن أثرها يبدو فى كل لغة ، وفى كل مكان أو زمان .

فكلمة « الهلاك » لم تكن تعنى فى الاشتقاق السامى القديم سوى مجرد « الذهاب » ، ولا تزال تحتفظ بهذه الدلالة فى اللغة العبرية ، ولسكنها فى العربية تطورت وحلت محل « الموت » التى اكتسبت قدراً كبيراً من قوة الدلالة ووضوحها حتى أصبح من الضروري البحث عن غيرها فكان أن وجدت كلمة « الذهاب » التى كنى بها عن الموت ، كما وجد ذلك الاستعمال المعروف « نوفى » ، أو « فاضت روحه » ، أو « انتهى » ، أو غير ذلك من ألفاظ أقل شيوعاً وأقل أثراً فى النفوس .

وليس منا من لا يعلم مسلك الناس فى الأرياف إزاء أسماء الأمراض وتكفيتهم عنها بأخرى خيرة الدلالة ، فالجنى لديهم قد تسمى « بالمبروكة » أو لا يكون لها اسم معين ، بل يسكتون بالإشارة إليها بذلك التعبير السامى « اللى ما تسمى » ! .

ولأسماء العفاريات والجن والشياطين رموز أخرى مكنية أو معصاة ، ولأسماء
الهوام والحشرات السامة كغنايات تشير إليها إشارة بعيدة تفاديا لشرها وسمومها .

وسرّ كل تلك التكنية أو التعمية هو ما استقر في ذهن الإنسان منذ القدم
من الربط بين اللفظ ومدلوله ربطاً وثيقاً ، حتى إنه يعتقد أن مجرد ذكر الموت
يستحضر الموت ، وأن النطق بلفظ الحياة يدعوها من جحرها ، فتنهش من ناداها
أو ذكر اسمها . وقد سيطرت تلك العقيدة على عقول كثير من أبناء الأمم
البداية ، حتى أصبحوا لا يفرقون بين الشيء واسمه ، ويتصورون أن المرء
يتسكون من الجسم والروح والاسم .

وقد حدثنا كثير من المفكرين الذين اتصلوا بتلك الأمم البدائية ودرسوا
عاداتهم وتقاليدهم عن أمور غريبة عجيبة يؤمنون بها ، وكثير منها يعزى إلى
ذلك الربط الوثيق بين اللفظ والمدلول . فعند بعض هؤلاء القوم يأبى الفرد منهم
أن يطلع أجنبياً على اسمه خشية أن يمتلك جزءاً من كيانه فيقتلب عليه . ولا تزال
آثار تلك العقائد القديمة سائدة في بعض بيئاتنا حين يستعان باسم الأم واسم
الشخص في السحر والرقى رغبة في النيل منه أو السيطرة عليه^(١) .

وليس تفادى الأسماء أو تحاشيها مقصوراً على الشعور بالخوف منها أو
الاشمئزاز من ذكرها ، بل قد يكون أحياناً للمهينة وشدة الاحترام ، وذلك حين
يتحاشى الصغير ذكر اسم أبيه أو معلمه أو رئيسه ويكنى عنه بكلمة أخرى . وقد
بلغ هذا الاحترام والإجلال لدى بعض الأمم أن أصبح ذكر اسم الرب أو الإله
محظوراً محرماً . فاليهود لا ينطقون باسم الرب « يهوفاه » ، ويستعبدون عنه
بكلمة أخرى معناها « السيد » هي « أدناى » كلما عرضت لهم كلمة « يهوفاه »
في أثناء القراءة أو الترتيل .

(١) راجع قنديل في كتابه « اللغة » ص ٢٢٧ ، ٢٨٠ . وكذلك جيسرس و

ويترتب على كل ما تقدم أن ألفاظاً تحل محل أخرى ، وأن بعض كلمات اللغة تكتسب دلالات جديدة ، وتنتقل إلى مجال غير الذى عرفت به وشاعت فيه . وتتم تلك العملية التطورية فى الدلالات فى صورة تدريجية تستغرق زمناً طويلاً . وليس المسئول عنها فرداً بعينه ، بل تمزى إلى المجتمع فى البيئة اللغوية .

- ٢ -

الحاجة

وهناك نوع من التطور فى الدلالة يكون وليد الحاجة إلى التجديد فى التعبير ، وهو الذى يقصد إليه قصداً ، ويتم عن عمد فى ألفاظ اللغة ، وذلك هو العامل الثانى فى تطور الدلالة .

ويتم هذا النوع من التطور عادة على يدى الموهوبين من أصحاب المهارة فى الكلام كالشعراء والأدباء ، كما قد تقوم به الجامعات اللغوية أو الهيئات العلمية حين تعوز الحاجة إليه . والسبيل إليه هو ما يسمى بالمجاز أو الانتقال باللفظ من مجاله المألوف إلى آخر جديد عليه .

وحاجة الأديب إلى توضيح الدلالة أو تقوية أثرها فى الذهن ، هى التى تحمله على الالتجاء إلى المجاز . وعلى قدر إحسانه فى تخير المجال الجديد للفظ تكون مهارته وجودة فنه .

عناصر الحاجة ودوافعها :

١ - التطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى :-

تبرهن لنا أحداث التاريخ العام على أن الأمم لا تبقى على حال ، فزنها ما شهد التاريخ مولده ثم ازدهاره ثم تدهوره أو فناءه . ومن الأمم ما هو قديم

عريق عاشت في فجر التاريخ ، ثم سيطرت على العالم القديم زمناً ما ، ثم انزوت ولم تخلف لعالم الإنسان سوى الآثار والنقوش الصامتة ، أو انكشفت وتضاءلت ولم يبق من أبنائها إلا ما يكونون دويلة صغيرة . ومن الأمم ما هو حديث النشأة والنهوض والازدهار .

وتنبع اللغات الأمم في صعودها وهبوطها ، وفي تطورها وتغيرها ، إذ لا وجود للغة بذرة المتكلمين بها ، ولا تحيا إلا بحياة أبنائها . فكل تطور في حياة الأمة يترك أثراً قوياً واضحاً في لغتها . ويعطينا هنا ذلك الأثر المتمدد الذي يتصد إليه قصداً ، لأن مظاهر الحياة تتطلبه وتدعو إليه . وتستجيب الأمم عادة لمظاهر الحياة ، فتعمل على تغيير الدلالات في بعض ألفاظها حتى يمكن أن تسير الزمن ، أو تستعير ما هي في حاجة إليه من ألفاظ اللغات الأخرى . فليست حياة المنزل في العصور القديمة كذلك التي نشهدها الآن في عصرنا الحاضر ، وليست نظم الأسواق فيما مضى كذلك التي تسود الآن في العصر الحديث ، فالأدوات غير الأدوات ، والمواصلات غير المواصلات ، والملابس غير الملابس ، والأبنية غير الأبنية ، وبالاختصار لم يبق لنا من العالم القديم إلا مظاهر الطبيعة من سماء ونجوم وشمس وقر وأرض وأنهار ، وبحار وبراكين وعواصف وأمطار ، ثم جميع أنواع الحيوان والطيور والأسماك والحشرات والهوام . أما في غير هذا فقد تغير كل شيء وتطور كل شيء للإنسان على ظهر الأرض . ووجد الإنسان نفسه مضطراً إلى التطور أيضاً في الألفاظ المعبرة عن أدواته ومواصفاته وصناعاته وملابسه وأبنيته فلجأ إزاء هذه الضرورة إلى وسيلتين :

(١) أولاهما أن يعتمد إلى الألفاظ القديمة ذات الدلالات المنثورة فيحيى بعضها ، ويطلقه على مستحدثاته ملتصقاً في هذا أدنى ملابسة . وهكذا وجدنا أنفسنا أمام ذلك الفوج الزاخر من الألفاظ القديمة الصورة الجديدة الدلالة : كالدمع والقنبلة والدبابة واللغم والطيارة والطراد والسيارة والبريد والقاطرة

والقطار والثلاجة والسخان والمذياع والتدبذبات والتسجيل والجرائد والصحف والمجلات ، والمحافظة والأقسام والمرور ؛ وغير ذلك من آلاف الألفاظ التي أحيانا الناس أو اشتقوها ، وخلعوا عليها دلالات جديدة تطلبها حياتهم الجديدة . وتم هذه العملية عادة عن طريق الهيئات والمجامع اللغوية ، أو قد يقوم بها بعض الأفراد من الموهوبين في صناعة الكلام كالأدباء والكتاب والشعراء . ثم تفرض تلك الألفاظ في وضعها الجديد على أفراد المجتمع للتداول والتعامل بها ، غير أن بعضها يصادف القبول فيذيع ويشيع ، ويصبح بعد حين من الكلمات المألوفة المعروفة ، ويلقى بعضها الصعاب والاعتراض فلا يكاد يظهر حتى يختفي من الاستعمال . وقد يصل الشيوع بالدلالة الجديدة حداً تنسى معه الدلالة القديمة نسياناً تاماً ، فلا يبقى لها أى أثر في أذهان الناس . فمن منا الآن إذا سمع كلمة « السيارة » أو « القاطرة » يخطر في ذهنه صورة القافلة في الصحراء ، أو الناقة الأولى التي تسير القافلة على هديها ؟

يروى أحد الأدباء أن ابنه الصبي كان يسمع فقيها يقرأ من سورة يوسف « وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه » ، فدهش الصبي وسأل والده وهل كانت هناك سيارات في ذلك الحين يا أبى ؟

ويحاول المجمع اللغوى الآن وضع كثير من تلك الألفاظ التي تسد حاجة المجتمع في النواحي المختلفة . ففيه لجان لألفاظ الحضارة ، وأخرى لكل أنواع النشاط الاجتماعى والعلمى والسياسى والاقتصادى ، مما تطلبه النهضة العربية الحديثة . ويكفى الرجوع إلى أعداد مجلة المجمع اللغوى للاطلاع على تلك الآلاف من الألفاظ التي وفق أعضاؤه ولجانه في اختيارها وتحديد مدلولاتها .

ولم يكن كل هذا إلا وليد الحاجة والضرورة الملحة ، حتى لا تتخلف الأمة العربية عن ركب الحضارة . وقد كان لجهود الأفراد من محررى الصحف نصيب مشكور في استخراج تلك الألفاظ ، والدعوة إلى استعمالها قبل إنشاء المجمع

اللغوى بزمن طويل . هذا هو أحد رؤساء التحرير في صحيفة مصرية يجد نفسه أمام حادث وقع في أواخر القرن التاسع عشر ، فأراد نشره على الملأ ، ووصفه بالجمهور قرائه ، ورأى نفسه بحاجة إلى لفظ للتعبير عن أحد المخترعات الحديثة ، فلم يتردد في إحياء لفظ قديم للتعبير عن مدلول حديث . وكان ملخص ذلك الحادث أن الآلة التي تنجز عربات السكة الحديدية الجديدة قد سقطت في النيل أثناء مرورها فوق أحد الجسور وهو مفتوح . فوفق في اختيار لفظ « القاطرة » للتعبير عن اللفظ الأجنبي « Locomotive » ، وذلك لأن القاطرة هي القاطرة التي تتقدم القافلة .

وقد تكون الدعاية السياسية أو الاقتصادية حافزاً كبيراً لتوليد تلك الألفاظ الجديدة الدلالة . فأصحاب الإعلانات التجارية لا يألون جهداً في تخيير الألفاظ ، وصنفاً بدلالات جديدة جذابة ، رغبة في رواج بضائعهم وأسواقهم . فصاحب محل المشروبات قد يطلق على محله « جنة الفواكه » ، والحلاق قد يطلق على مكانه « دار الزينة » ، والخياط قد يقول عن محله « دار الأناقة » ، والطور شحى قد يدعو ما يبيعه « بالمشميات » ، وغير ذلك مما هو مألوف لنا في حياتنا العامة .

(ب) وقد تدعو تلك الحاجة أو الضرورة إلى الالتجاء إلى ألفاظ اللغات الأجنبية ، فيستعار منها ما تمس الحاجة إليه حيناً ، وما لا حاجة إليه حيناً آخر . فاللغات يستعير بعضها من بعض ، إما لأن الألفاظ المستعارة تعبر عن أشياء تختص بها بيئة معينة ولا وجود لها في غير هذه البيئة ، أو تكون الاستعارة مجرد الإعجاب باللفظ الأجنبي . وتقتصر الاستعارة عادة على الألفاظ والكلمات ، ولا تكاد تتعداها إلى العناصر اللغوية الأخرى ، كالتصريف والاشتقاق وتركيب الجمل .

أما الاستعارة التي تدعو الحاجة إليها فقد عرفها القدماء كما عرفها المحدثون .
فقد استعار العرب من الفرس واليونان ألفاظاً للتعبير عن أشياء ليست في بلاد
العرب . وعمد العرب القدماء إلى بعض تلك الألفاظ فجوروا من بنيتها ، وجعلوها
على نسج الكلمات العربية ، وسموها بالعربية ، وتركوا البعض الآخر على صورته
وسموه بالدخيل . ويكفي الرجوع إلى الكتب التي ألفت في هذا ، ككشف الغليل
للشهابي والعرب للجواليقي ، للوقوف على تلك المثبات من الألفاظ الأجنبية التي
قبلتها لغتنا العربية .

واستعارت اللغات الأجنبية بعضاً من ألفاظنا العربية بعد أن صبغتها
بصبغتها ، وغيرت من صورتها مثل شراب Sirup ، الجبر Algebra ، الكحول
Alcohol ، قهوة Coffee ، منارة minaret ، ترجمان dragoman . ويحدثنا
الفريوني المحدثون أن الأمم الأوروبية لم تتردد في استعارة كلمة « Tea » من اللغة
الصينية حيث المصدر الأصلي للشاي ، وكلمة « الشمبانزى » من إحدى لغات
أفريقيا ، وكلمة « الشيكولاته » من اللغة المكسيكية ، وكلمة « الياسين » من
الفارسية ، وغير ذلك من ألفاظ تعبر عن أشياء لا وجود لها في البيئات الأوروبية ،
أو وفدت إليها من المصادر الأصلية .

وتم هذا النوع من الاستعارة للحاجة الملحة ، دون أن يكون للبيئة المستعار
منها أى أثر ثقافى أو نفوذ سياسى في البيئة المستعيرة ، وفي وقت ليست فيه تلك
الأمّة المستعار منها محل إعجاب أو موضع تقدير لحضارتها ورقبها الاجتماعى أو
نهضتها السياسية .

وهناك نوع آخر من استعارة الألفاظ يتم في ظروف أخرى تكشف عن
إعجاب أمة بأمة ، وتأثرها بثقافتها أو خضوعها لنفوذها السياسى . وهنا نلاحظ
أن مجموعة كبيرة من ألفاظ الأمة صاحبة النفوذ والسيطرة نفزو الأمة الأخرى ،

وتنافس ألفاظها الأصلية ، ويصبح المعنى الواحد لفظان أحدهما أصيل ، والآخر أجنبي دخيل ، يسودان معاً جنباً إلى جنب زمناً ما بعده قد يفزى اللفظ الأصلي ، أو يندثر ، وحينئذ يستأثر اللفظ الأجنبي بالاحترام والتقدير في الأوساط الاجتماعية الراقية وفي المجال الثقافي . تلك هي الاستعارة التي تترك أثراً ظاهراً في تطور الدلالة لبعض الألفاظ في اللغات . أما الاستعارة التي تكون وليدة الحاجة الضرورية فلا نكاد نلمح لها أثراً في تطور الدلالات أو تغيرها ، بل هي مجرد تنمية لألفاظ اللغة ، وإضافة جديدة فيها^(١) .

فاستعارة اللفظ الأجنبي رغم وجود نظير أصيل له يعبر عن نفس المعنى ، تؤدي عادة إلى تطور في دلالة اللفظ الأصيل . فينزى إلى ركن متواضع من الدلالات الأصلية ، قائماً بها ولا يتعدى حدودها ، أو يقتصر استعماله على مجال معين ، أو وسط اجتماعي خاص . وتصبح السيادة حينئذ لللفظ الأجنبي الذي يفوز بكل تقدير واحترام . فإذا لم يندثر اللفظ الأصيل ، ولم تغير نظرة المجتمع إليه ، فلم تنكش دلالاته أو تتطور ، عاش مع اللفظ الأجنبي ، ويتكون منهما ما يسمى بالترادف في اللغات . فتدريجاً عرف العرب لفظ « الحرير » ، ثم لم يقنعوا به ، فاستعاروا معه ألفاظاً منافسة كالسندس والإسقبوق والديباج ، ثم أبى تجار العرب إلا أن يختصوا تلك الألفاظ الأجنبية بصفات خاصة ، فنسبوا للإسقبوق بعضاً منها وللسندس أخرى ، وللدباج ثالثة ، طلباً لرواج بضائعهم ، فاقترنت دلالة الحرير على المعنى العام .

وليست كل الألفاظ قابلة للاستعارة ، بل منها ما يمكن أن يسمى بالألفاظ العvisية على الاستعارة ، وهي التي تعد من العناصر القديمة الأصلية المميزة للغة ،

(1) The story of language. p. 149, by Mario Pei
انظر
language, its nature, development & origin p.208 by Jespersen.
Language, p. 444, by Bloomfield.

وليس من اليسير ولا من المرغوب فيه التخلص منها أو استجلاب منافس لها ،
كألفاظ الأعداد في كبل لغة وكالضائر وألفاظ الإشارة والوصول . ومع هذا فقد
يحدث أن تستعير أمة من أمة أخرى نوعاً من العجايب ، وتستعير معه الألفاظ الأجنبية
التي تصطنع فيه . فقد استعيرنا لعبة « الزرد » من الفرس ، واستعيرنا معها طريقة
الفرس في العد ، كالليك والدوه والدوسة والجهار والبش والشيش .. إلخ .

ولسكى ندرك أثر الاستعارة في تطور الدلالة ، علينا أن نتذكر أن نحو نصف
ألفاظ اللغة الفارسية مستعار من اللغة العربية ، وأن نصف ألفاظ اللغة التركية
مأخوذة إما من الفارسية أو العربية ، وأن ثلث ألفاظ اللغة الإنجليزية نقط هي
التي تعد بحق ألفاظاً أصيلة سكسونية .

ويؤكد لنا أحد الباحثين من اللغويين المحدثين أنه فحص معجماً فرنسياً يشتمل
على ٤٦٣٥ كلمة فوجد منها ٢٠٢٨ كلمة فقط من الأصل اللاتيني الذي يعد
المصدر الأصيل للغة الفرنسية ، ووجد ٩٢٥ من اللغة اليونانية و٦٠٤ من الألمانية
و٦٦ من السكتية و١٥٤ من الإنجليزية و٢٨٥ من الإيطالية و١١٩ من الأسبانية
و١٠ من البرتغالية و١٤٦ من العربية و٣٦ من العبرية و٤ من الهنغارية و٢٥ من
السلافية و٣٤ من التركية و٦ من لغات أفريقيا و٩٩ من اللغات الآسيوية و٦٢
من اللغات الأمريكية الهندية و٢ من اللغات البوليفية !!^(١) .

أى أننا لانكاد نظفر ب تلك اللغة التي تعد خالية من أى عنصر أجنبي ، اللهم
إلا بين عدد قليل من لغات القبائل البدائية في العالم .

وهكذا نرى أن استعارة الألفاظ أو افتراضها ذات أثر في تطور الدلالات .

(1) The Story of language. p. 151.

الفصل التاسع

أعراض التطور الدلالي

تبين لنا فيما سبق أن اللفظ قد تتطور دلالاته وتغير ، وعرفنا العوامل أو الأسباب التي تدفع إلى مثل هذا التطور والتغير .

وإذا صح أن نشبه ظاهرة التطور في الألفاظ بالعملة التي قد تعثرى الكائن الحي ، فعلياً هنا أن نبين أعراضها ومظاهرها . وتكاد تقتصر تلك الأعراض والظاهر في الأمور الآتية : —

— ١ —

تخصيص الدلالة

يتحدث المناطقة والفلاسفة عن دلالة اللفظ ، ويسمونها بالدلالة العامة لأنها تنطبق على كل فرد من طائفة كبيرة ، ويصفون اللفظ حينئذ بأنه « كلي » مثل كلمة « شجرة » التي تطلق على كل ما في السكون من الأشجار . فإذا تحدثت الدلالة أو ضاق مجالها قيل إن اللفظ أصبح جزئياً ، وقيل إن الدلالة قد تخصصت . فقولنا « شجرة البرتقال » يستبعد آلفاً أو ملايين من أنواع الأشجار الأخرى ، فهي لذلك أضيق دلالاتها من كلمة « شجرة » . وقولنا « شجرة البرتقال المصرية » أضيق في الدلالة من « شجرة البرتقال » . ولا تزال الدلالة تتخصص حتى تصل إلى العمومية أو ما يشبهها . فقولنا « شجرة البرتقال في حديقةنا » يصل بالدلالة إلى أضيق الحدود ، وتكاد تكون الدلالة هنا كالدلالة في الأعلام وأسماء الأشخاص كحمد وعلي وأحمد ونحو ذلك .

والألفاظ في معظم اللغات البشرية تقذب دلالاتها بين أقصى العموم كما في الكلّيات ، وأقصى الخصوص كما في الأعلام . فهناك درجات من العموم ، وهناك درجات من الخصوص ، وهناك حالات وسطى . وإدراك الدلالة الخاصة أو الشبيهة بالخاصة أيسر من إدراك الدلالة الكلّية ، التي يقل التعامل بها في الحياة العامة وبين جمهور الناس . فالفلاسفة وأصحاب العقول الكبيرة هم وحدهم المشغوفون بتلك الألفاظ الكلّية في تفكيرهم وتأملاتهم .

وعلى قدر ما يصيب الذهن من رقي يكون استعداده لتقبل تلك الدلالات الكلّية ، وحرصه على التعامل بها . وكذلك الأمم على قدر نهوضها ، وسمو التفكير بين أبنائها ، تكون لغاتها مستعدة لتلك الدلالات الكلّية . فلغات الأمم الفاهضة تتضمن قدراً كبيراً جداً من تلك الألفاظ ، على حين أن لغات الأمم البدائية لا تكاد تشتمل على شيء منها .

فيقال لنا إن الهورونيين (السكان الأصليون لأمريكا الشمالية) ليس لديهم لفظ للتعبير عن « الأكل » ، بل يصطنعون عدة ألفاظ متباينة أحدها للتعبير عن « أكل اللحم » . والآخر عن « أكل الخبز » ، والثالث عن « أكل الموز » وهكذا^(١) .

وعرفنا أننا أن الأطفال يدركون الدلالة الخاصة قبل إدراكهم للدلالة العامة ، فيبدأ الطفل حياته بأن يجعل من كل لفظ جديد على سمعه « إعلماً » على شيء معين . فحين يسمع كلمة « السرير » ويربطها بمهده ومكان نومه تظل في ذهنه زمناً ما أشبه بعلم على سريره هو وحده .

والناس في حياتهم العامة ينفرون عادة من تلك الكلّيات التي لا وجود لها إلا في الأذهان ، ويؤثرون الدلالات الخاصة التي تعيش معهم فيرونها ويسمعونها

(1) L' Evolution des idées, p. 110

وعام اللغة للدكتور علي عبد الواحد ص ٢٤١ .

ويلمسونها، ولذا يسهل عليهم تداولها والتعامل بها في حياة أكثر ما فيها ملموس محسوس . وهم لقصور في الذهن حيناً ، أو بسبب الكسل والتماس أيسر السبل حيناً آخر ، يعمدون إلى بعض تلك الدلالات العامة ويستعملونها استعمالاً خاصاً ولا يتردد الفرد العادي في هذا الصنيع متى وثق أن كلامه سيكون مفهوماً ، وأنه سيحقق الغرض أو الهدف من النطق . فإذا قدر لمثل هذا الاستعمال في الدلالة أن يشيع ويذيع بين جمهور الناس رأبنا اللفظ تتطور دلالاته من العموم إلى الخصوص ، ويضيق مجالها ، وتقتصر على ناحية منها . وذلك هو العرض الذي نسميه بتخصيص الدلالة ، وهو الذي يصيب كثيراً من ألفاظ اللغات في العالم .

فكلمة « meat » التي تعني الآن في اللغة الإنجليزية « اللحم » ، كانت دلالتها فيما مضى أعم ، وكانت تعني مجرد « الطعام » ، وكلمة « Hound » التي تعني الآن في تلك اللغة نوعاً خاصاً من الكلاب ، كانت فيما مضى تعبر عن « كلب » .

وكذلك الحال في لهجات الخطاب عندنا إذ تخصصت كلمة « الطهارة » وأصبحت تعني « الختان » ، وتخصصت كلمة « الحريم » فبعد أن كانت تطلق على كل محرم لا يمس ، أصبحت الآن تطلق على « النساء » ، وكذلك كلمة « العيش » حين تطلق على « الخبز » .

— ٢ — ✓

تعميم الدلالة

فكما يصيب التخصيص دلالة بعض الألفاظ قد يصيب التعميم البعض الآخر ، غير أن تعميم الدلالات أقل شيوعاً في اللغات من تخصيصها ، وأقل أثرًا في تطور الدلالات وتغيرها . ويشبه تعميم الدلالات ما نلاحظه لدى الأطفال حين يطلقون اسم الشيء على كل ما يشبهه لأدنى ملازمة أو مماثلة ، وذلك لقصور

محصولهم اللغوى ، وقلة تجاربهم مع الألفاظ . فقد يطلق الطفل لفظ « الأب » على كل رجل يشبه أباه في زيه أو قامته أو لحيته أو شاربه ، وقد يطلق لفظ « الأم » على كل امرأة تشبه أمه في ثيابها وشعرها وصورتها . وتبدو هذه الظاهرة واضحة جلية حين يعبر الطفل عن أنواع الحيوان والطيور . فقد يسمى كل طائر « دجاجة » وكل حيوان كبير حماراً أو حصاناً . ويتوقف مسلك الطفل إلى حد كبير على بيئته ، وتجاربه الأولى فيها .

وكذلك الناس في حياتهم العادية يكتبون بأقل قدر ممكن من دقة الدلالات وتحديداتها ، ويقنعون في فهم الدلالات بالقدر التقريبي الذى يحقق هدفهم من الكلام والتخاطب ، ولا يكادون يحرصون على الدلالة الدقيقة المحددة التى تشبه المصطلح العلمى . وهم لذلك قد يلتفتون بالدلالة الخاصة إلى الدلالة العامة إشاراً للتيسير على أنفسهم ، والتماساً لأيسر السبل في خطابهم .

ويبدو أثر هذا واضحاً قوياً في الصفات والنعوت حين تصطنع في مجال أعم ، فتصبح « الموسيقى » مثلاً في رأيهم « لذيذة » ، وحين « يتذوقها » السامع . وتلك هى الظاهرة التى جمعت للحية والسيف والعسل عشرات من الأسماء في اللغة العربية .

ومن هذا التعميم أن « البأس » في أصل معناها كانت خاصة بالحرب ، ثم أصبحت تطلق على كل شدة ، وأن الناس في خطابهم الآن يطلقون كلمة « الورد » على كل زهر ، وكلمة « البحر » على النهر والبحر . ومن هذا التعميم أيضاً تحويل الأعلام إلى صفات ، فالعلم « قيصر » قد يطلق ويراد منه العظيم الطاغية ، « ونبيرون » الظالم أو المجهنون ، « وحاتم » الكريم المضيف ، و « عرقوب » للمخادم القليل الوفاء .

ومثل هذا في اللغات الأوربية كلمة « arrived » التى كانت تعنى الوصول

إلى شاطئ النهر ، وأسبغت الآن لجراد الوصول ، وكلمة « Virtue » التي نعى الآن « الفضيلة » كانت في الأصل اللاتينية مقصورة على صفة الرجولة .

— ٣ —

انحطاط الدلالة

وكثيراً ما يصيب الدلالة بعض الانهيار أو الضعف ، فتراها تفقد شيئاً من أثرها في الأذهان ، أو تفقد مكانتها بين الألفاظ التي تقال من المجتمع الاحترام والتقدير . فهناك ألفاظ تبدأ حياتها بأن تعبر في قوة عن أمر شنيع أو فظيع ، حتى إذا طرقت الأذان فزع المرء لسماعها ، وأحس أنها أقوى ما يعبر عن تلك الحال ، ثم تمر الأيام وتشيع تلك الألفاظ ، ويكثر تداولها بين الناس ، وهم عادة مشغوفون في كلامهم بالإعراف والمفالات ، فيستعملونها في مجال أضعف من مجالها الأول رغبة منهم في أن يحيطوا بمعانيهم بحالة من القوة لا مبرر لها في الحقيقة . وهنا تنهار القوة التي في الدلالة الأولى ، ويصبح اللفظ بعد شيوعه مألوفاً لا تخيف دلالاته ولا تفرع لها النفوس . ففي اللغة الإنجليزية مثلاً ثلاث كلمات في الوصف بالشفاعة أو الفظاعة هي : Dreadful, Terrible, Horrible كانت إذا استعملت خلال القرن الثامن عشر أقرعت السامع ، وجعلته يشعر بما يشبه هول القيامة . ولم يكن الكتاب يتناولونها إلا حين يثور بركان ثورة عنيفة ، أو حين ترتل الأرض زلزالاً يخرب المدن ، وبذهب ضحيته آلاف من البشر ! ثم انهارت دلالة هذه الأوصاف وسمعتها على السنة الإنجليزية يصفون بها الحدث الثقافي كسقوط فوجان من الشاي على السجادة ، أو اصطدام دراجة بالحائط ، ونحو هذا ؟ !

ويشبه هذا ما نسمعه في بعض لهجات الخطاب حين تستعمل كلمة « القتل والقتال » في الشجار حتى مع ضعف شأنه ونتائج . وكذلك كلمة « الكرسي »

استعملت في القرآن الكريم بمعنى « العرش » في قوله تعالى « وسع كرسيه السماوات والأرض » ؛ غير أن هذه الكلمة أصبحت الآن تطلق على « كرسى » السفرة وكرسى المطبخ .

وكانت الكلمة الإنجليزية Astonish فيما مضى تعنى أصيب بصاعقة ، فأصبحت الآن وقد اقتصرت دلالتها على الدهشة والاستغراب . والوصف « لثيم » في اللغة العربية كانت دلالاته في الأساليب القديمة أقوى مما هي عليه في السفة الناص الآن . ويقال في كل هذا إن دلالة اللفظ قد أصابها الضعف بعد القوة .

وهناك ألفاظ أخرى تصيبها الخسة بعد الرفعة وتفقد الاحترام الذي كان لها في المجتمع . وأكثر ما يكون هذا في الألقاب الدنيوية كلفظ « أفندي » حين تقارن حالها في أواخر القرن التاسع عشر بحالها في منتصف القرن العشرين . وقد كان « الحاجب » في الدولة الأندلسية بمثابة رئيس الوزراء ، ورأينا آنفاً ما أصاب كلمة « الوزير » العربية حين أصبحت في الإسبانية لا تعنى أكثر من شرطى ، وفي الإيطالية « مساعد عشاء » !! كما رأينا أن « طول اليد » قد وردت في الحديث الشريف بمعنى السخاء والجود حين قالت للنبي نساؤه « أينما أسرع لحاقاً بك يا رسول الله ؟ » فقال صلعم : « أطولكن يداً » !! والكلمة كما هو معروف لنا جميعاً تستعمل الآن على الألسنة وفي لهجات الخطاب بمعنى السرقة .

وأخيراً يكفي أن نذكر ما أصاب الكلمات التي تعبر عن « المرحاض » في الأجيال المختلفة من خسة في الدلالات أدت إلى الاستبدال بها ألفاظاً أخرى في أزمنة متعاقبة .

رقى الدلالة

فكما قد نلاحظ الدلالة في الألفاظ قد تقوى في الألفاظ أخرى ، غير أن ضعف الدلالة أو انحطاطها أكثر ذبوعاً في اللغات بوجه عام .

ويحدثنا فندريس^(١) أن لفظ «مارشال» قد انحدر إليها من «خادم الأسطول» وأن لفظ Knight التي كانت تعبر في فروسية القرون الوسطى عن مركز مرموق انحدرت إلى لغات أوروبا من معنى أصلي هو « ولد خادم » .

وفي لغتنا العربية أتى على الكلمتين « ملاك ورسول » عهد كانتا فيه بمعنى الشخص الذي يرسله المرء في مهمة مهما كان شأنها ، ثم تطورتا وأصبح لها تلك الدلالة السامية التي نألفها الآن .

وكانت كلمة « السفيرة » تعني في الأساليب القديمة طعام المسافر ، وهي الآن على السنة تجار الأثاث ذات شأن . بل حتى كلمة « العفش » التي لم تكن تفيد سوى « سقط المتاع » نسمعها الآن في كثير من الأحيان تطلق على جهاز المروس ، وأثاثها الثمين الغالي ؛ وكذلك السيارة الفخمة يتواضع الناس الآن ويطلقون عليها لفظ « العرب » !!

وحين نستعرض الاستعمال العربي القديم للفظي « السلطان والملك » لا نكاد نلمح فرقاً واضحاً بينهما ، فكان كل منهما يطلق على صاحب الولاية والحكم مهما صغر شأنه ، حتى كان القرن السابع الهجري فأصبح كل من اللفظين لقباً عظيماً من ألقاب الحكام والولاة ، ووجدنا الحاكم يؤثر أن يلقب بلفظ « السلطان » ، ويستشعر معه عظمة الحكم أكثر من استشعاره مع لفظ « الملك » ،

(1) Language, p 227.

ورغم أن أحكام المالك والأيوبيين كانوا يلقبون بهما معاً ، فيقال مثلاً « السلطان الملك فلان » ، غير أن لقب السلطان كان دائماً أسبق في الفصوص ، وأوضح في الدلالة على عظمة الحاكم ، بل كان يقتصر عليه في بعض الأحيان . ويقال إن أول من لقب بلقب « ملك » وزير من وزراء الفاطميين يسمى « رضوان » لقب بالملك الأفضل ^(١) . أما في العصر الحديث فأصبح « الملك » لقباً أرق ومركزاً أسمى بين الحكام من لقب « السلطان » .

هذا ويرى لنا أن المراكز العلمية في القرن السادس الهجري قد استقرت على حال معينة ، فأصبحت محدة المعالم متدرجة الرتب في سلسلة من الألقاب التي اصطلح عليها ^(٢) وهي :

المعلم ، فالؤدب ، فالمدرس ، فالمعيد ، فالشيخ ، فالأستاذ ، فالرحالة ، فالعالم ، فالإمام !!

ومن المرجح أن رواة هذه السلسلة من الألقاب العلمية قد أسرفوا بعض الإسراف ، فثلك مراحل كثيرة لا نظن أنها كانت كلها ملتزمة في الترقى العلمي ، بل لا نظن أن « الرحالة » كان لقباً أرق من الأستاذ ، ولعله كان من ألقاب بعض الأساتذة الذين اشتهروا بالتجول والأسفار . وعلى كل حال نلاحظ هنا أن لقب المدرس أقل منزلة من « المعيد » ، وأن المعيد في ذلك العصر كان يعادل عندنا الآن الأستاذ المساعد !!

(١) صبح الأعشى ج ٩ ص ٣٩٨

(٢) كتاب التربية عند العرب ص ٣٦ — ٥٣ : تأليف خليل طوطح — المطبعة التجارية بالقدس .

تغير مجال الاستعمال

وذلك هو ما يسمى « بالجاز » ، وقد تحدثنا عنه آنفاً ، ولم يبق إلا أن نشير إلى أن هذا النقل من مجال إلى آخر سواء كان عن عمد أو عن غير عمد ، له مبرراته ودوافعه التي تلتخص في الأحوال الآتية :

(١) توضيح الدلالة :

وجعل الصورة الذهنية من الجلاء والصقل بحيث لا تترك مجالاً للوم أو الشك . ويكون هذا عادة حين تنتقل الدلالة المجردة إلى مجال الدلالات المحسوسة الملموسة . وهي عملية أشبه بتحميم الصور الشمسية لتوضيح معالمها . فبعد أن كانت الدلالة لا تدرك إلا إدراكاً عقلياً بعيداً عن الحواس أصبحت مما يرى ويسمع ويلس ويشم ، وسهل على الأذهان القاصرة أن تفهم مدلولها ، وأن تبين حدودها ومعالمها ، بعد أن كانت مجرد فكرة عقلية قد يضل الذهن في حدودها .

وتلك عملية تصويرية ياجأ إليها الأدباء ، والموهوبون من أهل الفن ، لتجلية الصورة الذهنية وصقلها أمام قرائهم ، والمطلعين على إنتاجهم الفني . فالرسم والمصور حين يعبر لنا بريشته وألوانه عن بعض المعاني المجردة : كالحنان أو الحقد أو الصبر أو البخل أو الطموح ، يتخير لنا صوراً زاهياً ونكاد نلمسها ، ولا يزال يبرز من معالمها بحسن ألوانه حتى يصبح المجرد محسوساً ملموساً .

وكذلك الأديب أو الشاعر حين يريد أن يوضح سيطرة البخل أو الطموح على إنسان ما ، قد يلجأ إلى الدلالات المحسوسة يلتبس منها وسائل الإيضاح

والتجلية حتى يتم له ما يبنى من قوة التأثير في عواطفنا ، والانتقال بنصوص أدباء أو شعراء . فالشاعر الذى أراد أن يصف لنا كيف قضى على « ضغن » أقرابائه وحسداهم له فقال :

وذى رحم قلت أظفار ضغفه بحلمى عنه وهو ليس له حلم

قد استعان على تجلية « الضغن » بصورة بشعة لحيوان له أظفار ومخالب خفية . تلك عملية فنية عاطفية أكثر منها عقلية ، وللاشعور الفنى فيها كل الأثر ، وليس للعقل أو التفكير الفلاسفى مساهمة تذكر فى مثل هذا النقل . فلا يكاد الفيلسوف يحاول فى تفكيره نقل الدلالة المجردة من مجالها إلى مجال المحسوسات . وكأنما قد أحس فى نفسه القدرة على فهم تلك الدلالات المجردة ، وتحديد معالمها دون الاستعانة باللموس المحسوس .

وأوضح ما تكون تلك العملية فيما يسمى بالكفايات الأدبية كأن يكنى عن « الكرم » بكثرة الرماد ، وعن « التذلل » بإرافه ماء الوجه ... الخ .

فنقل الدلالة المجردة إلى المجال المحسوس مما يعمرفيه الأدباء والشعراء وأصحاب الخيال ، وهو كثير الورد فى الأدب العربى ، وهو الذى يستحق أن يسمى بالمجاز البلاغى .

(ب) رقى الحياة للعقلية :

يجمع الباحثون^(١) فى نشأة الدلالة على أنها بدأت بالمحسوسات ، ثم تطورت إلى الدلالات المجردة بتطور العقل الإنسانى ورفقه . فكما ارتقى التفكير العقلى جنح إلى استخراج الدلالات المجردة وتوليدها والاعتماد عليها فى الاستعمال . وهنا نلاحظ أن الدلالة تنتقل من مجال المحسوس إلى مجال الدلالات المجردة ،

Language by Bloomfield. p. 429.

(١)

ويمكن تسمية هذه الظاهرة بالمجاز أيضاً ، ولكنها ليست ذلك المجاز البلاغى الذى يعمد إليه أهل الفن والأدب ، فلا يكاد يثير دهشة أو غرابة فى ذهن السامع ، فليس المراد منه إثارة الماطفة أو انفعال النفس ، بل هدفه الأسامى الاستمانة على التعبير عن العقليات والمعانى المجردة .

فهو لهذا يعد مرحلة تاريخية متميزة لتطور الدلالة عند الأمم ، فى حين أن المجاز البلاغى لا يتوقف وجوده أو شيوعه على تطور العصور التاريخية ، بل يتوقف على ما يشيع بين الناس من جنوح إلى الماطفة والخيال ، أو من حدة فى الزواج والاتفعال النفسى فى عصر من العصور .

وانتقال الدلالة من المجال المحسوس إلى المجال المجرد يتم عادة فى صورة تدريجية ، وتظل الدالتان سائدتين جنباً إلى جنب زمناً ، خلاله قد تستعمل الدلالة المحسوسة ، فلا تثير دهشة أو غرابة ، وتستعمل فى نفس الوقت الدلالة المجردة فلا يدهش لها أحد . وليست إحداها حينئذ بأحق وأولى بالأصالة من الأخرى ، حتى يمكن أن تعد إحدى الدالتين مما يسمى بالحقيقة ، والأخرى مما يسمى بالمجاز ، إذ لا مجاز ولا حقيقة بينهما فى مثل هذه الحال .

ثم قد تزوى الدلالة المحسوسة فى ركن صغير من أركان الدلالة الأصلية ، ونثر عليها حينئذ فى بعض النصوص القديمة المتحجرة ، أو الأمثال فى صورة نفس اللفظ أو بعض مشتقاته . وقد تبدثر الدلالة المحسوسة ، وبصعب حينئذ الاستدلال على أصلها .

فإذا عرفنا مثلاً أن العاجم العربية تقص على أن « الرطانة » هى الإبل مجتمعة ، وطبيعى أن يصدر عنها حينئذ أصوات مبهمة يشبه بعضها بعضاً ، ولا تكاد الآذان تميز منها لفظاً أو ما يشبه اللفظ ، ولا جملة أو ما يشبه الجملة ، تصورنا لهذا أنه من الممكن أن تنتقل هذه الدلالة إلى التعبير عن كل كلام مبهم بلفظ

أجنبية لا يستبين منه السامع شيئاً ، وأن تصبح « الرطانة » ذات دلالة جديدة مجردة هي على حسب ما جاء في قاموس الفيروزبادي : « الكلام بالأعجمية » .

وقد مرّ عهد على لفظة « الرطانة » كانت تستعمل فيه لهاتين الدالتين ، وبنسبة تكاد تكون واحدة . ثم كان أن كثّر شيوع الدلالة المجردة ولم تعد ترى « الرطانة » بالمعنى المحسوس ، أي الإبل مجتمعة مع رفاقها ، إلا كقطعة متحفية في ثفايا المعاجم العربية القديمة .

وقولنا إن « الرطانة » بمعنى الكلام بالأعجمية قد انحدرت من « الرطانة » بمعنى الإبل مجتمعة ، لا يصدو أن يكون فرضاً ترجحه الصلة الملحوظة بين الدالتين . وليس لدينا أدلة قاطعة على هذه الصلة تؤكد لنا هذا الفرض بما لا يدع مجالاً للشك ؛ لأن تاريخ الألفاظ غامض ، والملايسات التاريخية في تطور دلالاتها قد نسيت ، وأصبح من المسير الاستدلال عليها . فليست الألفاظ ملوكاً أو حكاماً ليمنى الناس بتاريخها ، أو ليؤرخوا مراحل تطورها . ولهذا لا نغالى فندسلك مسلك الاشتقاقين من الربط بين الدلالات لجورد الاشتراك في لفظ من الألفاظ . لأن الاشتراك في اللفظ قد لا تكون له أية أصالة ، بل هو مجرد مصادفة نشأت عن التطور الصوتي في إحدى الكلمات حتى أصبحت مماثلة لكلمة أخرى . فإذا قالت لذا المعاجم إن لكلمة « السفاهة » دالتين هما :

(١) خفة الحلم أو الجهل . (٢) وصف للطعنة حين يسرع منها الدم ويخف ، فليس من الضروري أن نربط بين الدالتين ، وأن نجعل إحداها أصلاً والآخر فرعاً له . فمن الممكن أن « السفاهة » التي هي وصف معين للطعنة كانت لها صورة أخرى تختلف في حرف أو أكثر ، وأنها تطورت صوتياً لسبب ما ، فأخذت هذه الصورة التي تصادف أن ماثلت كلمة « السفاهة » بمعنى الحق . فمن يدرى لعله كان في قديم الزمان كلمتان مختلفتان في البنية والمعنى هما : السفاهة بمعنى الحق ، و « الزباهة » بمعنى الطعنة التي يخف دمها ، ثم تطورت « الزباهة » صوتياً ،

وأصبح لها صورة جديدة هي « السناهة » ، فكان الربط بين الدالتين من أجل هذا التطور الصوتي .

وتبدو مفالة الاشتقاقين حين يربطون بين الدالات لمجرد الاشتراك في الحروف الأصلية ، أو المادة الأصلية للاشتقاق . فعندهم مثلاً أن « إبليس » مشتق من « أبلس » ، و « جهنم » مشتقة من « التجهم » !! وعندما كذلك أن « الخليل » من الخلاء ، وأن رحم المرأة من الرحمة .

أما المحدثون من اللغويين فيلتزمون موقفاً مستدلاً في الربط بين الدالات حين يكون الاشتراك في الصورة غير تام ، فيقولون مثلاً : إذا كان لابد من الربط بين « الخليل والخلاء » فمن الواجب اعتبار كلمة « الخليل » هي الأصل ، وأن دالاتها المحسوسة هي التي ولدت لنا بعد ذلك دلالة مجردة في صورة « الخلاء » ، وكذلك الواجب اعتبار كلمة « الرحم » هي الأصل وأن دالاته المحسوسة قد تطورت إلى دلالة مجردة هي ما نألفه في كلمة « الرحمة » .

ومع أن المحدثين ينادون بوجوب الحيلة والحذر والاعتدال في الربط بين الدالات ، لا يشكون في أن كثيراً جداً من الألفاظ التي تعبر عن دلالات مجردة قد انحدرت إلينا من دلالات محسوسة ؛ ويكفي أن نستعرض ما جاء في المعاجم العربية من كلمات مثل [الحقد ، المدح ، القلق ، النفاق ، الشجاعة ، السكره ، الضنيعة ، المداينة ، الشؤم ، التفاؤل ، الذكاء ، الأمن ، المجد] .

ليتضح لنا أن بعضها إن لم يكن كلها قد انحدرت عن دلالات محسوسة :

الحقد : حقد الطر احتبس ، وحقدت الفاقة امتلأت شحاً !

المدح : مدحت الأرض والخاصرة اتسعنا !

القلق : الحركة والاضطراب ، ومن هنا جاء الانزعاج !

النفاق : قالوا إنه من نافقاء اليربوع !!

الشجاعة : الأشجع هو الأسد ، والشجع هو الطول !
الكره : الكرهية الأرض الغليظة الصلبة أو الحرب !
الضغينة : ضغن الجمل إبطه ؟ فهل كان حقدهم تحت آباطهم ؟ !
المداينة : هل تمت المداينة بمعنى النفاق إلى « الدهن » بصلة ما ؟
الشؤم : ضد اليمين ، والسود من الإبل ، فهل هو شؤم لأنه يتصل بناحية اليسار المشثومة لدى العرب ، أو لسواد لونه كالإبل السوداء ؟ !
التفاؤل : الفئال ككتاب لعبة الصبيان يخبثون الشيء في التراب ، ثم يقتسمونه ويقولون في أيها هو ؟
الذكاء : ذكت النار اشتد لهبها !
الآفن : قلة اللبن ، فهل منه جاء الآفن بمعنى السفه ؟ !
الجمد : من معانيه امتلاء بطن الدابة من العلف .

* * *

وليس النقل بين الدلالات مقصوراً على ما تقدم من نقل الدلالة المجردة إلى مجال المحسوسات أو العكس ، بل قد يتم بين المحسوسات بعضها مع بعض لصلة بين الدالتين في المسكانية أو الزمانية ، أو اشتراك في جزء كبير من الدلالة ، فهناك ألفاظ كثيرة لوحظ تطورها في الدلالة ؛ فانتقل كل منها من دلالاته إلى دلالة أخرى تشترك معها في المكان مثل « الذقن » حين تستعمل في خطاب الناس بمعنى « اللحية » ، ومثل « الشنب » حين يطلقونه على الشارب مع أنه يريق الأسنان ، ومثل « السماء » التي تروى المعاجم أن من معانيها السحاب والمطر .
أو تشترك معها في الزمان مثل « الشتاء » بمعنى المطر في خطاب المصريين وكلامهم . كذلك حين نطلع على ماورد في قاموس الفيروزبادي من حديثه عن

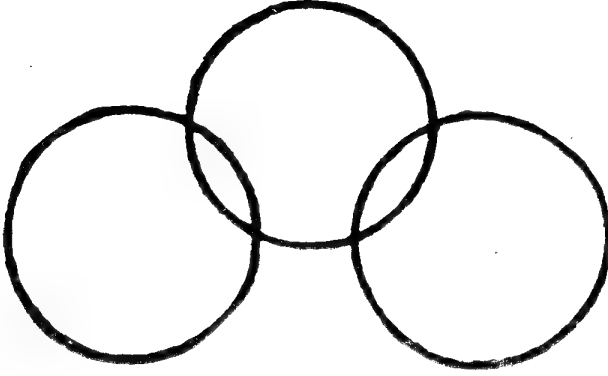
كلمة « العشاء » نرى أنه لم يكده يحدده بوقت معين ، ونشعر من النص القاموسى أن « العشاء » قد تأرجحت دلالتها بين ثلاثة أزمنة متصلة من اليوم إذ يقول : [إن العشاء أول الظلام ، أو المغرب إلى العتمة ، أو من زوال الشمس إلى طلوع الفجر] . فلعل « العشاء » فى الأصل كانت مخصصة لزمان من هذه الأزمنة ، ثم انتقلت دلالتها فى بيئات عربية مختلفة إلى الزمدين الآخرين للتقارب فى الناحية الزمانية .

أو تشترك الدالالتان فى بعض المعنى مثل « النبيل » حين يستعمل بمعنى « الشريف » أو العكس ، رغم أن « النبيل » هو « النجابة » ، والشرف هو « العلو » .

ومثل « النبیه » حين يستعمل فى خطاب الناس بمعنى « الذكى » رغم أن النباهة هى الشهرة ؛ وكذلك حين يستعملون « الشجرة » مكان « النخلة » أو العكس ؛ وحين يستعملون « الطير » بمعنى « الدبان » .

والألفاظ التى تشترك فى بعض المعنى ، تشبه عادة بالدوائر المتقاطعة التى تشترك فى أجزاء متفاوتة من سطوحها ، والتى يجعلها الاستعمال فى دوران مستمر على الألسنة . وهى فى دورانها وحركتها قد يتصادف أن إحداها تنطبق على أخرى تمام الانطباق ، ويصبح للدلالة الواحدة لفظان ، أو بمباراة أخرى يقال حينئذ إن إحدى الكلمات قد انتقلت من مجالها إلى مجال آخر ، واتخذت دلالة جديدة تمت للدلالة السابقة ببعض الصلة .

وأوضح ما تسكون هذه الظاهرة فى الصفات والنموت التى تتضمن عادة دلالات مجردة غير واضحة المعالم والحدود فى أذهان كثير من الناس .



وكان العربي يعبر عن الشيء الفريد الذي لا نظير له بكلمة « اليتيم » .
ويعبر عن « الأزرق » بكلمة الأخضر فيقول في وصف الأمواج : « متى لجج
خضر لمن نثيج » ، ويعبر عن العيون الخضر بالعيون الزرق .

ولذلك جاء تنافس معظم الكلمات التي قيل عنها إنها مترادفة في صورة صفات
ونعوت . فإذا قال صاحب جواهر الألفاظ إن [الدوى . اللثيم . الخسيس .
الزئيم . الميهين . الرنح . الوضيع . الضعيف . الحامل . الساقط . الرذل . البذل]^(١)
كلها بمعنى واحد تصورنا أنها كلمات تشترك في جزء كبير من المعنى ، وإن تفاوت
هذا الجزء الذي تشترك فيه . وهي لهذا تشبه الدوائر المتقاطعة التي يحركها
الاستعمال في دوران مستمر ، حتى يتصادف أن تنطبق إحداها على أخرى تمام
الانطباق ، وهنا يكون الترادف الحقيقي بمعناه العلمي الدقيق .

علينا إذن في الحديث عن نقل الدلالة من مجال إلى آخر أن نتذكر كل
ما تقدم ، وأن نتذكر معه ذلك النقل التعمد الذي تتطلبه مستحدثات الحياة من
منشآت ومخترعات جديدة كنقل [السيارة والقاطرة والقطار] من مجالها القديم
إلى مجال حديث دعت إليه الحضارة ومستقلزمتها .

(١) جواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر ص ٣٨ .

الفصل العاشر

دور الدلالة في الترجمة

عرض كثير من الباحثين لمشكلة الترجمة وفصورها عن تصوير كل ما يتضمنه النص المترجم من أفكار وأخيلة وجمال لفظي . وأحسن القاعون بعملية الترجمة في كل عصور التاريخ بتلك الصعوبات التي تصادفهم ، ووقفوا على بعض أسرارها ، ولكنهم مع هذا لم ينصرفوا عن الترجمة ، بل ظلوا يتابعون جهودهم جيلا بعد جيل وعصراً بعد عصر ، فيوقفون حيناً ويخفقون أحياناً . ذلك لأن الأمم والشعوب قد رأت منذ القدم حاجتها الملحة في اتصال بعضها ببعض ، وفي تبادل الثقافة كما تتبادل السلع . ثم تبين للمفسكرين في الأمم أن تبادل الثقافة يحول دونه حصون منيعة فصلت بين بني الإنسان ، وتلك هي التي نسميها باللغات . فأداة التفكيك تختلف من أمة إلى أخرى ، وقد تتسع مسافة الخلف حتى ليخيل إلينا أن الاتصال عسير أو مستحيل ، وقد تقرب فراها الباحث هيئة يسيرة .

وقد استطاع دارسو اللغات البشرية ، أن يقسموها لنا في صورة فصائل أو أسر ، وتضمن كل فصيلة ، عدداً من اللغات التي تنتمي إلى أرومة واحدة وأصل واحد ، ولذا تشابهت في كثير من عناصرها ، فأمكننا الرحلة بين فروعها دون عناء كبير . . أما حين كانت الرحلة بين لغة من فصيلة ، وأخرى من غير فصيلتها فقد كان العنت والمشقة .

وأولئك الذين حاولوا التطلع إلى ما وراء تلك الحصون التي ندعوها باللغات نفر قليل من الناس في كل أمة ، بل في كل عصر . وهم الذين قربوا بين

الشعوب ، ووصلوا الإنسان بأخيه الإنسان ، رغبة في تبادل المنافع والمعارف ، عسى أن يتكون من الناس جميعاً مجتمع إنسانى يسوده التعاون والتفاهم .

وقد عرف أصحاب المذنبات البشرية القديمة شدة حاجتهم إلى الترجمة ولمسوا معها صعوبة الانتقال بأفكار الصين وحكمتهم إلى بيئة اليونان ، أو إلى بيئة المصريين القدماء . ذلك لأن اللغة الصينية واليونانية والمصرية القديمة تلتقى إلى فصائل لغوية متباينة .

وجاء العرب فحاولوا نقل فلسفة اليونان وعلومهم إلى اللغة العربية فصادفوا المشقة والعسر ، ولم يحقق النجاح منهم إلا القليل ، لأن أكثر المترجمين في العصر العربى نقلوا آثار اليونان عن السريانية لا عن لغتها الأصلية ، مما جعل السيرافى يتشكك في صحة هذا النقل ، ويشير تلك المحاورة الطريفة^(١) التى كانت بينه وبين « يونس بن متى » في حضرة الوزير ابن الفرات المتوفى سنة ٣٢٠ هـ .

فالسيرافى أحد علماء العربية في القرن الثالث الهجرى ، وممن عاصروا المترجمين الذين اضطلعوا بنقل علوم اليونان وفلسفتهم . ونلاحظ في تلك المناظرة التى سجلها أبو حيان التوحيدي في رسالته ثورة السيرافى على ترجمة « يونس بن متى » وشكه في صحتها ، فهو يتحفظ في الترجمة عامة ويخاطب يونس بقوله [على أن هناك سرّاً ما علق بك ولا أسفر لقلبك ، وهو أن تعلم أن لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بمحدود صفاتها ، في أسمائها وأفعالها ، وصورها وتأليفها ، وتقديعها وتأخيرها واستعارتها وتحقيقها ٠٠٠ إلخ] وهكذا نرى أن مشاكل الترجمة كانت موضع مدارس ومناظرة بين القدماء كما هي بين المحدثين . وقد زادها دراسة وتفصيلاً عبد القاهر الجرجاني منذ ما يقرب من تسعة قرون في كتابه « أسرار البلاغة »^(٢) ، وخرج على الناس بنظريته في

(١) المقابسات لأبى حيان التوحيدي ص ٧١ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٢٣ .

الترجمة التي يحدثنا فيها عن أن العرب تعرف أجزاء الجسم في الإنسان والحيوان معرفة تامة ، وقد وضعت لكل جزء منها لفظاً خاصاً ، فالشفة في الإنسان هي « المشفر » للبعير « والجحفلة » للفرس . وهذه فروق ربما وجدت في غير لغة العرب وربما لم توجد . ويرى عبدالقاهر أن بعضاً من الشعراء والراجز قد استعملوا بعض هذه الألفاظ مكان البعض الآخر ، وأحلوا لفظة منها محل لفظة أخرى ، متأثرين بالإنشاد والانتقال ، دون أن يهدف عملهم هذا إلى نكتة بلاغية ، أو زيادة في تصوير . فقد استعمل المجاج كلمة « الرسن » وهي للبعير ووصف بها « أنف المرأة » في قوله [وفاحها ومرسفا مسرجا] ، واستعمل شاعر آخر كلمة « الجحفل » التي تعني شفة الفرس في وصف ناقته بأن للماء صوتاً مسموعاً عند نزوله ما بين مشفرها وبين وريديها كأنه صوت مبرد الحداد فقال :

تسمع للماء كصوت المسجل بين وريديها وبين الجحفل

ووصف ثالث « سمار الإبل » بأنها « حقان » وهذه خاصة بصغار النعام ، وأطلق رابع كلمة « الشفة » الخاصة بالإنسان على « جحفلة » الفرس . ويعتبر عبد القاهر مثل هذه الاستعمالات من الاستعارات غير المفيدة التي لا تعدو أن تكون توسعاً في اللغة ، وليس من الضروري أن يكون في غير لغة العرب ، بل هو خاصة من خواص اللغة العربية ، ولا يصح أن تنقل كما هي في لغة أخرى . فالفارسي مثلاً إذا أراد أن يترجم إلى لفته نصاً من النصوص السابقة وجب أن ينقله بالمعنى ؛ أي بالكلمة العامة التي تدل على « الشفة » لا بالكلمة الخاصة التي تدل على نوع الحيوان .

أما الاستعارة المفيدة كأن تصف رجلاً بأنه « أسد » ، أو طائراً بأنها « عقاب أو نسر » كما في قول شوقي :

أعقاب في عنان الجوالح أم سحاب فرّ من هوج الرياح

فهنا يرى « عبد القاهر » وجوب النقل باللفظ ومراعاة الاستعارة . فهو يرى في نقل الاستعارة غير المفيدة بلفظها مجالا للسخرية والضحك في حين أنه يرى أن نقل الاستعارة المفيدة بمعناها حرماناً من نكتة بلاغية . ويعبر عن هذا بقوله [فعرف اللغة وطرقها الخاصة يترجم بالمعنى ، أما هذه الاستعارة المفيدة والتشبيه المفيد والكناية المفيدة فتعقل كما هي من لفظها المترجم منها إلى اللغة المترجم إليها ، نقلاً لفظياً على طريق الاستعارة أو التشبيه أو الجواز ، وإلا فقدت جمالها وبلاغتها] .

فعبد القاهر الجرجاني وهو فارسي الأصل وعلى علم باللغتين العربية والفارسية . ولعله مارس الترجمة بين اللغتين فأتضح له تلك المشاكل التي تصادف المترجمين ، يحاول أن يضع لنا نهجاً عاماً يلتزمه المترجم ولا يحيد عنه .

وفي الحديث عن مشاكل الترجمة لا يصح أن نقسم ضعف المترجم في اللغة التي يترجم منها أو التي يترجم إليها ، إذ لا يسمى المترجم مترجماً حقاً إلا حين يسيطر على اللغتين كتابة وقراءة . كذلك يجدر بنا أن نفترض إخلاص المترجم في عمله وحسن نيته ، وأنه حين أخرج النص المترجم قد بذل الجهد وتحرى الصواب ، ولم يكن متأثراً بمذهب خاص يصيغ ترجمته بصيغة خاصة ، أى أن للترجمة مشاكل وصعوبات حتى مع إتقان المترجم للغتين ، وأمانته وإخلاصه في عمله .

ومن تلك الصعوبات ما نسميه بهندسة الجملة . فاللغات تختلف في النظام الذي تخضع له الجمل في تركيب كلماتها ، وعلاقة كل كلمة بالأخرى ، فلما فعل مكان خاص من الجملة ، ولما فعل مكان آخر ، ولما فعل مكان ثالث وهكذا .

وقد يضطر المترجم إلى التقديم أو التأخير ؛ وإلى عملية تنظيمية خاصة حتى تبدو ترجمته جارية على المنهج المألوف في اللغة المترجم إليها .

كذلك من صعوبات الترجمة كل ما يتعلق بجمال الألفاظ وموسيقاها . فقد يؤثر الكاتب لفظاً على آخر لا شيء سوى أن اللفظ له رنة رتيبة في أذن الكاتب والسامع ، أو لأنه يفسج مع ما سبقه من ألفاظ أو ما يليه منها ، فتكون من عباراته وجمله سلسلة من الأصوات اللغوية المسججة التي لا تنبو في الآذان والأسماع . وتلك هي الصفة التي نفتقدها في كل ترجمة ، ولا سيما في ترجمة الألفاظ العربية .

فاللغة العربية من اللغات التي عنيت بموسيقى ألفاظها وعباراتها في كل العصور . فلها مما يسمى بالمحسنات اللفظية فنون وفنون ، تعرض لها الطولات من كتب البلاغة العربية ، وتسوق لها شواهد كثيرة من النظم والنثر . وبلغ تفنن الكتاب والشعراء والخطباء في تلك العناية اللفظية أن وضع لها المتأخرون من دارسي البلاغة قواعد ونظماً أوشكت أن تصيب علماً مستقلاً من علوم اللغة العربية هو ما يطلق عليه « البديع » . ومن أشهر فنون البديع ما يسمى بالجناس كقول رجل للمأمون يتظلم من عامل له^(١) : [يا أمير المؤمنين مارك لي فضة إلا فضها ، ولا ذهباً إلا ذهب به ، ولا غلة إلا غلها ، ولا ضيعة إلا أضاعها ، ولا عرضاً إلا عرض له ، ولا ماشية إلا امتشها ، ولا جليلاً إلا أجلاه] . ويقال إن المأمون قد عجب من فصاحته وقضى حاجته !

فكيف السبيل إلى ترجمة مثل هذا الكلام وهو كثير في اللغة العربية ، وأى موقف يمكن أن يلتزمه المترجم حين تعرض له تلك المحسنات اللفظية التي قصدها الأدباء ، وعمدوا إليها لتزيين آدابهم ، وجعلها تنصف بالروعة والجمال ؟

وليس يعني هنا على كل حال البحث في هاتين المشكلتين ، مشكلة هندسة الجمل ، ومشكلة الجمال اللفظي ، وإنما الذي نهدف إليه من هذا الفصل هو تلك المشكلة الكبرى في الترجمة ، وهي التي تتصل بدلالة الكلمات وحدود معانيها بين لغة وأخرى .

ذلك لأن الكلمات تكتسب دلالتها في كل لغة بعد تجارب كثيرة من الأحداث الاجتماعية التي يمر بها المرء ، وترتبط الكلمة في ذهن كل منا بتلك الأحداث ارتباطاً وثيقاً ، فقتلون دلالتها بها ، وتظل تلك الدلالة بالتجارب الخاصة للإنسان في حياته . وهي لدى فرد من البيئة الاجتماعية توحى بظلال من الدلالة قد لا تخطر في ذهن آخر من نفس البيئة . لأن تجاربهما مع الكلمة مختلفة ، ونظرة كل منهما لها متباينة ، تبعاً لتلك الأحداث التي ارتبطت بها في حياتهما . غير أن هناك قدراً مشتركاً لدلالة الكلمات في كل بيئة ، هو الذي على أساسه يكون التعامل بالكلمات ، وعلى مستواه يكون التفاهم بين الأفراد .

فإذا تغربت الكلمة وخرجت من بيئتها الاجتماعية إلى بيئة أخرى ، أى إلى لغة أخرى ، احتاج المترجم إلى جهد للحصول على ما يفاظها أو يرادفها في دلالتها ، لتؤدي في ذهن السامع الجديد في البيئة الجديدة نفس الدلالة ، أو ما يقرب منها في بيئتها الأصلية . وهذا يمكن أن يقال إن المترجم قد وفق في مهمته ، وأعطى صورة صحيحة لدلالة الكلمة .

وعلى قدر شيوع الكلمة في البيئة الاجتماعية ، وعلى قدر ما تمر به من تجارب في الأحداث الدنيوية ، تكتسب تلك الظلال الدلالية ، وتتراعى حدودها ، وتوضح صورتها في الأذهان ، ويقال عن الكلمة حينئذ إن دلالتها واضحة قوية لا غموض فيها ولا إبهام ، فلا تكاد الأذن تلتقفها حتى يخطر في الذهن لها صورة بارزة العالم والحدود ، تضطرب لها النفوس ، وتتفعل المواطف . وهذا هو السر في أن بعض الكلمات ذات الدلالات المنفردة يتحایل عليها الناس في كل بيئة باسطناع ألفاظ قليلة الشيوع أو ألفاظ أجنبية عن اللغة ، رغبة في أن تصبح الصورة منطاة بستر رقيق يخفى شيئاً من معالمها ، ويقلل من وضوحها ، فلا تخدش الحياء ، ولا تبعث على الفور والاشمئزاز . وتتضح هذه

الظاهرة في الكلمات المعبرة عن أعضاء التناسل ، والعملية الجنسية والألفاظ الموت والأمراض والكوارث وغيرها ، مما يمكنه من أن يكتفى بالألفاظ الأخرى بعد زمن معين .

ودلالة الكلمات في مجال الأفكار وفي النشاط العلمي تلتزم عادة حدوداً لا تكاد تتعداها ، فهي بين أصحاب الفكر وذوى الثقافات المتشابهة ، متماثلة أو متقاربة في دلالاتها ، ولا سيما حين تعرض تلك الكلمات لظواهر الطبيعة والأحوال الكونية في العالم . ولذا يقال دائماً إن ترجمة العلوم أسير وأسهل ، لأن دلالة الألفاظ فيها محدودة مضبوطة ، وليست محل جدل أو نزاع في غالب الأحيان . فأنم ما يعنى به صاحب العلم هو الفكرة والنظرة الموضوعية ، دون تأثير بشعور فردى أو بماطفة شخصية .

أما في ترجمة النصوص الأدبية فالمشكلة أشد عسراً ، وأصعب منالاً . ذلك لأن الآداب تعتمد على التصوير والماطفة ، والتأثير والاتصال ، إلى جانب ما يمكن أن تشتمل عليه من أفكار . ولا يكون الأدب أدباً إلا بخروج الكلمات عن دلالتها اللغوية ، وشحنها بفيض من الصور والأخيلة . ومترجم الأدب لا يقنع عادة إلا بترجمة أدبية تبرز نواحي الجمال في النص المترجم كي يتذوق القارئ أكبر قدر ممكن من جمال النص الأصلي ، ويقف على عناصر المهارة فيه .

وليست ترجمة الآداب بمستحيلة أو فوق طاقة البشر ، غير أنها تحتاج إلى الجهد والمثابرة ، وتتوقف إلى حد كبير على السيطرة والقوة في اللغتين . وقد عبر أحد الدارسين من المحدثين عن هذا بقوله [إن لغة كل أمة وبخاصة اللغة الأدبية متحملة بمواطن خاصة قد لا تتركها الألفاظ ، ولكن يتركها الأديب وحده . وكثيراً ما نقف أمام نص من النصوص وقفة المتردد الذي يتنمى لو أنه رأى الأديب فيسأله عما أراد بهذا النص ، ويود أن لو كان حياً ليسأله عما يريد ،

بل هو يرجع بذمته مستعرضاً ظروف الأديب ، نافخاً فيه الحياة من جديد ليسأله عما يريد ! ذلك أن من المآل ما لا يزال في بطن الشاعر كما يقولون ، لا نثر عليه إلا بالجهد ، وإلا بعد أن نتعرف على قاموسه ونفسيته ، ومقدار احترامه لمدلولات الألفاظ ، ومقدار جرأته في الخروج عليها ^(١) .

فإذا كان هذا هو الشأن في النصوص الأدبية التي هي من خلق الشعراء والكتاب ، وهم ليسوا إلا طبقة موهوبة من الناس والبشر ، فإذا يكون موقف المترجم إزاء النصوص الدينية المقدسة التي لا يقف أثرها عند عاطفة عابرة ، أو انفعال وقتي ، بل هي تسيطر على العقول والقلوب . وتحاط تلك النصوص الدينية عادة بهالة من القداسة والطهر تسمو بها فوق مستوى الإنسان .

من أجل هذا لم يكن من الغريب أن يتحرج أمهر المترجمين في نقل هذه النصوص المقدسة إلى لغة أخرى ، لا عن رمت أو تأثم تدفعهم إليه العاطفة الدينية وحدها ، بل لأنهم رأوها من الآداب في القدوة العليا إذا تسامت ، فحشوا أن يزيفوها ، أو يخلطوا في تراكيبها ووصلات أجزائها .

وغل هذا الشعور يلزم الكتاب في كل المصور حتى أيامنا هذه . إذ يرى جمهور المفكرين في كل زمان أن نقل تلك النصوص الدينية أشبه بنقل الزهرة من منبتها قد يعرضها للجفاف ونضب العبير ، وأنه من واجب القارئ أن يتعرف على النص الديني في بيئته ، فن العسير أن يتذوقه في غير لفته كتذوق أصحاب اللغة له ، فهو من السمو والإعجاز بحيث إذا شاء أراك المآل اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنما قد جسمت حتى رأتها العيون . وإن شاء لطف الأوصاف الجسمانية حتى تمود روحانية لا تنالها الظنون ^(٢) .

(١) تيارات أدبية بين الشرق والغرب . للدكتور إبراهيم سلامة ص ٣٧ .

(٢) أسرار البلاغة ، ص ٣٣ .

ولنا في قصة الترجمة السبعينية للمعهد القديم مثل طيب يريفا كيف اختلفت الآراء في ترجمة النصوص الدينية للتوراة وكتب الأنبياء .

وأول ذكر لهذه الترجمة ما ورد في كتابات أحد أحبار اليهود في القرن الثاني قبل الميلاد ، ثم شاع أمر هذه الترجمة بين اليهود أولاً ، ثم بين المسيحيين بعد ذلك . وقد اضطربت الروايات التاريخية بعض الاضطراب في شأن هذه الترجمة ، وحكت حولها بعض القصص والأساطير . وأشهر تلك الروايات وأكثرها ذبوعا ، تلك التي تحدثنا عن أن أحد البطالسة حكام مصر في القرن الثالث قبل الميلاد أراد تأسيس مكتبة الاسكندرية ومدها بنفائس الكتب في العالم . فنصح به بعض خلائه باستدعاء نفر من أحبار اليهود في فلسطين ليقوموا بترجمة العهد القديم من العبرانية إلى اليونانية . وكانت اليونانية حينئذ لغة الكتابة والعلم ، فطلب من الرئيس الديني لليهود في فلسطين أن يأذن بتقديم اثنين وسبعين حبرا من أحبار اليهود إلى الاسكندرية ليضطلعوا بهذا الشأن الخطير ، على أن يكون كل ستة منهم من قبيلة من قبائل اليهود الاثنتي عشرة . فلما قدموا معهم نسخة معتمدة للمعهد القديم بلغته الأصلية ، أكرم بطليموس وفادتهم وأقام لهم الولائم والاحتفالات ، ثم أمر بوضعهم في جزيرة ليفقطةوا لتلك الترجمة وليتكون منهم ما يشبه المؤتمر الديني . وكان أن أتموا الترجمة في نحو سبعين يوما كما تقول الرواية .

ويرى بعض النقاد أنه بالرجوع إلى نصوص الترجمة اليونانية ، والبحث فيها تتضح معالم وإشارات تبرهن على أن الذين قاموا بالترجمة لم يكونوا من يهود فلسطين ، وإنما كانوا من يهود الاسكندرية . وقد كان بالاسكندرية حينئذ جالية يهودية كبيرة ، ولعلمهم رأوا القيام بهذه الترجمة لتيسير العبادة ، وأداء الشعائر الدينية على أبناء الطائفة في لغة البيئة الجديدة ، وهي أيضاً أشهر لغة علمية في ذلك الزمن . ذلك لأن يهود فلسطين حينئذ لم يكونوا على اتصال

وثيق باللغة اليونانية ، ومن المشكوك فيه أن يكون بينهم ذلك العدد الوفير من العارفين بها والمحيطين عليها ليستطيعوا القيام بمثل هذه الترجمة . غير أن هذا النقد نفسه يمكن أن يوجه إلى يهود الإسكندرية الذين لم يعمشوا في كنف البطالسة قبل هذه الترجمة أكثر من ٣٥ عاماً ، وتلك مدة قصيرة لا تكفي لإتقان لغة من اللغات في جيل من الأجيال ، إتقاناً يسمح لبعض أهله بإتمام مثل هذه الترجمة . فإذا أضيف إلى ذلك ، أنه لم يعرف عن اليهود أنهم يتحجمون إلى ترجمة نصوصهم الدينية من العبرانية إلى لغات البيئات التي يزحون إليها ، رأينا أن فكرة قيام اليهود في الإسكندرية بهذه الترجمة يمتورها بعض الضعف ، ولا تسكاد تجدد ما يقو بها أو يؤيدها .

وأياً ما كان الشأن في أصل المترجمين وبيئتهم ، فقد تمت الترجمة السبعينية قبل الميلاد بزمان طويل ، وثبت وجودها وتداولها بين اليهود قبل المسيحية ، كما ثبت انتشارها من الإسكندرية ، وانتقالها إلى البيئات الأخرى التي عاش بها اليهود . بل تعدت هذه الترجمة أقدم مصدر لنصوص العهد القديم ، فليس بين أيدينا الآن نسخة عبرية تعادلها في القدم أو تقرب منها ، رغم أن العبرانية هي اللغة الأصلية للعهد القديم .

ويرى فريق من النقاد والباحثين أن أقسام الترجمة السبعينية غير متكافئة . وأن بعضها جيد غاية الجودة ، في حين أن بعضها الآخر لم يصل إلى نفس المستوى ، مما يدل في رأيهم ، على تعدد القائمين بالترجمة ، واختلاف قدرتهم عليها .

وجاءت المسيحية فوجدت الترجمة السبعينية مشهورة متداولة بين اليهود ، واعتمد عليها كتأب الأناجيل من الحواريين اعتماداً كبيراً ، فلم يرجعوا إلى النص العبراني إلا في النادر من الأحيان .

ولم تسكد المسيحية تثبت أقدامها في أنحاء كثيرة من العالم حتى وجدنا اليهود يتفكرون لهذه الترجمة السبعينية ، ويحاولون تجرييحها والانتقاص من (م ١٢ — الألفاظ)

قدرها ، ولا سيما في تلك المواضع التي يشتم منها التنبؤ أو الإرهاص بقدم المسيح .

ورغم أن الترجمة السبعينية قد بلغت بين المسيحيين حد القداسة في القرون الأولى للمسيحية ، وجدنا بعض الكتاب والنقاد يحاولون إصلاحها وتعديل بعض نصوصها ، ثم إخراجها إلى الناس في ثوب جديد . وكان لهذا أن عمت ثلاث تراجم جديدة للعهد القديم باللغة اليونانية خلال القرن الثاني بعد الميلاد : —

(١) أولها ترجمة عالم يهودى يدعى « أفويلا » (Apuila) في سنة ١٣٦ ميلادية . وهى ترجمة حرفية ، ألزم فيها صاحبها التمسك بظاهر النصوص العبرية وصيغها ، وكان يهدف من ترجمته ألا يترك حجة للمسيحيين يعتمدون عليها في فكرة الإرهاص بمولد المسيح في نصوص العهد القديم .

(ب) سيماخوس Symmachus وهو كما وصفه النقاد نصف مسيحي . وكان من الأدباء المسيطرين على زمام اللغة اليونانية ، فجاءت ترجمته أدبية سامية في أسلوبها ، رائعة في تخير ألفاظها ؛ وإن ضحت ببعض معالم النص العبرى .

(ج) ثيودوشن Theodotion . وهو أيضاً نصف مسيحي . وقد اتخذ لنفسه مسلكاً وسطاً بين الترجمتين السابقتين ، فكانت ترجمته مما لا يوصف بالحرفية الخالصة ، أو يمدّ من الترجمات الأدبية التي يطغى فيها الذوق الشخصى للمترجم على النصوص المترجمة .

ثم ظهرت بعد هذا عدة ترجمات أخرى أشهرها ترجمة « أوريجين » (Origen) الذي أعاد الترجمة بعد أن تبين له عدة فروق بين النص اليونانى والنص العبرى ، فأصلح الأخطاء وأعاد المحذوف ، وأخرج للناس نسخته وقد قسمت إلى أعمدة عرض فيها التراجم السابقة كما عرض فيها النص العبرانى الأصلى ، حتى تكون وافية بالمقارنة ، فيستفيد بها الباحث الدارس .

وأخر ترجمتين للعهد القديم باللغة اليونانية ، كانتا في القرن الرابع الميلادي ، فيها اتبعت نفس الطريقة التي اتبعها « أوريجين » . وهاتان الترجمتان كانتا أكثر تداولاً واعتماداً في الكنيسة الشرقية . ثم لم تكن هناك محاولة أخرى لترجمة يونانية بعد القرن الرابع الميلادي .

وهكذا نرى أنه رغم أن المسيحيين في كل العصور قد نظروا إلى الترجمة السبعينية نظرة تكاد تبلغ حد القداسة ، ورغم أن كل الترجمات الحديثة إلى اللغات الأوربية قد أسست على تلك الترجمة اليونانية ، وجدنا عدداً من الكتاب يعيدون المحاولة ، ولا يقنعون بما جاء في الترجمة السبعينية ، فيستبدلون ألفاظها أخرى ، لأن تجاربهم مع الألفاظ ودلالاتها متباينة ، وشعورهم إزاءها مختلف ، هذا يؤثر لفظاً يعينه ويأبى استعمال غيره ، وذلك يقخير لفظاً آخر ويتمسك به ، وكلهم مخلص أمين في عمله ، حريص على إتقانه ، وكلهم يفهمون النصوص الأصلية ويحاولون جهدهم تصويرها والتعبير عنها .

وكذلك يمكن القول في الترجمات القرآنية ، إلى اللاتينية ، والفرنسية ، والإنجليزية ، فقد تعددت تلك الترجمات ، واختلفت في كثير من ألفاظها ، لا شيء سوى أن تجارب المترجمين مع الألفاظ متباينة ، وما يحيط بالألفاظ من ظلال المعاني والدلالات يختلف من مترجم إلى آخر . وليس من الحكمة أن نفترض سوء الفية في هؤلاء المترجمين ، أو أن نشك في نواياهم ، وليس من المقبول أن نتصور جهلهم بإحدى اللغتين المترجم منها والمترجم إليها ، فسكلهم من أهل الفكر الذين يحافظون على سمعهم ، ويحرصون على أن يوصفوا بالأمانة والإخلاص في عملهم . ولذلك يجدر بنا حين نستعرض تلك الترجمات المختلفة لألفاظ القرآن الكريم أن نفترض فيمن قاموا بها البعد عن الغرض أو الهوى ، وأنهم كانوا ممن يحسنون فهم العربية ، ويحيدون الكتابة باللغة المترجم إليها . ثم مع هذا أو رغم هذا راهم يختلفون في تخير الألفاظ وإيثار بعضها على بعض ، تبعاً

لاختلاف تجاربهم معها ، وتبعاً لاختلاف حدودها وظلالها في ذهن كل منهم .

وقد رجعنا إلى ترجمة الألفاظ القرآنية إلى اللغة الإنجليزية فوجدنا أقدمها يرجع إلى سنة ١٧٣٤ ميلادية وهي التي قام بها « جورج سيل » George Sale ، ثم أعاد الترجمة بعده ج . م . « رودويل » J.M. Rodwell في سنة ١٨٧٦ ثم « بلهار » E. H. Palmer في سنة ١٨٨٠ . وهؤلاء الثلاثة لم يكونوا من المسلمين أو معتنق الدين الإسلامي ، ولكنهم بذلوا الجهد ، وجاءوا بما وسعته طاقهم في إخلاص وأمانة ومثابرة .

ثم ظهرت بعدهم ثلاث ترجمات أخرى لألفاظ القرآن قام بها قوم من المسلمين ، ومن يتمسكون ويعزون بالدين الإسلامي ، ويحرصون على إظهار تماثيله وأحكامه في صورة وضاعة مشرقة ، لا يشينها شين ولا يشوبها زيف ، فبذلوا جهدهم ، واستنفدوا طاقتهم ، وأنابوا بما وسعهم . وهؤلاء هم : محمد علي الباكستاني سنة ١٩١٧ ، مرمدوك بكثال Marmaduke Pickthall سنة ١٩٣٠ ، وأخيراً يوسف علي الباكستاني منذ سنوات .

وحين نستعرض هذه الترجمات الستة ، نراها تشترك في ألفاظ كثيرة جداً ، ونراها مع ذلك تختلف في بعض الألفاظ والعبارات التي رغم أنها جميعاً تؤدي المعنى في عمومها ، فقد تباينت إزاءها نظرة المترجمين وموقفهم منها . ولتوضيح ذلك وقع اختيارنا على بضع آيات من آخر سورة البقرة هي قوله تعالى :

[لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين] .

فبينما نرى معظم المترجمين يترجم كلمة «البقرة» بالكلمة الإنجليزية «Cow» نرى أحدهم يستعمل كلمة أخرى هي Heifer . كذلك بينما نراهم يشتركون جميعاً في كلمة «Soul» للنفس ، وفي كلمة Burden - للإصر ، نراهم يختلفون في ترجمة الألفاظ الآتية :

(1) force. (2) burden. (3) require. (١) يكاف

(4) impose a duty. (5) task. (6) place a burden.

(1) its Capacity. (2) its Power. (3) its Capacity. (٢) وسعها
(4) ability. (5) its Scope. (6) what it Can bear

(1) Punish. (2) Punish. (3) Catch up, (٣) يؤاخذ
(4) Punish. (5) Condemn. (9) Condemn.

(1) act sinfully. (2) fall into sin. (٤) أخطأنا
(3) make mistake (4) make a mistake

(5) miss the mark (6) fall into error.

(1) Be favourable. (2) Blot out our sins (3) forgive اعف عنا
(4) Pardon. (5) Pardon. (6) Blot out our sins
(1) Spare us. (2) forgive. (3) Parodn. اغفر لنا (٥)
(4) grant Protection (5) absolve. (6) grant forgiveness. }

(1) Patron. (2) Protector. (3) Sovereign.
(4) Patron. (5) Protector. (6) Protector (٦) مولانا

وها نحن أولاء نعرض نص الترجمات المختلفة للآيات القرآنية الآتية الذكر مرتبة على حسب تاريخ ظهورها .

1 — George Sale. 1734.

God will not force any soul beyond its capacity : It shall have the good which it gaineth, and it shall suffer the evil which it gaineth. O Lord, punish us not, if we forget, or act sinfully : O Lord, lay not on us a burden like that which thou hast laid on those who have been before us ; neither make us, O Lord, to bear what we have not strength to bear, but be favourable unto us, and spare us, and be merciful unto us. Thou art our patron ; help us therefore against the unbelieving nations.

2 — J. M. Rodwell. 1876.

God will not burden y soul beyond its power. It shall the good which it has acquired, and shall bear the evil for the aquirement of which it laboured. O our Lord; punish us not if we forget, or fall into sin : O our Lord ; and lay not on us a load like that which Thou hast laid on those who have been before us ; O our Lord ; and lay not on us that for which we have not strength : but blot out our sins and forgive us, and have pity on us. Thou art our protector : help us then against the unbelievers.

3 — E. H. Palmer. 1880.

God will not require of the soul save its capacity. It shall have what it has earned, and it shall owe what has been earned from it. Lord, catch us not up, if we forget or make mistake. Lord ; load us not with a burden, as Thou hast loaded those who were before us. Lord, make us not to carry what we have not strength for, but forgive us, and pardon us, and have mercy on us. Thou art our Sovereign, then help us against the people who do not believe !

4—Maulvi Muhammad Ali : 1917.

Allah does not impose upon any soul a duty but to the extent of its ability, for it is (the benefit of) what it has earned, and upon it (the evil of) what it has wrought.

Our Lord: do not punish us if we forget or make a mistake.
our Lord : do not lay on us a burden as Thou didst lay on those before us; our Lord; do not impose upon us that which we have not the strength to bear; and pardon us and grant us protection and have mercy on us, Thou art our patron, so help us against the unbelieving people.

5—Marmaduke Pickthall : 1930

Allah tasketh not a soul beyond its scope. For it (is only) that which it hath earned, and against it (only) that which it hath deserved. Our Lord! Condemn us not if we forget, or miss the mark! Our Lord! Lay not on us such a burden as Thou didst lay on those before us! Our Lord! impose not on us that which we have not the strength to bear! Pardon us, absolve us and have mercy on us. Thou, our Protector, and give us victory over the disbelieving folk.

6—يوسف علي

On no soul doth God Place a burden greater than it can bear. It gets every good that it earns, and it suffers every ill that it earns. (Pray) : "Our Lord" ! Condemn us not if we forget or fall into error ; Our Lord ! Lay not on us a burden like that which Thou didst lay on those before us; Our Lord! Lay not on us a burden greater than we have strength to bear Blot out our sins, and grant us forgiveness. Have mercy on us. Thou Art our Protector; Help us Against those who stand Against Faith.

وليس بمعسير بعد هذا العرض لعدة ترجمات للألفاظ القرآنية ، إدراك السرّ في اختلاف المسلمين حول ترجمة القرآن الكريم . إذ يرى جمهور كبير منهم أن ترجمة القرآن مهما بلغ المترجم من القوة في اللغتين لا تسكاد تحقّق الهدف ، وذلك لأن اللغة العربية نواحى خاصة من فنون البلاغة تعنى بها كل العناية ، وتذبح في أساليبها ولا تسكاد تشبهها في هذا لغة أخرى . فمع فنون الجلال اللفظي التي أشرنا إليها آنفاً ، تنصف اللغة العربية بالعناية بالمجاز والاستعارة والـكناية أو التورية وغيرها من فنون القول الوثيقة الصلة بدلالة الألفاظ .

وقد تجلّت هذه الحقيقة بصورة أروع حين عرض بعض الباحثين من القدماء لألفاظ القرآن بالشرح والتفسير ، وتبين لهم أنّه لا يتم فهم ألفاظ القرآن إلا بعد التعرف على أساليبه ، وما يمكن أن ينطوى وراء تعبيراته من المعاني والمقاصد . ولذا وضع أبو عبيدة كتابه المسمى « مجاز القرآن » وتحدث فيه عن المجازات القرآنية ، ودلالاتها اللطيفة . ويصف أبو عبيدة الآيتين :

« اعملوا ما شئتم » و « ومن شاء فليكفر » .

بقوله : إن هذا ظاهره الأمر وباطنه الزجر ، وهو من سنن العرب .

ثم ظهر لابن قتيبة كتاب تحت عنوان « تأويل مشكل القرآن » ، وفيه يعرض ابن قتيبة لما خفي عن العامة الذين لا يعرفون إلا اللفظ وظاهر دلالاته على معناه ، وفيه يقول إن للقرآن من القوة والجمال ما قد يخفى على غير أهل الذوق وأرباب البصيرة بالفن الأدبي . ولذلك لا يعرف فضل القرآن إلا من كثر نظره واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب واقتنائها في الأساليب ، وما خص الله به لمتها دون جميع اللغات ^(١) .

ففي قوله تعالى : « وألقيت عليك محبة مني » يقول ابن قتيبة : لم يرد في هذا الموضوع أني أحببتك ، وإن كان يحبه ، وإنما أراد أنه حبه إلى القلوب

وقربه إلى النفوس . ويقول في قوله تعالى « وجعلنا نومكم سباتا » : ليس السبات هذا النوم ، ولكن السبات الراحة ، أى جعلنا النوم راحة لأبدانكم .

ويمثل ابن قتيبة للاستعارة في القرآن بقوله تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس » ويشرح الآية بقوله : أى كان كافراً فهديناه ، وجعلنا له إيماناً يهتدى به سبيل الخير والنجاة .

ومن كنهايات القرآن قوله تعالى « وثيابك فطهر » ، أى طهر نفسك من الذنوب ، فكنى عن الجسم بالثياب لأنها تشتمل عليه .

ومن أساليب القرآن في رأى ابن قتيبة : أن يأتى الكلام على مذهب الاستفهام وهو تقرير كقوله سبحانه « أنت قلت للناس اتخذوني وأهى إلهين من دون الله ؟ » ، وكأن يأتى على الاستفهام وهو تعجب كقوله « عم يتساءلون عن الذبأ العظيم » ؟ ، وكأن يأتى على مذهب الاستفهام وهو توبيخ كقوله « أتأتون الذكران من العالمين » ! .

ثم ظهر بعد كتاب ابن قتيبة أثر جليل الشأن هو كتاب إعجاز القرآن للباقلانى . وفي بعض فصول هذا الكتاب يعرض المؤلف الكثير من فنون البلاغة العربية ، كالتمثيل والمطابقة والتجنيس والمقابلة والموازنة والمساواة والتوشيح والكفاية . . . الخ .

وظهر معه كتاب آخر هو « تلخيص البيان في مجازات القرآن » للشرىفى الرضى . وفيه يقصر المؤلف دراسته على البحث فى المجاز القرآنى ، أى فى الألفاظ المستعملة فى غير ما وضعت له كقوله تعالى « ففتحنأ أبواب السماء بماء منهمر » ، وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر . فالمراد بفتحيح أبواب السماء تسهيل سبيل الأمطار حتى لا يجبسها حابس . وقوله « فالتقى الماء على أمر قد قدر » ، أى اختلط ماء الأمطار المنهمرة بماء العيون المتفجرة ، فالتقى الماءان على ما قدره الله سبحانه من غير زيادة ولا نقصان .

وأخيراً نجد كتاب « بدائع القرآن لابن أبي الإصبع » المتوفى سنة ٦٥٤ هـ وفيه يسوق المؤلف من فنون البلاغة التي وردت في آيات القرآن نحو مائة فن ، كالحجاز والاستعارة والكناية والإرداف والتشبيه والإيجاز ... الخ .

وفي الحق أنه لا يكاد المرء ينتهي من تصفح هذه الكتب وأمثالها حتى يحس في قرارة نفسه أن الوقوف على دلالات الألفاظ القرآنية أمر عسير المنال ، دونه صعوبات جمة ، فلا يكاد يسلم المترجم لها من الزلل أو القصور في إبراز تلك الدلالات ، وتصويرها بالقدر الذي يقارب ما هي عليه في منبتها القرآن في من جمال وروعة وإعجاز لأهل اللسن والفصاحة ، في كل زمان ومكان .

الفصل الحادى عشر

نصيب الالفاظ العربية من الدلالة

- ١ -

أمية العرب

تذكر المعاجم القديمة لكلمة الأمى معنيين أحدهما هو المؤلف الشائع بيننا الآن ، والآخر معنى غريب غير مستساغ هو على حد تمبيرهم [العيسى الجافى الجلف القليل الكلام] . ولست أدرى كيف استباح أصحاب المعاجم لأنفسهم أن ينسبوا مثل هذا المعنى لكلمة الأمى بعد أن وصف بها النبي فى القرآن الكريم ، وكيف يتصور أن يكون للكلمة مثل هذه الدلالة فى أذهان العرب ، ثم مع هذا تتخذ وصفاً لقبهم فى قوله تعالى « الذين يتبعون الرسول النبي الأمى » ، وقوله « فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمى » . والغريب أننا لا نرى أى أثر لهذه الكلمة فى جمهرة ابن دريد ، ولا فى صحاح الجودرى ، ولا فى تذييل الصاغاني ، فلم يرد لها ذكر فى هذه المعاجم على سعتها وكثرة ما جاء فيها .

ويبدو أن كلمة الأمى من الكلمات التى لم تكن شائعة فى الاستعمال قبل الإسلام ، فلا نعرف لها نصاً صحيحاً من نصوص الأدب الجاهلى ، ولا نعرف أن العرب قد اشتقوا لها فعلاً ، أو غيره من أنواع المشتقات .

ومهما يكن من أصل هذه الكلمة ، فالذى يبدو من استعمالها القرآنى أنها وصف لا يراد به الخط من شأن الموصوف ، أو الانقاص من قدره ، بل يوصف به من ليس من أهل الكتاب ، سواء كان يقرأ ويكتب ، أو ممن

لا يقرأون ولا يكتبون . ففي قوله تعالى « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي » وقوله « فأمنوا بالله ورسوله النبي الأمي » ، يدعو سبحانه أهل الكتاب من بني إسرائيل أن يؤمنوا بذلك الرسول الذي ليس منهم ، والذي ورد ذكره في كتبهم .

وقد اقتضت حكمته أن يكون « محمد » من غير أهل الكتاب ، خلافاً لما جرت به السوابق من اختصاص أهل الكتب المقدسة بالرسول والأنبياء . فجميع أنبياء بني إسرائيل من بينهم ، ومن نشأوا في ظل الكتب المقدسة التي أنزلت من قبل ، فأصبح القوم وقد خيل إليهم أن الرسول الحق لا يكون إلا منهم ، كما كانت النبوة أمر وراثته فيهم .

ويتضح هذا المعنى حين نستعرض الآيات القرآنية الأربعة التي ورد فيها كلمة « الأميين » ، فليس من بينها ما يشتم منه لأول وهلة أن المراد بالأميين الذين يجهلون القراءة والكتابة ، سوى قوله تعالى [ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني] . غير أن مثل هذا الفهم يجب أن يستبعد حين ينظر إلى الآية في ضوء الآيات التي سبقتها ، وفي ضوء استعمال الكلمة في الآيات الثلاث الأخرى . وقد ذهب إلى مثل هذا التفسير بعض علماء الإسلام أمثال قتادة وابن زيد ؛ فقد روى عنهم الطبري في تفسيره ما يشبه هذا الذي قررناه هنا من أن العرب أمة أمية ، أي أنهم ليس لهم كتاب سماوي يقرءونه ويدنون به . وجاء في دائرة المعارف الإسلامية ما نصه [ومن المحتمل أن كلمة أمي أو أميين وضما أهل الكتاب « وربما كان واضعوها هم اليهود » للدلالة على الوثنيين . ويزيد في تأييد هذا الرأي أن « هورفتز » يبين أن لها مقابلاً في العبرية هو [« أموت ها عولام »] . إلى أن يقول [فلا الكلمة العربية « أمة »

ولا العبرية « أما » ولا الآرامية « أميتا » تدل على الأمة في حالة الجهالة [...
وإذا عرفنا أن « محمداً » ربما لم يكن على بيمة مما تدل عليه كلمة أمى عند
اليهود وأنه ربما جعل لهذه الكلمة معنى جديداً]^(١).

ولسنا نهدف بهذا التفسير أن نثبت للنبي أنه كان يقرأ ويكتب ، أو أن
العرب كانوا يقرأون ويكتبون ، بل ندعو إلى عدم الربط بين هذه الآيات وبين
ما كان عليه النبي فعلاً . فإذا أردنا البرهان على أنه لم يكن يكتب ويقرأ التمسنا
هذا من الآيات القرآنية الأخرى كقوله تعالى [وما كنت تتلو من قبله من
كتاب ولا تحط به بيمينك] . أما جهل العرب بالكتابة والقراءة فيمكن
الاستدلال عليه بكثير من الحوادث التاريخية الصحيحة ، ومن آية مثل آية
الدين (يأيتها الذين آمنوا إذا تدانفتكم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب
بينكم كاتب بالعدل ... الآية) ، فهي توضح لنا أن الكاتبين في بيمة الحجاز
كانوا من القدرة بحيث طلب من الناس إذ تدانفوا بدين أن يلتمسوا لهم كاتباً
يسجله ويوثقه ، ثم فرض على الكاتب أن يستجيب لدعوة الدائنين فلا رفض لهم
دعوة أو يأبأها . ومع ندرة الكاتبين يقضح من الآية أن معظم الناس كانوا
قادرين على الإملاء ، وأنه من غير المألوف أن نجد بينهم من لا يستطيع أن
يعمل بنفسه .

ومن الأدلة التي يمكن أن تلتمس للبرهنة على قلة شيوع الكتابة بين
العرب قبل الإسلام ما يرويه المؤرخون الثقات كالبلاذري في كتابه فتوح^(٢)
البلدان حين يقول (دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب)
ثم يذكر أسماءهم فرداً فرداً . فإذا كان هذا شأن قريش مع تقدمها في التجارة
وسلطانها بين العرب ، فما بالك بحال القبائل الأخرى .

(١) النسخة العربية المجلد الثاني ص ٦٤٤ .

(٢) ص ٤٧١

ولم تكن الحال في المدينة خيراً منها في مكة ، فقد حصر المؤرخون أسماء السكّاتين فيها فلم يجاوزوا أحد عشر رجلاً . ولذا كان «صالح» يشجع المسلمين في المدينة على تعلم الكتابة ، ويفتدى الأسير في غزوة بدر بتعليم عشرة من صبيان المدينة .

أما الجالية اليهودية بالمدينة وما حولها فقد كانوا كثيرهم من اليهود في كل البيئات التي يرحلون إليها ، يتعلمون لغة قومها ، ومنهم من يتقنها ويتكلم بها دون لكفة تنم عن أصله ، أو نفشى ما استقر من أمره . ثم هم مع هذا قد يترجمون بعض نصوص التوراة إلى هذه اللغة الجديدة ، ويتعبدون بمعاني العبرانيين القدماء في ألفاظ غيرهم من الأمم التي يعيشون بينها .

وتدل كل الأسانيد التاريخية على أن اللغة العبرية لم تعد لغة كلام يتحدث بها الناس في خطابهم منذ القرن الرابع قبل الميلاد ^(١) . ولم يتردد التأخرون من أنبياء بنى إسرائيل في كتابة بعض أسفارهم باللغة الآرامية أمثال دانيال وعزرا ونحميا ^(٢) . ولم تكف المسيحية تظهر بتعاليمها حتى كانت اللغة العبرية قد أصبحت في عداد اللغات الميتة ، لا يتكلم بها أحد ، ولا يفهم بها اليهود أنفسهم . تلك كانت حال العبرية في أوائل ظهور المسيحية وفي فلسطين ، فكيف كان حالها بعد ذلك بنحو خمسة أو ستة قرون وفي بيئة بعيدة كبلاد العرب ؟ !

لهذا نتصور أن يهود المدينة كانت لغتهم العربية ، وقد نشأ بينهم شعراء ينظمون الشعر بالعربية كالسموأل ، وأوس بن دنى ، والربيع بن أبي الحقيق ، وكعب بن الأشرف . ويصف بركلمان يهود يثرب فيقول [إنهم كانوا يتكلمون

(1) Hebrew Grammar, by Gesenius. p. 15.

(2) Introduction to the literature of the old Testament. by. Driver p. 467 — 486.

باللغة نفسها التي يتخاطب بها السكان الآخرون [١].

ومع هذا فأغلب الظن أن يهود المدينة كانوا أوثق اتصالاً بالكتابة من سائر العرب ، فقد قيل لنا إن بعضاً منهم كانوا يعلمونها الصبيان في المدينة .

ويروى لنا البخاري حديثاً منسوباً لزيد بن ثابت بروایتين إحداهما [قال أنى بن النبي « صلعم » مقدمه المدينة ، فقيل هذا من بنى النجار وقد قرأ سبع عشرة سورة فقرأت عليه فأعجبه ذلك ، فقال تعلم كتاب يهود فأنى ما آمنهم على كتابي ، ففعلت ، فما مضى لي نصف شهر حتى حذفته] . والرواية الثانية : [عن زيد بن ثابت قال لي النبي صلعم إنى أكتب إلى قوم فأخاف أن يزيدوا على أو ينقصوا فتعلم السريانية فتعلمتها في سبعة عشر يوماً] .

ويبدو أن الرواية الأولى أقرب إلى الصحة ، فليس يعقل أن إنساناً مهما بلغ من النبوغ والعبقرية يستطيع تعلم لغة أجنبية كالسريانية — في مثل هذه المدة الوجيزة . هذا إلى أن النبي « صلعم » إنما كان يهدف إلى أن يكون بجانبه كاتب أمين ثقة ، ولم يكن « صلعم » يستطيع الإملاء بغير العربية ، ولا معنى إذن أن يطلب من زيد تعلم السريانية ، فضلاً عن أن السريانية ليست لغة التوراة حتى يمكن أن تنصوّر أن يهود المدينة كانوا يكتبون بها إلى النبي ، بل لقد رأينا أننا أن يهود المدينة لم يكونوا على علم باللغة العبرية لغة كتبهم المقدسة . لهذا كله رجح أن اليهود قد شاعت بينهم الكتابة بالرموز العربية المألوفة لنا ، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم حث زيد على تعلمها ، بعد أن سمعه يقرأ عن ظهر قلب بعضاً من سور القرآن .

(١) العرب والإمبراطورية العربية ابروكامان ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس ومنير العليبيكي . ص ٢٩ : وامل صاحب معجم البلدان حين أشار إلى يهود يثرب وقال عنهم « منهم عرب تهودوا » لم يرد سوى أن يصفهم بأنهم كانوا من الناحية اللغوية كغيرهم من عرب القبائل الأخرى ج ٤ ص ٢٦١ .

وليس من العسير إذن على زيد بن ثابت تعلم الرموز التي تسكتب بها لفته العربية في مثل تلك المدة القصيرة . ويكون معنى قوله « صلعم » كتاب يهود أو كتابهم ، تلك الرموز العربية التي شاعت بين يهود المدينة أكثر من شيوعها بين القبائل الأخرى ، حتى أصبحت لهم بمثابة الحرفة التي مهروا فيها ، ولا ينافسهم فيها غيرهم من العرب . فأراد النبي أن يحث المسلمين على منافسة اليهود في تعلم الكتابة العربية حتى يكون من بينهم كاتبون مهرة يطمئن إلى ما يسطرون له من رسائل . وقد أملى رسائله كلها باللغة العربية حتى تلك الرسائل التي بعث بها إلى كسرى وقيصر الروم والنجاشي والمقوقس ، وغيرهم من الملوك والعظماء الذين لم تكن لغتهم العربية .

- ٢ -

الأمية والثقافة اللغوية

تبين لنا مما تقدم أن العرب الجاهليين لم يكونوا بوجه عام أهل كتابة وقراءة ، فهل تستلزم هذه الحال أنهم كانوا أيضاً على قدر ضئيل من الثقافة اللغوية ؟

تشهد الآثار الأدبية التي رويت عن العصر الجاهلي أن شعراءهم وخطباءهم قد برعوا في صناعة القول ، فمنهم البلغاء الفصحاء الذين اعتزوا بلغتهم وتنافسوا في إجادتها شعراً ونثراً .

وقد دل نظام الشعر وأوزانه على أن الأدب الجاهلي قد سبقته مراحل وأطوار تمت فيها نشأته ونموه ، فلما جاء الإسلام وجد الخاصة من العرب يكوسون حياتهم لإتقانهم وتجويده في أسواقهم ومفتدياتهم ، فكانت تعقد المساجلات والمفاخرات بين الشعراء والخطباء في تلك الأسواق التي يمكن أن تدعى بحق المؤتمرات الثقافية للعرب القدماء .

فليس من الغلاة في شيء أن نعد الإنتاج الأدبي عند الجاهليين مظهرًا من مظاهر الثقافة اللغوية التي اكتسبوها بالتلقي والمشافهة جيلا بعد جيل .

ولم يكن ينقصهم حينئذ إلا الكتب والكتابة ووسائل التدوين والتسطير وهذه كلها في رأي أمور تافهة في كسب الملكة الكلامية . فقد نشأت اللغات البشرية في صورة صوتية تطلق من الأفواه وتتلقها الأسماع ثم تفسرها الأذهان . ولا تزال على هذه الحال حتى الآن ، بل ستظل هكذا في مستقبل الأيام .

أما الكتابة فهي تلك الوسيلة الناقصة التي اهتدى إليها الإنسان في عصور متأخرة نسبياً حين تقاس بنشأة اللغة الإنسانية . وقد بدأت الكتابة تصويرية ثم مقطعية ثم هجائية على يد الفينيقيين الذين ورثوها للعالم الحديث . ولم تكسب الكتابة أكثر من هذا خلال الثلاثين قرناً الماضية . إلى أن جاء القرن العشرون ، واهتدى الإنسان إلى وسائل أخرى للتسجيل أسرع وأدق ، فاصطنع التسجيل الصوتي على أسطوانات وأشرطة وأسلاك تتضمن مع صغر حجمها ما يمكن أن يتضمنه كتاب أو مجلد .

ويقسم العصر الحاضر بسمة السرعة في كل شيء ، فواصلاته سريعة ، ومجال النشاط فيه لا يقف عند حدود المدن أو الممالك ، بل يمتدداها إلى جميع أطراف الأرض .

ولهذا يبدو أن الكتابة ستفقد أهميتها في التسجيل والتدوين ، وسيحل محلها التسجيل الصوتي حين تصبح أدواته في متناول الناس جميعاً .

فالاستقبال للسمع لا للعين ، والثقافة عن طريق العين ستفقد كثيراً من سلطانها ، وسيكون للسمع الميزة الأولى ولا سيما في الملكات اللسانية وصناعة القول . ولا نشك في أن السمع حينئذ سيصبح أكثر حساسية ، يميز دقائق الأصوات ومتباين النبرات ، مما سيؤدي حتماً إلى أن يصير الكلام أقرب إلى (م ١٣ — الألفاظ)

الموسيقى . وهنا يمكن أن يقال إن الثقافة اللغوية قد عادت كلها إلى الوسيلة الطبيعية وهي حاسة السمع ، لاستمعين إليها ، ولا تحتاج إلى ما اصطنعه الإنسان من وسائل ناقصة كالكتاب والقلم .

ومثل التعليم السمعي عند العرب القدماء مثله الآن عن طريق الإذاعة ، غير أن فرص السماع الآن أكثر ، ومجالها أوسع وأشمل . في حين أن طالب الثقافة من العرب القدماء كان عليهم أن يشهدوا الأسواق والمحافل بأنفسهم ، وأن يتجشموا في ذلك من التنقل والأسفار ما لم يكن في وسع كل منهم .

وفي مثل هذه البيئة الأمية لا تكاد تميز معالم الكلمات وحدودها تميزها بين القارئ والكاتبين . وذلك لأن القارئ حين يسمع كلمة من الكلمات تنطبع في ذهنه صورتان لها ، إحداها سمعية منطوقة والأخرى بصرية مكتوبة ، فيربط بين هذه وتلك ربطاً وثيقاً . فالكتابة للصورة السمعية بمثابة القيود والأغلال تمنع الكلمة من الاختلاط أو الامتزاج بكلمة أخرى سابقة أو لاحقة . ولا عجب أن رى الفقوش اليمنية القديمة^(١) قد فصل فيها بين كل كلمة من كلماتها بخط رأسي ، حتى بين المضاف والمضاف إليه ترى ذلك الخط الرأسي الفاصل بين الكلمتين مثل [ملك ! سباً] ، مما يبرهن على شعور الكاتب شعوراً قوياً بمحدود كل كلمة .

أما الأُمى الذى لا يقرأ ولا يكتب فلا يكاد يدرك اللفظ إلا في شكل عبارات وجل لا انقسام بين أجزائها .

وقد دلت التسجيلات الصوتية على أن الناطق لا يحاول تمييز حدود الكلمات بل ينطق بمجموعة منها في جملة أو عبارة وقد تشابكت أطرافها واختفت حدودها ولا يكاد يتوقف عن النطق إلا حيث ينقطع النفس ، أو حيث ينتهى الكلام إلى معنى مستقل بالفهم يحقق الهدف من النطق .

(١) المختصر في اللغة العربية الجنوبية القديمة تأليف المسقعرق أ . جويدى . ص ٣ .

من أجل هذا يجمع المحدثون من اللغويين على أن اللغة المكتوبة المخطوطة ، أقل استمداداً للتطور من المخطوطة فقط . وذلك لأن الكاتب يحاول المسودة بالكلمة إلى ما كانت عليه كلما أصابها انحراف في الألفاء وعلى الألسنة .

واللغة العربية التي اصطلحت في الآثار الأدبية الجاهلية قد نشأت وازدهرت في ظل الأمية ، وهي اللغة التي حاول القدماء من العلماء الاحتفاظ لها بكل خصائصها القديمة التي منها ما يمكن أن يعزى إلى شيوع الأمية كالموسيقية في الكلام .

- ٣ -

موسيقية الأدب العربي

يصف كثير من الدارسين لغتنا العربية بأنها لغة موسيقية وأنها انحدرت إلينا وقد اكتسبت هذه الصفة منذ أقدم عهودها أو أقدم نصوصها ، ولكني لا أعرف أحداً من هؤلاء الدارسين قد ربط بين هذه الموسيقية وبين ما شاع لدى العرب القدماء من الأمية أو ندرة النראה والكتابة .

وفي رأي أن ظاهرة الموسيقية في اللغة العربية تمرى في أغلب عناصرها إلى تلك الأمية حين كان الأدب أدب الأذن لا أدب العين ، وحين اعتمد القوم على مسامعهم في الحكم على النص اللغوي ، فاكتمست تلك الآذان المران والتميز بين الفروق الصوتية الدقيقة ، وأصبحت مسرعة تستريح إلى كلام لحسن وقعه أو إيقاعه ، وتأتى آخر لنبوه ، أو لأنه كما يعبر أهل الموسيقى نشاز .

وكما تمرن الآذان في بيئة الأمية تمرن الألسنة أيضاً ، فتطلق من عقالها وقد اكتسبت صفة الدلاقة ، فلا تتمعثر أو تزل في أثناء النطق . وتعاون الأذن مع

الإنسان في مثل تلك البيئة على إظهار العناصر الموسيقية من اللغة ، ونفى العناصر الغابية والتخلص منها ، ويؤدي هذا مع مرور الأيام — وبشرط أن تظل الأمة في نهضتها الاجتماعية والحضارية — إلى انسجام في أصوات الكلام وحركاته ومقاطعته ، ويقترّب بذلك إلى نوع من الموسيقى أو النقاء .

ويرى الدارس للأدب العربي أن للعصر الجاهلي آثاراً أدبية أكثرها من النظم ، وأقلها من النثر ؛ بل يرى أن ما روى من النثر قريب الشبه بما روى من النظم ، ففيه تنظم القافية بين عدد من العبارات ، ولكنه لا يكاد يخضع لنظام توالي المقاطع الذي نألفه في المنظوم .

ثم قد يبدو لدارس الأدب العربي أن يفسر لنا عناية هؤلاء القدماء بالأدب عامة والشعر بصفة خاصة فيلتمس التفسير حيناً من بيئة العرب ، كالجاحظ حين يقسم الشعوب أقساماً ، فيرى أن اليونان أصحاب فلسفة ومنطق ، وأن الفرس أصحاب تقليد ونقل ، وأن أهل الهند أصحاب حكمة وأخلاق ، فأما البيان في الشعر والنثر فخط العرب وحظهم وحدهم .

وطوراً يلتمسه من طبيعة العربي كالفناني الجرجاني حين يقول [إن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطابع والرواية ، والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه] .

ومهما تكن الأسباب الأصلية التي ساعدت على نشأة هذه الشعاعية العربية فالذي يمتثلنا هنا أن نتذكر أن الأدب الجاهلي قد نما وازدهر في مجتمع لا يصطنع الكتابة والقراءة ، وظل هذا المجتمع العربي قبل الإسلام بضعة قرون يرعى تلك النهضة البيانية ، ويعمل على ازدهارها . ولم يكن للشعر خلال هذه القرون إلا الصورة الصوتية ، تتردد على الأسماع فتكسبها المراتب وعادة التمييز بين الكلام المشترك على الإيقاع والنظم .

ونلاحظ أسمى درجات الموسيقى في أوزان الشعر وفوافيه ، أما نثرهم فنراه ممثلاً خير تمثيل في خطبهم ووصاياهم تلك التي ألهمهم فيها إلى حد كبير تردد أصوات بعينها في نهاية العبارات والجلل .

ولا شك أن كلام من الشعر والخطابة ، كلام قصده به أولاً وقبل كل شيء التأثير في العاطفة ، وسر هذا التأثير يكمن أن يكون عن طريق الجمال في المعنى ، أو عن طريق الإيقاع والنغم في اللفظ . ويعجب القارئ الكاتب عادة بمعاني الكلام أكثر من إعجابه بوقعه في الأسماع ، في حين أن الأذى المرهف الأذن يستجيب أولاً لرنين اللفظ ونغمه ، وقد يفعل له ويتأثر به تأثراً قوياً وإن خلا من جمال في مضمونه ومعناه .

لهذا نرجح أن الشعر العربي القديم عني أولاً بالموسيقى ، وشغلته الأوزان والألغام عن المعاني والتعمق فيها . ولعل هذه الظاهرة لم يقتصر أمرها على الشعر العربي القديم ، بل شملت كل الأشعار القديمة للأمم الأخرى ، كالفصائد الجرمانية القديمة ، وأشعار اليونان في عصورهم الأولى ، ونحو هذا من الأشعار التي رويت ولم تكتب ، أو التي نشأت في بيئة أمية .

غير أن أمية العرب قد ظلت شائعة بينهم رغم ما وصلوا إليه في عصر ما قبل الإسلام من ناحية عقلية أرقى كثيراً مما كانت عليه البيئة الإغريقية أيام حروب طروادة ، ورغم ما وصل إليه العالم الإنساني أيام هؤلاء الجاهليين من رقي وحضارة واعتماد كبير على القراءة والكتابة .

لذلك لا نقالي حين نقرر هنا أن أثر الأمية في شعر العرب القدماء أعمق من أثرها في شعر غيرهم من الأمم القديمة .

بل لا نعرف أمة أخرى من الأمم قد ظهر لها مثل ذلك الأدب الجامع في كثرته وإحكامه واعتزاز أهله به وتوفرهم عليه ، ثم كانت مع ذلك أمة أمية أو شاعت فيها الأمية على النحو الذي روى لنا عن العرب القدماء .

فلاذى أود أن نذكره دائماً هو أن كل الأمم قد بدأت حياتها و جوالأمية ،
وأنه من المحتمل أن يكون قد نشأ لبعض منها نوع من الأدب فى هذا الجو أو
تلك الظروف ، ولكن ليس من بينها أمة قد عنت بتلك الآداب التى نشأت فى
ظروف أميتها إلا العرب .

فالفارق الهام بين أمة العرب وغيرهم من الأمم ، أن العرب صرخوا بعمهودم
البداية وهم أميون ، وكان لهم آداب ترجع ربما إلى ما قبل المسيح ، ثم تطورت
هذه الآداب فى ظل الأمية حتى اكتمل تطورها ، وأخذت صورة الأدب الفاضل
وهى لا تزال على الأمية باقية .

عنى العرب إذن بموسيقية الكلام ، لأنهم لم يكونوا أهل كتابة وقراءة ، بل
أهل سماع وإنشاد ، وظلت هذه الخاصية بارزة فى الشعر العربى فى كل المصور ،
حتى بعد أن نشأت الموشحات ، وأريد بها الخروج عن نظام القافية الواحدة
والوزن الواحد ، نرى أن هذه الموسيقية قد تنوعت ألوانها وتباينت نغماتها حين
انتقل أبناء العرب إلى البيئات الطبيعية المتعددة الألوان ، من حفيف للأشجار ،
وغناء للأطيار ، ووقع للأمطار ، وأصداء مختلفة لأصوات الطبيعة حيث
تتمزج فتألف ، وتوحى بنوع من الموسيقية التى لا تسير على وتيرة واحدة كما
كانت فى شبه الجزيرة ، ولكنها موسيقية الكلام على كل حال . فقد ظل أثر
الموسيقية الجاهلية — والسائد فى كل المصور حتى بعد أن أصبحت المملكة
العربية أبعد ما تكون عن الأمية أو ما يشبه الأمية . وذلك لأن الأدباء فى كل
المصور قد اتخذوا من تلك النماذج القديمة نصباً يحجون إليها ، ويلتمسون منها
الإلهام والوحى .

ولأمر ما مى الأعشى بصفاة العرب ، فهو مع اشتراكه فى الأمية كجمهور
الناس فى بيئته قد عوض عن فقد البصر بسمع مرهف ، وأذن أكثر حساسية ،

جعلته يتجه بكل قلبه ونفسه نحو هذه الموسيقى اللفظية ، وبوغل فيها حتى تميز شعره بصلاحيته للغناء أكثر من غيره .

ولأمر ما كان أبو العلاء المعري أول شاعر عربي أفت نظرنا إلى ماسماه بالزوميات ، فقد قضى أبو العلاء كل حياته يسمع ولا يكتب ، وأرهفت أذنه وسمعه بعد ذلك المران الطويل .

بل لا أكون مغالياً حين أقول إن أوضح ما يميز به الأدباء المكفوفون في أدبهم هو عنايتهم بحرس الألفاظ ووقعها الموسيقي ، وكثيراً ما تشغلهم موسيقى الكلام عن مراميه وأهدافه ، فيغمرون المعنى القليل بفيض من الألفاظ والعبارات المتكررة ذات المعنى الواحد أو المتشابهة الدلالة .

ويصف الناقد الحديث القصيدة العربية بخلوها من الوحدة ، فلو قد اقتطف منها بعض أبياتها لم يخل هذا بكيانها ، أو ينقص من قدرها شيئاً . وهو في هذا الوصف يتناسى أن العربي قد اتخذ وحدة القصيدة من الوزن والقافية ، لأن عنايته بالموسيقى والنغم قد فاقت عنايته بالمعاني والأخيلة ، فليست القصيدة مفككة الأوصال كما قد تبدو ، بل شغل العربي بموسيقاها ، وأصبح يفعل لكل بيت ، ويستجيب لوزنه وإيقاعه كلما تكررت القافية ، واتحد نظام توالي المقاطع .

ولذا لاندھش حين يروى عن أحد الشعراء أنه قال متحدثاً عن المأمون (أسمعته الساعة يبقا لوشاطرني عليه ما كنهه لكان قليلا) . وكان أبو نواس يسمع البيت من الحسين بن الضحاك فيتوعده بأشد الوعيد إن لم يترك له هذا البيت . وكان القدماء من نقاد العرب يحكمون على الشعراء وشعرهم بالبيت الواحد . فيروى عن الأصمعي قوله « أغزل بيت قالته العرب : وما ذرفت عيناك إلا لتقصري .. » ، وقوله إن أهجى بيت قالته العرب : قوم إذا استنجح الأضياف كلهم ... بل سمي زهير قاضي الشعراء ببيت من الشعر هو :

فإن الحق مقطعه ثلاث أداء أو تقار أو جلاء
أما أمدح بيت فني رأى بعينهم قول الخطيئة : يفسون حتى ماتهم
كلامهم . . .

وفى رأى ثعلب قول الأعشى : فنى لوبيارى الشمس ألفت قناعها
وقال أبو عمرو هو بيت جرير : الستم خير من ركب الطايا
وقال غيره بل بيت الأخطل : شمس العداوة حتى يستقاد لهم

فأحكامهم موجزة سريعة ، ومجالس عبد الملك بن مروان مليئة بتلك الأحكام
الجزئية كقوله لكثير عزة (أما والله لولا بيت أنشدتني قبل هذا لحرمتك جارتك) .
وكان يقارن بين الفرزدق وجرير على أساس بيت واحد لكل منهما ، فالفرزدق
يقول (فإني أنا الموت الذي هو واقع) ، فيجيبه جرير بقوله (أنا الدهر يفتي
الموت والدهر خالد) !! .

فالشاعر العربي لرغبته في إطالة القصيدة ، وشدة اعتزازه بموسيقاها قد أحل
نفسه من وحدة المعنى فيها ، مكتفيا بوحدة الوزن والقوافي ، ولم تسعفه ألفاظ
اللغة وكلماتها في الجمع بين هاتين الوجدتين .

وليس من نافلة القول هنا أن نعرض عرضا سريعاً لقضية اللفظ والمعنى ، تلك
القضية التي ظلت مفات البحث والجدل فترة طويلة بين النقاد القدماء . وكان
من بين هؤلاء النقاد من نادى بما نفاذى به الآن من أن اللغة العربية ممثلة في
نصوص الآداب المروية تعد من اللغات التي عنيت باللفظ أكثر من عنايتها
بالمعنى ، أو بعبارة أخرى عنيت بموسيقى الكلام أكثر من عنايتها بمضمونه .
غير أننا في نداءنا بهذا الرأي نمزوه إلى الظروف الاجتماعية التي نشأت فيها تلك
الآداب ، من شيوع الأمية بين العرب ، واعتمادهم على السمع والمشافهة في تلقى
النصوص وتداولها .

وكان ممن تشيعوا للفظ والصياغة « الجاحظ » ، وتبعه في هذا كثيرون من الذين جاءوا بعده من ناقدى الأدب ودارسيه . فلنستمع مثلاً إلى أبي هلال المسكري إذ يقول (ليس الشأن في إيراد المعاني ، لأن المعاني يعرفها العربي والأعجمي والقروي والبدوي ، وإنما هو في إجادة اللفظ وصفاته وحسنه وبهائه ... الخ) .

ولم يكد ينتصف القرن الرابع الهجري حتى رأينا نقاد الأدب العربي قد انقسموا فريقين : فريق ينتصر للفظ وآخر المعنى .

ويلخص ابن رشيق ^(١) في كتابه العمدة هذه القضية فيقول (اللفظ جسم وروحه المعنى) ثم يقول (وللناس في هذا آراء ومذاهب ، منهم من يؤثر اللفظ على المعنى كقول بشار :

إذ ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أوقطرت دما

ومن هؤلاء فرقة أصحاب جليلة وقعقة بلا طائل معنى إلا القليل النادر) ، ثم يقول (ومن الناس من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ، ولا يبالي حيث وقع هجئة اللفظ وقبحه وخشونته ، كابن الرومي وأبي الطيب المتلبى) . ثم يختتم ابن رشيق هذا الفصل بقوله (وأكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى) .

ويعقد ابن جنى في الخصائص ^(٢) فصلاً مستفيضاً عنوانه (في الرد على من ادعى على العرب عنايتهم بالألفاظ وإغفالها المعاني) . ويقيم ابن جنى من نفسه مدافعاً عن الأدب العربي ، فيعلل عناية العرب بالألفاظ بقوله « لأنها لما كانت عدوان معانيها ، وطريقاً إلى إظهار أغراضها ومراميتها ، أصاحوها ورتبوها وبالقوا

(١) توفي في منتصف القرن الخامس الهجري .

(٢) ص ٢٢٣ .

في تحجيرها وتحسينها ليكون ذلك أوقع في السمع وأذهب بها في الدلالة على القصد،
ألا ترى أن المثل إذا كان مسموعاً لذ سامعة فحفظه ... الخ).

ثم لا يلبث ابن جني في هذا الفصل أن يعود إلى طبيعته كنفحوى لاناقد
أدب ويبدأ في شرح مدلولات بعض الصيغ فيقول (فصيحة « أفعل » للنقل وجعل
الفاعل مفعولاً نحو دخل وأدخلته ، وصيغة « فاعل » لكونه من اثنين فصاعداً
نحو ضارب زيد عمرأ ... الخ) .

وعلى هذا النهج العجيب يستمر في دفاعه . ولا يزيد بعد هذا أن تستدرجنا
قضية اللفظ والمعنى إلى أكثر مما سبق ذكره . ويكفي أن كثرة من ناقدى الأدب
القدماء قد فطنوا إلى عناية العرب بألفاظهم وموسيقائهم ، وإن لم ينسبوا هذا
إلى سبب واضح أو علة ظاهرة .

وليست تقتصر موسيقية الشعر العربي على نظام المقاطع في الأبيات ، أو نظام
القوافي في أواخرها ، بل تشمل أيضاً تلك الظاهرة التي سماها علماء البلاغة
بالجناس ، وهو تردد الأصوات المتماثلة أو المتقاربة في مواضع مختلفة من البيت
الواحد . وشواهد في الأدب العربي قديمه وحديثه غزيرة جداً ، مما يدل على
حب العرب لهذا اللون من الموسيقية الكلامية ، كقول أوس بن حجر :

غر غرائر أبكار نشأن معاً خشن الخلائق عما يتقى زور
وقول الخطيئة :

وإن كانت العماء فيهم جزوا بها وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا
وقول كعب بن زهير :

ولقد علمت وأنت خير عليمه أن لا يقربني الهوى لهوان
وقول الخنساء :

إن البسكاه هو الشفاء من الجوى بين الجوانح

وقد عنى علماء البلاغة من المتأخرين بإبراز هذه الظاهرة الموسيقية ، وأنفوا فيها كتباً ورسائل عرضوا فيها الأمثلة من كل عصر ، وقسموا الجنس إلى تام وناقص ، وفرعوا لكل قسم من القسمين فروعا يطول شرحها ، ويمكن الرجوع إليها في المطولات من كتب البلاغة . ولعل أهم صفة تميز الجنس التام من الجنس الناقص هي أن التام تتردد فيه كلمة بعينها سواء سحب هذا التردد اختلاف معناها ، أو لم يصحبه ، مثل قول ابن الرومي :

للسود في السود آثار تركن بها وقعا من البيض يثنى أعين البيض

أما في الجنس الناقص فيكتفى بتعدد بعض أصوات الكلمة ، كمعظم الأمثلة التي وردت في الشعر العربي القديم .

هذا هو ما كان من شأن الشعر العربي ، أما النثر القديم فقد بدأ موسيقياً أيضاً ، وظلت تلك الموسيقية تلازمه في معظم عصور اللغة ، ولم يخرج عنها إلا بعض المفكرين من الأدباء أمثال ابن المقفع وغيره في عصر المأمون ممن تأثروا بما ترجم عن الفرس واليونان والهنود . ثم عادت الكتابة بعد هؤلاء إلى الموسيقية ممثلة في الأسجاع والازدواج وظلت سوقها رائجة إلى عهد قريب من عصرنا الحديث .

وقد رويت لنا نماذج من نثر الجاهليين في صورة خطب ووصايا أسست كلها على موسيقية اللفظ ، والتزام نظام القافية أو الفاصلة ، وفيها وجهت كل العناية إلى الأصوات فعمرت المعاني ، وأصبح من المؤلف التعبير عن المعنى القليل بالفاظ كثيرة . فاستمع لما يروى عن « مرثد الخير بن ينفك » : (قبل اتكث العهد ، وانحلال العقد ، وتشئت الألفة ، وتباين السمعة) تجد أن كل هذه العبارات ذات معنى واحد . ثم استمع إلى قول طريف بن العاصي : (تالله ما سمعت كاليوم قولاً أبعد من صواب ، ولا أقرب من خطل ، والله أيها الملك

ما قتلوا بهجيتهم بنذا ، ولا رقوا به درجا ، ولا أعطوا به عقلا ، ولا اجتفتوا به
خسلا) ، فهذه كلها أمثلة يراد بها معنى واحد هو أنهم لم يبالوا ثأره ! ! !
أو استمع لنصيحة ذى الإصبع العدواني لابنه : (أن جانبك لقومك محبوبك ،
وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك) نجد أن كل هذه العبارات
لا تكاد تؤدي إلا معنى واحداً ! !

فالنثر العربي في عصوره الأولى قد انتظمته تلك الموسيقية ممثلة في العبارات
المسجوعة حيناً ، أو المتوازية حيناً آخر . وقد بدا لبعض الدارسين أن الإسلام
بعض من هذه الظاهرة الموسيقية حين قضى الرسول صلى الله عليه وسلم بديعة
الجنين فقال رجل في مجلسه (كيف ندبى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح
فاستهل ، ومثله دمه يطل) ؟ فقال الرسول (إياكم وسجع الكهان) . وقد وضع
ابن الأثير هذا الحادث بقوله (إن النهى لم يكن عن السجع نفسه ، وإنما النهى
عن حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع) .

ومن مظاهر الموسيقية في نثر اللغة تلك العبارات الكثيرة التي تشتمل على
ما يسمى بالازدواج أو الزاوجة مثل (حسن بسن ، شيطان نيطان ، عفريت
نقرت) ونحو هذا من عبارات تنتهى بكلمات لا معنى لها ولا تستعمل مستقلة ،
وإنما جيء بها لتقوية البنية فيما يسبقها من كلمات بتدريج الأصوات المتأثلة ، وإن
لم تفد معنى جديداً في غالب الأحيان . وقد جمع ابن فارس في كتيب صغير مجموعة
كبيرة من أمثال تلك العبارات وسمى كتابه بالإتياع والزاوجة .

ومن العبارات التي رويت في الإتياع وتكلف الرواة لها دلالة معينة :

١ - أسوان أتوان : حزين متردد لا يستقر على حال من شدة الحزن .

٢ - عطشان نطشان : عطشان قلق .

٣ - خزيان سوان : مستخز لقبح الأمر .

- ٤ — هنيء مريء : أسعده الطعام وسره .
- ٥ — عيى شوى (شيبى) : عيى رذل .
- ٦ — عريض أريض : الأريض الخلق للخير الجيد النبات .
- ٧ — غنى ملى : غنى جداً .
- ٨ — خبيث نبيث : النبيث الذى يفتش عن خفايا الناس ، وكان من حق الصحيفة أن تكون « نابت » ، ولكن للإتباع جعلت « نبيث » !
- ٩ — خفيف ذفيف : الذفيف السريع .
- ١٠ — قسيم وسيم : جميل جداً .
- ١١ — قبيح شقيح : قبيح جداً .
- ١٢ — كثير بشير : كثير جداً .
- ١٣ — كثير بذير : كثير مبمثر .
- ١٤ — ضئيل بثيل : صغير الحجم .
- ١٥ — شحيح نحيح : النحيح الذى ينفخ إذا سئل عن الشئ .
- ١٦ — سليخ مليخ : لا طعم له .
- ١٧ — أشر أفر : أشر بطر .
- ١٨ — هذر مذر : الكثير الكلام الفاسد .
- ١٩ — حقير فقير ، حقر نقر : حقير مهمل القياد متهاون به !
- ٢٠ — شكس لكس : شكس عسير متعب .
- ٢١ — سمج ايج : المص الكثير الأكل لا يبقى على شئ !
- ٢٢ — أجمون أكتعون : كاهن .

أثر الأمية في وصل الكلام

يبدو أن جوّ الأمية في شبه الجزيرة العربية ، والاعتماد على السمع وحده ، قد ربط بين الألفاظ في الكلام المتصل ربطاً وثيقاً ، أدى في آخر الأمر إلى ظهور تلك الحركات التي وصلت بين الكلمات ، وسميت فيما بعد بحركات الإعراب . ذلك لأن وحدة اللغة عند الأمي هي الجملة المفيدة ، أو العبارة المرتبطة الأجزاء ، ولو استطاع الأمي ألا يقف عن الكلام إلا حيث ينتهي غرضه لفعل .

من أجل هذا قد تتأثر أواخر الكلمات بأوائل التي تليها ، وبشأ بين الكلمتين المتواليتين نوع من الربط في صورة حركة في غالب الأحيان . وهكذا نشأت ظاهرة الإعراب في اللغة العربية .

والأمي والقاريء على السواء قد ياتمس تلك الحركة للربط بين كلمتين متواليتين حين تدعو الضرورة الصوتية في أثناء عملية النطق ، غير أن الفارق بين الأمي والقاريء هو أن القاريء لا يكاد يشعر بتلك الحركة ، بل حين نوجه نظره إليها لا يكاد يذنبها أو يقر بوجودها ، لأنه تعود أن يكتب كل كلمة وحدها ، وأن يميز لها هجاء مستقلاً ، مما أفقد تلك الحركات الرابطة في نطق القارئين السكانيين بعض حقها الصوتي لأنه يختلسها اختلاصاً .

والأمي الذي لا يعرف للكلام إلا الصورة السموعة أحرص على النطق بذلك الرابط الصوتي ، دون أن يعرف له كنهها بطبيعة الحال ، فهو عنده كأي صوت آخر من أصوات الكلام ، به يصح النطق ، وبغيره يتمثر الكلام .

لهذا حين سمع علماء اللغة القدماء نطق الأعراب من الأميين تبين لهم بوضوح أن تلك الحركات الرابطة أوضح في نطق الأعراب من نطقهم هم أنفسهم لعبارات اللغة العربية ، فوضعوا لها القواعد المألوفة في علم النحو .

وقد بينت في بحث لى من قبل^(١) أن حركات الإعراب لا تعدو في نشأتها أن تكون بمثابة الروابط بين الكلمات ، وأوضحت في هذا البحث أن نظام المقاطع في نطق العربى يلزم طريقاً خاصاً ، ويتطلب تلك الروابط في معظم الأحوال . فهى ضرورة صوتية ، أما الذى قديمين حركة معينة فأحد عاملين : أولها إشار بعض الحروف لحركات معينة كحروف الحلق حين تؤثر الفتح ، وثانيهما انسجام هذه الحركة الرابطة مع ما يكتنفها من حركات أخرى .

وأكبر دليل على أن تلك الحركات الرابطة كانت تراعى في غالب الأحيان هو الوزن الشعرى الذى لا يستقيم بغيرها . فإذا لم تكن هناك تلك الضرورة الصوتية توقعنا أن تبقى الكلمة على سكونها ، أى أن بعض الكلمات التى وردت في الشعر القديم لا تحتاج إلى تحريك آخرها ، ولا يخل هذا بالوزن الشعرى .

ونسكتفى هنا بأن نعرض لأربعة من أشهر بحور الشعر العربى ، متخذين من بعض شواهد الدليل على ما نقول . نفى البحر الكامل والوافر والبسيط والخفيف ، يمكن الاستغناء عن بعض تلك الحركات الرابطة في الموضع التى لاتدعو الضرورة الصوتية لتحريكها ، دون إخلال بالوزن أو معارضة لأقوال العروضيين .

نفى قصيدة لشاعر حديث من البحر الكامل مطلعها :

أدرك بفجرك عالماً مكروباً عوذت فجرك أن يكون كذباً

وعدها ٦٥ بيتاً ترى أن بها نحو ١٩ كلمة لا ضرورة لتحريك آخرها
مثل قوله :

يا أيها السلم المطل على الورى طوبى لعمرك إن تحقق طوبى

فكلمة « تحقق » لا ضرورة لتحريك آخرها ، وكل الذى يحدث حينئذ فى هذا البحر أن « متفاعلين » نصبح « مستعملين » وهو كثير وحسن فى كل الأشعار التى جاءت منه .

ومن أمثلة البحر الوافر قول الشاعر الحديث :

وكم ضاق الجمال بطالبيه وأوذى بالتجمل والخضاب

فكلمة « التجمل » لا ضرورة لتحريكها ، وكل الذى يترتب على هذا أن « مفاعلاتن » تصبح « مفاعلاتن » ، وهو مقبول حسن فى النظم من هذا البحر .

ومن أمثلة الخفيف قول الشاعر الحديث :

أنت مهما شقيت أرفه حالا من أسير الجزيرة المكمود

فكلمة أرفه لا ضرورة لتحريكها ، وكل الذى يترتب على هذا أن « فاعلاتن » تصبح « مفعولان » وهو مقبول حسن فيما نظم من هذا البحر .

أما البحر البسيط فشكل الذى يترتب على عدم التحريك هو أن « فمِلين » تصير « فعان » فى آخر الشطر الأول دون تصريح ، وفى حشو البيت مثل :
يا طالما حدثتني النفس قائمة أنحن أنعم أم أجدادنا بالآ
كانت حياتهم وتضيق بساطتها عليهم من هدوء الببال سربالا

ومن الغريب أن أصحاب العروض على كثرة ما جوزوه فى هذا البحر لم يسيروا إلى مثل ذلك إلا فى نهاية البيت . ومع ذلك فيجوزون قول الشاعر القديم :

إن أمس لا أشتكى نصبي إلى أحد ولست مهتديا إلا ممي هادى
نمت أطعمت زادى غير مدخر أهل المحلة من جار ومن جاد

فالذوق والأذن يمكن بغير ما أهمل أهل العروض ، وأحسبكم فى هذا إلى آذان الشعراء ومن قرأوا كثيراً من الشعر العربى .

أما حين نساأل أنفسنا عن السر فيما قد يقع فيه المتكلم أو القارئ من الخطأ الإعرابي ، نرى هذه الحركات الإعرابية تتعارض في كثير من أحوالها مع قانون هام من قوانين النطق هو ما نسميه « الميل إلى انسجام الحركات المتجاورة وتأثر بعضها ببعض ، وهو ما يسميه الأوربيون « Vowel-harmony » .

فهذه الحركات الإعرابية كما وصفها الفحاة تعارض في الكثير من الأحيان الميل العام للناطقين ، ولذا أهمالها معظم الألسنة أو تغيرت فيها .

وأولئك الذين يخطئون في هذه الحركات الإعرابية صنفان من الناس : منهم من اتصل بقواعد الفحاة أيا كان هذا القدر من الاتصال ، وهؤلاء قد يكون السر في خطئهم الإعرابي أنهم لم يسيطروا على تلك القواعد فاختلف عليهم أمرها ، وأصبحوا يقيسون بعض المواضع على بعض ما درسوه أو سمعوه قياساً خاطئاً ، فمن صادفته كلمة كالسبيل مثلاً ورآها في أكثر ماقرأ أو سمع مرفوعة قد يجنح إلى رفعها حيث تتطلب قواعد الفحاة أن تكون مكسورة مثلاً . ولعل كثيراً من تلك الأخطاء الإعرابية التي نسمعها من أفواه المتعلمين الآن ترجع إلى ذلك القياس الخاطئ .

أما الصنف الثاني ممن يخطئون في الحركات الإعرابية فهم أولئك الذين لم يتصلوا بالدراسة النحوية ، وهؤلاء ينساقون مع طبيعة النطق ، ويتركون الحركات يتأثر بعضها ببعض .

فالتلميذ الصغير الذي يسمع مدرسه يقرأ له النص القرآني قراءة صحيحة وتكرر على سمعه تلك القراءة الصحيحة في صورة جمية ، راه حين يطالب منه التسميع قد ينحرف لسانه فيجمل المرفوع مذسوبا أو المجرور مرفوعاً ، لالسبب سوى أنه انساق مع طبيعة النطق .

وقد تتبعنا هذه الظاهرة في مدارس مختلفة ، وفصول متعددة فرأينا كثيراً من التلاميذ ينصبون كلمة « الإنسان » في النص القرآني (أيحسب الإنسان) (م ١٤ — الألفاظ)

أن لن نجمع عظامه) ، ويقولون في (ولا يكون لأنفسهم ضرراً ولا نفعاً)
لأنفسهم بضم السين .

وأكتفى بهذا القدر في الحركات الإعرابية التي أرجح أنها كانت للربط
بين الكلمات ، وأن نشأتها ترتبط بأمية العرب أو بموسيقية الكلام ارتباطاً
وثيقاً .

أثر الأمية في دلالة الألفاظ

الأصل في الألفاظ أن يختص كل لفظ بمعنى معين ، بهذا جرت السكثرة الغالبة
من ألفاظ اللغات في العالم ، غير أننا نعرف أن أمور الحياة الدنيا متداخلة متشابكة
تكوّن في مجموعها نظاماً متماسك الأطراف ، ولا غرابة إذن أن نرى معنى يقترب
من آخر ، أو أن نرى جزءاً من معنى يشترك في عدة ألفاظ . ومع ذلك تتجه
معظم اللغات إلى تخصيص اللفظ بمعنى معين بصيغ له بمثابة العلامة متى طرقت
السمع أثارت في الذهن دلالة معينة يشترك في فهمها أفراد البيئة اللغوية .

ولا شك أن الألفاظ العربية في بدء نشأتها ، ولا ندري متى كانت هذه
النشأة ، قد قصد بها أن يعبر كل لفظ عن معنى معين ، وأن تكون له دلالة
المستقلة . ومهما قيل عن نشأة الألفاظ في لغة الإنسان الأول ، لا نستطيع أن
نقصور أنها يمكن أن توجد في عصورنا التاريخية إلا حين تدعو الحاجة إليها ،
بعد أن استقرت اللغة الإنسانية ، وأصبحت مهمتها الأساسية أن تتخذ وسيلة
التفاهم بين أفراد المجتمع .

ثم كان أن اشتدت عناية العرب القدماء بالألفاظ وموسيقاها ، فشفلتهم
هذه الموسيقية اللفظية عن ملاحظة الفروق بين الدلالات ، مما أدى إلى أن

كثيراً من الألفاظ التي كانت تعبر عن معانٍ متقاربة ، قد ازدادت قرباً واختلط بعضها ببعض ، ونسيت تلك الفروق أو تفوسيت ، وأصبح العربي صاحب الأذن الموسيقية يضحى بتلك الفروق في الدلالات حتى يتمكن من نظم قوافيه وتنسيق أسجاعه .

وهكذا رأينا أن الأدب الجاهلي والإسلامي قد شغلت موسيقاه أصحاب هذا الأدب عن تلك الدقة في معنى الألفاظ ، ولم تعد الألفاظ محددة الدلالة في غالب الأحيان ، وعدت الألفاظ بعضها على بعض ، مما ترتب عليه تلك الظاهرة التي لانعرف لها نظيراً في لغة أخرى وهي كثرة الألفاظ المترادفة .

ولست أريد هنا أن أثير جدلاً أو نقاشاً حول هذه الظاهرة ، وما إذا كانت تعد ميزة للغة العربية أو عتبة في تمييز الدلالات ، فقد تختلف وجهات النظر في هذا ، وإنما الذي أهدف إلى توضيحه أن ظاهرة كثرة الترادف قد أصبحت خاصية للفتنة العربية ، ولأنكاد نشرکہا في هذا لغة أخرى .

واللغوى الحديث لا يحاول تفضيل لغة على أخرى ، بل يعجب بكل لغة ، ولا يفتقر إلى ما اتصفت به إلا على أنه خصائص لهذه اللغة ، عليه أن يدرسها وأن يبحث عن سرها .

ومهما حاول بعض الاشتقاقيين من علماء اللغة كابن دريد وابن فارس وأمثالهما ، أو بعض الأدباء من أصحاب الخيال الخصب الذين يلتهمسون من ظلال المعاني فروقا بين مدلولات الألفاظ ، أقول مهما حاول هؤلاء أو هؤلاء إنكار وقوع الترادف في ألفاظ اللغة العربية فليس يغير هذا من الحقيقة الواقعة شيئاً . فالترادف قد اعترف به معظم القدماء ، وشهدت له النصوص ، وإن كان بعض الذين قالوا به قد غالوا فيه . فمنهم من يقول لنا إن للأسد نحو ٥٠٠ كلمة ، وللتيمان نحو ٢٠٠ كلمة ، وللداهية نحو ٤٠٠ كلمة ، وللعسل نحو ٨٠ كلمة ، وللسيف نحو ٥٠ كلمة ٠٠٠ الخ (١) .

(١) انظر كتاب « المعجمات العربية » ص ١٦٢ — ٢٠٣ .

والأصل في كل اللغات أن يعبر اللفظ الواحد عن المعنى الواحد ، ومع هذا فقد رى في النادر من الأحيان أن لغة ما تقبل أكثر من لفظ للدلالة على أمر واحد ، وهو ما يسمى بالترادف وقد تقبل لفظا واحداً للدلالة على أمرين مختلفين اختلافاً يديفاً ، وهو ما يسمى بالمشارك اللفظي . يقع مثل هذا في كل اللغات دون إصراف فيه ، ودون أن يتجاوز ذلك عدداً ضئيلاً جداً من ألفاظ اللغة .

أما الذي حدث في لغتنا العربية فهو أن مجموعة كبيرة جداً من ألفاظها قد تنازعا هذان الأمران الترادف والمشارك اللفظي ، وألفت فيهما الكتب المستقلة كما سنرى .

وكثرة الترادف في اللغة العربية أمر مفهوم نستطيع تفسيره ، فقد شغلت موسيقى الكلام أصحاب اللغة عن رعاية الفروق بين الدلالات فأهملوها أو تناسوها ، واختلطت الألفاظ بعضها ببعض ، أو تراكت في محيط واحد كسرب من الدحل يجتمع في خلية واحدة . أى أن الدلالة لم تصمد ولم تكن عصية على التطور والتغير ، بل اقتضت من أطرافها ، فالتفت الألفاظ المتعددة على المعنى الواحد . وهذا هو ما عبر عنه بعض القدماء بقولهم فقدان الوصفية حين كان للسيف اسم واحد وله خمـون وصفاً لكل وصف دلالة التميز : كالهندي الذي عرف بأنه سيف حاد رقيق في صلبه مرونة وكان يصنع في بلاد الهند ، واليماني الذي كان يصنع في بلاد اليمن مقوس النصل بعض الثقويس وله فرند ونقوش ، والمشرقي الذي كان يصنع في دمشق على شكل خاص متميز عن سابقه وهكذا .

ومع هذا فحين استعمل عقرة أمثال هذه الأوصاف في شعره لا نكاد نلاحظ تلك الفروق ، بل كل الذي يستعين من كلامه أنه عنى سيفاً جيداً ، وقد ألزمته النافية أو نظام المقاطع أن يستعمل الهندي في موضع ، واليماني في موضع آخر ، والمشرقي في موضع ثالث .

فحرصه على موسيقى شعره ونظام قوافيه قد جعله يتناسى تلك الفروق ، إن صح أنها كانت تراعى في وقت من الأوقات . .

أما الذى قد يصعب تفسيره فهو صمود معنى اللفظ في مثل هذه البيئة الأمية ، وإبائه التغير أو التطور ، حتى يكون له نظير في الصورة ، كالذى حدث فيما يسمى بالمشارك اللفظي . ولكن الألفاظ التي تعد من المشترك اللفظي قليلة جداً إذا قيست بالألفاظ المترادفة ، مما يرجح ما نادى به هنا من أن العناية قد وجهت كلها للأصوات دون المدلولات ، وأن المعاني في أغلب الحالات لم تصمد أمام عوامل التطور بل تغيرت أو انكشفت وتفسيت الفروق التي بينها .

وللمتارنة بين عدد الألفاظ المترادفة في اللغة العربية ، وعدد تلك التي تسمى بالمشارك اللفظي ، يجدر بالباحث أن يقوم بإحصاء هذه وإحصاء تلك من نصوص اللغة ، كأن تحصى في كل نصوص الأدب الجاهلي مثلاً .

ولا تصلح المعاجم التي بين أيدينا للقيام بمثل هذه المقارنة ، وذلك لأن ألفاظ المعاجم بمثابة الجثث الهامدة ، ولا يبعث فيها الحياة إلا النص واستعمالها فيه . فالحكم على دلالة اللفظ في نص ما أدق وأوثق مما لو استقيناه من المعاجم وحدها .

فإذا دلت نصوص اللغة على أن بين الألفاظ المختلفة الصورة فروقا في الدلالة مهما كانت تلك الفروق طفيفة ، لا يصح أن تعد من المترادفات ، لأن شرط الترادف الحقيقي هو الاتحاد التام في المعنى . والحكم في هذا مرجعه أولاً وأخيراً إلى الاستعمال ، لا إلى ما يكتن به بعض أصحاب المعاجم . كذلك إذا ثبت لنا من نصوص أن اللفظ الواحد قد يعبر عن معنيين متباينين كل التباين سمينا هذا بالمشارك اللفظي ، أما إذا انضح أن أحد المعنيين هو الأصل وأن الآخر مجاز له ، فلا يصح أن يعد مثل هذا من المشترك اللفظي في حقيقة أمره .

وقد كان ابن درستويه محققاً حين أنكر معظم تلك الألفاظ التي عدت من المشترك اللفظي ، واعتبرها من المجاز . فكلية الهلال حين تعبر عن هلال السماء ، وعن حديدة الصيد التي تشبه في شكلها الهلال ، وعن علامة الظفر التي تشبه في شكلها الهلال ، وعن هلال الفعل الذي يشبه في شكله الهلال ، لا يصح إذن أن تعد من المشترك اللفظي لأن المعنى واحد في كل هذا ، وقد لعب المجاز دوره في كل هذه الاستعمالات .

ذلك لأن المشترك اللفظي الحقيقي إنما يكون حين لا نلح أي صلة بين المعنيين ، كأن يقال لنا مثلاً إن الأرض هي الكرة الأرضية وهي أيضاً الزكام !! وكأن يقال لنا إن الخال هو أخو الأم ، وهو الشامة في الوجه ، وهو الأكمة الصغيرة .

ومثل هذه الألفاظ التي اختلف فيها المعنى اختلافاً بيناً قليلة جداً بل نادرة ولا تكاد تتجاوز أصابع اليد عدداً .

أما الكلمات التي تسمى بالأضداد فيعدها بعض اللغويين في هذا المشترك اللفظي رغم ما يرى بينها من صلة الضدية ، وهي صلة وثيقة بين الدلالات ، فلسنا نذكر الأبيض إلا ذكرنا معه الأسود ، ولسنا نذكر الغبي إلا ذكرنا معه الذكي ، وقد لعب التناؤل والتطير دوراً هاماً في نشأة تلك الأضداد .

ومع هذا فحين نسلم جدلاً بأن الألفاظ التي وضحت الصلة بين معانيها يمكن أن تعد من المشترك اللفظي رآها قليلة العدد إذا قيست بالترادفات ، فهي لا تكاد تتجاوز العشرات ، في حين أن المترادفات قد جاوزت المئات .

ولسنا نعرف من الكتب القديمة التي ألفت في هذا المشترك اللفظي سوى كتاب « الأجاس من كلام العرب وما اشبهه في اللفظ واختلف في المعنى » لأبي عبيد المتوفى ٥٢٢٤هـ ، وهو كتيب صغير يشتمل على نحو ٣٠٠ كلمة كلها مقتبسة من كتاب أبي عبيد نفسه المسمى بالعريب المصنف ، والذي لا يزال مخطوطاً حتى الآن .

وتروى كتب التراجم أن للاصمعي مؤلفاً يسمى « ما اتفق لفظه واختلاف معناه » ، ولا ندرى أين هذا الكتاب ! ؟

أما الأضداد فقد ألف فيها الاصمعي وابن السكيت وأبو حاتم السجستاني ، ثم جاء بعدهم ابن الأنباري وجمع أقوالهم في كتابه المشهور المسمى بالأضداد . ويعرض هؤلاء اللغويون في كتبهم المختلفة إلى نفس المجموعة من الألفاظ التي يقال إن كلا منها كان يعبر عن المعنى وضده .

وقد تبين لبعض الباحثين من المحدثين أن مثل هذه المجموعة لو غربلت وبحثت بحثاً علمياً صحيحاً لانتهى الأمر إلى أن ما يصحح أن يسمى منها بالأضداد لا يكاد يعدو عشرين كلمة ^(١) .

أما ما وقع في القرآن الكريم من ذلك المشترك اللفظي فقليل جداً ، وجله إن لم يكن كلمة ، مما نلاحظ فيه الصلة المجازية كالعين للباصرة ولعيون الأرض ، ويندر أن تصادفنا كلمة مثل « أمة » التي استعملت في القرآن بمعنى جماعة من الناس ، وبمعنى الحين في قوله تعالى « وادكر بعد أمة » ، وبمعنى الدين في قوله « إنا وجدنا آباءنا على أمة » .

في حين أن كلمة مثل « الخال » التي اشتهر أمرها في كتب المشترك اللفظي لم يرد لها إلا معنى قرآني واحد ، وكلمة الإنسان رغم استعمالها في القرآن نحو ٦٥ مرة ليس لها إلا معنى قرآني واحد ، وكلمة الأرض التي تذكر دائماً في المشترك اللفظي وردت في القرآن أكثر من ٥٠٠ مرة بالمعنى المؤلف وحده .

أما الترادف فقد وقع بكثرة في ألفاظ القرآن رغم محاولة بعض المفسرين أن يلمسوا فروقاً خيالية لا وجود لها إلا في أذهانهم للفرقة بين تلك الألفاظ القرآنية المترادفة .

(١) ج ٢ من مجلة المجمع العلمي ص ٢٨٨ .

وعلى كل حال رى أن الكتب التى ألفت فى المترادفات أو التى اشتملت على كثير من الألفاظ المترادفة أكثر عددا وأوفر مادة كما سنرى فى الفصل القالى، بدئت بذلك الكتب التى جمعت فيها الألفاظ الخاصة بموضوع معين أو مجال من القول محدد كرسائل الأسمعى وأبى زيد الأنصارى .

وانتهت كتب الترادف بكتاب نسمع عنه وإن لم نره لرجل أغرم بالمترادفات وشغف بها كل الشغف وهو الفيروزبادى وعنوان الكتاب (الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألف) !!

وليس كل ماورد فى هذه الكتب من المترادفات ، وإنما هى كتب تجمع فى ثماياها مجموعة كبيرة جدا من تلك الألفاظ المترادفة ، بوصفها كتباً مرتبة على حسب الموضوعات أو الدلالات . وليس يتصور أن يضم كتاب مستقل كل الكلمات الخاصة « بالمطر » مثلا دون أن يكون بين هذه الكلمات عدد من المترادفات ، كالا يعقل أن كتاباً يخصص لألفاظ « اللبن » دون أن يتضمن قدراً من الترادف . وأوسع هذه الكتب وأشملها هو كتاب المخصص لابن سيده ، فهو سبعة عشر مجلدا تضم بين ثماياها أكبر مجموعة من تلك الكلمات المترادفة .

على أن مؤلفى هذه الكتب كانوا يختلفون فى نظرتهم لدلالة الألفاظ . ففهم من كان يورد عدة ألفاظ للمعنى الواحد ، ومنهم من حاول فى القليل من الأحيان أن يلتصق فروقاً طفيفة بين معانى هذه الألفاظ ، كأن يرتبها ترتيباً تصاعدياً ، أو تنازلياً ، فيدعى الثعالبى مثلاً فى كتابه فقه اللغة أن مراتب الصمم هى : فى أذنيه وقر ، ثم الصمم ، ثم الطرش ، ثم الصلخ !!

ويبدو من الاستعمال القرآنى أن معنى « فى أذنيه وقر » لا يختلف مطلقاً عن معنى « الأصم » فى قوته أو ضعفه ، مما يجعلنا نتشكك فى كثير من تلك الفروق التى ساقها هؤلاء المؤلفون .

ولا نكاد نرى في كتب هؤلاء العلماء شواهد أو نصوصاً قديمة نستدل منها على ما يمكن أن يكون بين الدلالات من فروق، وأغلب الظن أن ما التمسوه من تلك الفروق لم يكن إلا من وحى خيالهم ، أو لعلمهم قد عز عليهم أن يروا تلك الكثرة من الألفاظ المترادفة في اللغة العربية ، وحسبوها مما يشوه اللغة ، أو يوقع فيها اللبس والإبهام ، فعمدوا إلى بعضها وفرقوا بين دلالاتها دون أن يكون لهم فيما صنعوه أى سند من نصوص اللغة واستعمالاتها . وكان هذا بعد أن استعقرت الدولة العربية ، وارتقت العقول ، وبدأ المفكرون يعنون بدقة المعاني وإحكامها .

ومن الغريب أن نرى ناقداً من العقاد القدماء مثل أبي هلال العسكري وهو من عرف بعنايته بذهب اللفظية يقول [إن الأثر الأدبي قد يسمو باللفظ وحده إذا كان سامياً، وحسب المعنى أن يكون متوسطاً] ، فهو مع هذا أو برغم هذا يؤلف لنا كتاباً سنعرض لأمثلة منه فيما بعد يسميه «الفروق اللفظية» ، وفيه يحاول جهده أن يلتمس فروقاً دقيقة بين مدلولات بعض الألفاظ المترادفة دون سند من نصوص أو شواهد . وليس عمله في هذا الكتاب إلا عمل الأديب صاحب الخيال الخصب الذي يرى في الأمور ما لا يراه غيره ، ويلتمس من ظلال المعاني ما لم يخطر على ذهن أصحاب اللغة من القدماء .

فإذا نحن ضمنا الألفاظ التي اعترف بترادفها في تلك الكتب مع مجموعة أخرى من تلك التي التمسوا فيها فروقاً ما أنزل الله بها من سلطان ، وجدنا أنفسنا أمام قدر كبير من الكلمات التي انكشفت دلالاتها ، واقتص من أطرانها فتجمعت في خلية واحدة أو معنى واحد .

وهناك مجموعة صغيرة من الكتب عني فيها مؤلفوها بصيغ الكلمات وبالفروق التي ترجع إلى اختلاف الحركات ، كمثلثات قطرب التي منها النمر =

الماء الكثير ، الفُمر = الحقد في الصدر ، الفُمر = الجاهل . وكذلك كتاب الإعلام بثلاث الكلام لابن مالك وهو مثل مثانات قطرب ، وأيضاً بهض ماجاء في كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب فعلت وأفعلت للزجاج الخ .

وليس يميننا من هذه الكتب تلك الكلمات التي اختلفت معانيها لاختلاف صيغها « كالفمر » التي وردت في مثانات قطرب ، لأن هذا هو الأصل في الألفاظ ، ومثلها هنا مثل كل الكلمات التي لسكل منها معنى واحد .

أما التي اختلفت صيغها ومع هذا اتحدت معانيها كأحزنه وحزنه ، أو مثل فخذ فخذ وفخذ وفخذ ، فهذه كلها وليدة التطور الصوتي . ولعل من بين عوامل التطور الصوتي هنا ما يمكن إرجاعه إلى الأمية أيضاً ، وإلى العناية باللفظ تلك العناية التي يترتب عليها كثرة الشبوع ، وكثرة الشبوع والتداول قد يوقع في مثل هذا الانحراف اللفظي ، فمثلها مثل العملة الفضية كلما كثر تداولها ساعد ذلك على التغير في ملامحها . بل قد تتطلب القوافي والأسجاع صورة معينة للكلمة أو حركات خاصة بها ، ولا يرى الشاعر أو الناطق بأساً من ذلك التغير الطفيف في الحركات حرصاً على موسيقاه ، ورعاية لأنغامه ؛ ولم يجد رؤية بأساً في أن يغير « العالم » إلى « العالَم » ولا الضيق إلى « الضيَق » ، ولا « الولت » إلى « الولت » ، حين وقع له مثل هذا في أرجازه ، وإن أخذه عليه ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء .

من هذا كله نرى أن العناية بمجموع اللفظ قد أثر في كثير من الدلالات ، وأثقلها الدقة والإحكام ، والوقوف عند حدودها الأولى ، بل لانتالي حين نقول إن العناية بموسيقى الكلام قد سلب معظم الدلالات تلك الدقة وذلك الإحكام حتى في تلك الكلمات التي لها مدلول واحد ، وأصبحنا نرى الشعراء

يستعملون اللفظ في معنى يحوطه بعض النموذج ، فلا نكاد ندرك له حدوداً ، مما يمكن أن يوصف منه بميوعة الدلالة أو عدم استقرارها .

- ٦ -

صراع علماء العربية مع دلالة الألفاظ.

شهدنا آنفاً أن بعض هؤلاء العلماء قد أسرفوا في الاعتزاز بالألفاظ المترادفة ظناً منهم أنها مفخرة اللغة العربية .

وهم حرصهم على تجميع الألفاظ المترادفة قد تجاهلوا تطور الدلالة فيها ، وخطئوا بين عصور اللغة . ولذا جمعوا بين لفظ عرفت له دلالة جاهلية قديمة وآخر اشتهر بدلالة إسلامية حديثة ، وجمعوا من اللفظين صفوين وقرينين .

هذا هو أبو الحسن الرماني^(١) في كتابه المسمى « الألفاظ المترادفة » قد عقد نحو ١٤٢ فصلاً ، وخصص كل فعل لإحدى الدلالات ، ثم سرد في كل فصل الألفاظ التي تعبر عن دلالاته . فتراوحت تلك الألفاظ بين ثلاث كلمات مترادفة في فصل ، ونحو إحدى وعشرين كلمة مترادفة في فصل آخر . ومع اعتدال أبي الحسن في حصر تلك المترادفات ، لا يكاد الدارس يستعرض ألفاظ الكتاب حتى يتبين أن كثيراً منها لا يمت إلى الترادف بصلة ، وحتى يتضح له أن معظم كلمات الكتاب من ذوات المعاني المجردة كالأفعال والأحداث والصفات ، ويندر أن تشمل على الدلالات المحسوسة أو أسماء الأشياء .

ولعل من خير ما جمعه من مترادفات قوله :

طرفي ، مقاتلي ، عيني ، ناظري (بمعنى واحد) .

الجباس ، والحفل ، والندى ، والمجتمع ، والموسم (بمعنى واحد) .

السرور : الجور ، الجذل ، الفبطة ، الفرح (بمعنى واحد) .

ومع ذلك فليس من اليسير أن نحمل كثيراً من الدارسين على الافتناع بما في هذه الكلمات من ترادف .

فإذا استعرضنا أمثلة أخرى من الكتاب رأينا الشطط والمغالاة في عدها من المترادفات مثل :

(١) [وصلته ، رفدته ، حبوته ، أعطيته] ثم أخيراً وهذا هو الغريب المضحك [رشيته] !! فكلمها في رأى الرمانى تبر عن الصلة والمطية .

(٢) ألقنى ، كربنى ، ضمضنى !! .

(٣) أهاننى ، أشجأنى !!

(٤) البؤس ، المسكنة ، العمر ، الحصاصة ، والفاقة !! .

(٥) حصنى ، ملجأى ، ملاذى ، كهمفى !!

(٦) سالت ، ذرفت ، هطلت .

(٧) الكذب ، المين ، الزور ، الإفك ، الاتعجال .

(٨) مريض ، عليل ، عميد .

(٩) غريزتى ، طبيعتى ، عادتى ، شيمتى ، ديدنى ، سليقتى .

(١٠) بعد ، شط ، نزع ، تراخى ، عزب .

(١١) الشجاع ، البطل ، الفشمشم !!

(١٢) الخراج ، الإتاوة ، الفىء ، الجزية ، الضريبة .

(١٣) القبر ، الجذث ، الرمس ، الحفرة ، الضريع ، اللحد .

(١٤) تاب ، ألق ، كف ، أمسك ، صدف ، أعرض .

(١٥) أظهر ، أعلن ، جهر ، أشاع ، أذاع ، بث .

لا أعلن أننا بحاجة إلى التعليق على هذه الأمثلة ، فبجهد النظر إليها يبين بوضوح مقدار مغالاة أصحاب الترادف ، وتجاهلهم لتطور الدلالات في الأجيال المختلفة ، وخلطهم بين دلالات جاهلية وأخرى إسلامية .

وقد سلّكوا نفس المسلك حين تحدثوا عما سموه بالمشارك اللفظي ، وجعلوا للفظ الواحد أكثر من دلالة واحدة . فأبو عبيد^(١) في كتابه المسمى (كتاب الأجnas من كلام العرب وما اشبهه في اللفظ واختلاف في المعنى) ، قد جمع نحو ٣٠٠ كلمة من هذا النوع ، ويستطيع الدارس أن يستبعد منها قدراً كبيراً ، لأنها لا تعدو أن تكون من أمثلة التطور الدلالي ، تجمع بين دلالة حقيقية شائعة وأخرى مجازية . فهو مثلاً يمد كلمة (الجنان) من المشترك اللفظي ، لأنها تعبر عن دلالات أربع هي : الليل ، والفؤاد ، والترس ، والثوب الأعلى على الثياب ! ومن الغريب أن يعقب أبو عبيد على قوله هذا بأن يلتمس السبب أو السر في هذه الدلالات المختلفة فيقول « إن الجنان سمي بالليل لأنه يحن كل شيء بظلمته ، وبالفؤاد لأنه يحن السر ، وبالترس لأنه جنة من السيف والقلم ، وبالثوب الأعلى لأنه يستر ما تحته » ! افهموا إذن يتجاهل النسب المختلفة في شيوخ الدلالات ويتجاهل فوق هذا أن المشترك اللفظي في صورته الصحيحة لا يتصور إلا حيث تنقطع الصلة بين الدالتين ، كالتخال حين يبر عن الشامة في الوجه ، وعن أخى الأم مثلاً .

وبينما نرى بعض هؤلاء العلماء يجمعون الألفاظ ويربطون بينها ، نرى آخرين يفرقون ويفصلون حتى بين ما لا يصاح فيه الفصل والفرق . فأبو هلال العسكري^(٢) في كتابه « الفروق اللغوية » يحاول أن ياتمس فروقا بين الدلالات المتشابهة أو المتماثلة ، فتنبس منها بعض الأمثلة فيما يلي :

(١) المتنوف ٢٢٤ هـ .

(٢) المتنوف ٣٩٥ هـ .

(١) [الفرق بين القديم والعتيق أن العتيق هو الذى يدرك حديث جنسه فيكون بالنسبة إليه عتيقا ، أو يكون شيئا يطول مكثه ، ويبقى أكثر مما يبقى أمثاله مع تأثير الزمان فيه فيسمى عتيقا .. ولهذا لا يقال إن السماء عتيقة وإن طلال مكثها لأن الزمان لا يؤثر فيها ، ولا يوجد من جنسها ما يكون بالنسبة إليه عتيقا (١) !!]

(٢) الفرق بين السخاء والجود أن السخاء هو أن يلين الإنسان عند السؤال ، ولهذا لا يقال لله تعالى سخى ، أما الجود فكثرة العطاء من غير سؤال (٢)] .

(٣) [الفرق بين الفنى والجدة واليسار أن الجدة كثرة المال فقط يقال رجل واجد أى كثير المال ، والفنى يكون بالمال وغيره من القوة والمهونة وكل ما ينافى الحاجة . وأما اليسار فهو المقدار الذى تيسر معه المطلوب من المعاش فليس ينبىء عن الكثرة . ألا ترى أنك تقول فلان تاجر موسر ولا تقول ملك موسر ، لأن أكثر ما يملكه التاجر قليل فى جنب ما يملكه الملك (٣)] .

ثم جاء بعد أبى هلال بعدة قرون عالم آخر هو على بن محمد الجرجاني (٤) ، ووجه كل عنايته إلى تلك الفروق بين الدلالات فى كتاب سماه « التعريفات » ، حاول فيه التحديد الدقيق لبعض الدلالات مثل قوله :

(١) [البخل هو المنع من مال نفسه ، والشح هو بخل الرجل من مال غيره قال عليه السلام : اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، وقيل البخل ترك الإيثار عند الحاجة ، قال حكيم البخل نحو صفات الإنسانية وإثبات عادات الحيوانية]

(١) ص ٢٤ .

(٢) ص ١٤٢ .

(٣) ص ١٩٤ .

(٤) المذوق ٨١٦ هـ .

- (٢) [الإغماء هو فتور غير أصلي لا بمخدر يزيل عمل القوى ، وقوله غير أصلي يخرج النوم ، وقوله لا بمخدر يخرج الفتور بالمخدرات ، وقوله يزيل عمل القوى يخرج العقه] .

(٣) [الأبد هو استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب المستقبل، كما أن الأزل استمرار الوجود في أزمنة غير متناهية في جانب الماضي] .

(٤) [السكر هو الذي من ماء التمر أى الرطب إذا غلى واشتد وقذف بالزبد] .

فهل ما يستخرج من القصب لا يسمى سكرأ ؟!

- (٥) [الوجيه من فيه خصال حميدة من شأنه أن يعرف ولا ينكر] .

وهكذا نرى أن القدماء من علماء العربية ، في صراع مع دلالة الألفاظ ، طوراً يوسمون دأرتها ويتجاهلون الفروق بينها بحيث تنسع لكثير من الكلمات المترادفة أو المشترك اللفظي ، وأخرى يحددون تلك الدلالات وينالون في تحديدها مما قد يترتب عليه أن نتشكك في كثير من النصوص ، ونأبى المشهور الشائع من استعمالات كثيرة . وكل هذا لغموض الدلالات في بعض الألفاظ ، وورودها في النصوص مائة غير محكمة ، تحتمل معنى كما تحتمل آخر شبيهاً به .

انظر مثلاً إلى معجم المخصص لابن سيده ^(١) حين يصف رأس الإنسان بعدة ألفاظ لا تكاد نخلص منها بصورة واضحة إذ يقول :

- رأس أكبس : مستدير ضخم ، والرأس المؤوم : الضخم المستدير .
- ورجل أقبس الرأس : ضخم مدور ، وقندل الرأس : عظيمه .
- والدرواس : العظيم الرأس ، والجهضم : الضخم الهامة المستدير الوجه .

(١) المخصص لابن سيده الموق ٤٥٧ هـ - ١٠٦٣ م .

• ثم انظر إلى غموض الدلالات في تلك الألفاظ المترادفة التي وردت في كتاب تهذيب الألفاظ لابن السكيت المتوفى ٢٤٤ هـ إذ يقول ^(١) : [ليلة مدلهمة أى مظلمة ، وديجور ، وديجوج ، واطرمس الليل أظلم ، والغيب نحوه ، والعاجوم الظلمة .. والمسحكك الأسود ، والطلخيم مثله .. واطلخمت علينا الظلمة فما نبصر شيئاً ؛ وليلة بهيم لا يبصر فيها شيء .. والحفندس : الليل الشديد الظلمة ، ويقال ليلة طرمساء لا يبصر فيها] .

وفي كتاب الألفاظ السكتانية لمبد الرحمن الهمداني المتوفى ٣٢٧ هـ ^(٢) .

(أظلم الليل ودجى وأدجى وتفضف وعم وأعم ، وغبس وأغبس ، ودمس وعسمس ؛ واعتسكر واطلخم وادلهم وأسدف وغطش وأعطش ، واسحنك واحلولك ، وسجا وأسجى ، وجن وأجن وارحجن ... الخ) .

وفي كتاب جواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ هـ ^(٣) .

(أشبهه ، وضارعه ، وضاهاه ، وشاكله ، ومائله ، وشابهه ، وشاكله .. الخ) !!

(لثيم • خسيس • زفيم • مهن • وتح • وضع • ضعيف • رضيم ^(٤) .

خامل • ساقط • رذل •) كلها بمعنى الدناءة ! ؟

(١) ص ٤١٦ .

(٢) ص ٢٨٩ .

(٣) ص ١٢ .

(٤) ص ٢٨ .

الفصل الثاني عشر

كنوز الألفاظ العربية

شهد النصف الأول من القرن الثاني الهجري أستاذ الأساتذة أبا عمرو بن العلاء^(١) يعلم الناس طرفاً من كل شيء ، فلا يكاد يتوفر على أمر معين . فهو أحد القراء السبعة وإمام القراءة في البصرة ، وهو أحد المؤسسين لمذهب البصريين في النحو ، وهو فوق هذا لفوى ضليع يروى من آداب اللغة وألفاظها الشيء الكثير ، وهو الذي يقول لنا : (ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو قد جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير) ، وهو الذي كان يعتز بأدب الجاهليين ويرى الوقوف عنده ، ويعد شعر الفرزدق وجريز من شعر المولدين فلا يحتج به !! فيروى عنه أنه قال في هذا الشعر : (لقد حسن هذا المولد حتى كدت آصر صبياننا بروايته والتأدب به) . وهو الذي يروى عنه الأصمعي فيقول : (لقد لازمته عشر حجج فما سمعته يحتج ببيت إسلامي قط !!) .

ومعظم الذين جاءوا بعد أبي عمرو يدينون له بالفضل . فقد عاصره أو تلمذ عليه جلة من علماء العربية أمثال : عيسى بن عمر الثقفي ، وأبو الخطاب الأخفش ، والخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب ، وخلف الأحمر ، وكل هؤلاء من علماء البصرة ، كما عاصره بالكوفة أو قاربوا عهده المفضل الضبي ؛ وحماد الراوية ، والكسائي .

أما الذين سبقوا هؤلاء من الأئمة أمثال أبي الأسود الدؤلي ، وعنقبة الفيل ، وميمون الأقرن ، ويحيى بن يعمر ، وعبد الله بن أبي إسحق فلا نكاد نعرف عنهم إلا القليل . ويبدو أن معظم هؤلاء قد توفروا على تأسيس علم النحو وقواعد

(١) توفي ١٥٤ هـ .

اللغة حتى جاء أبو عمرو ومن عاصروه فبدأوا يعفون أيضاً بنصوص اللغة والفاظها، يشرحون غامضها ويتتبعون الألفاظ في نصوصها، ولكنهم فيما يبدو لم يتجهوا إلى الإنتاج العلمى فى صورة الكتب والرسائل، مكتفين بتلاميذهم الفاهين ممن لازمهم سنين طويلة، فكأنما كانوا يتصورون أن رسالتهم العلمية تنتهى عند حد التلقين والإملاء على التلاميذ.

ورغم أن كتب التراجم تذكر للقلة من هؤلاء العلماء أسماء كتب ورسائل فإننا لا نكاد نعرف عنها شيئاً. ومعظم هؤلاء ممن عاشوا قليلاً بعد منتصف القرن الثانى الهجرى، وأشهر ما أثر عنهم قول الرواة إن الخليل بن أحمد ألف فى النحو وورث آراءه لسيبويه، وألف فى العروض والموسيقى. كذلك نعرف للمفضل الضبى كتاب « المفضليات » والأمثال.

ثم جاء بعد هؤلاء طبقة من العلماء عاشوا جميعاً فى أواخر القرن الثانى الهجرى وأوائل الثالث. وهؤلاء هم الذين عرفوا حقاً بتدوين علمهم وتأليف رسائلهم، وعندهم وردت لنا بعض تلك الرسائل الصغيرة الحجم التى توفر كل منها على موضوع معين من موضوعات اللغة، ككتابات صغير فى الإبل، أو رسالة صغيرة فى المطر، ونحو هذا.

وأشهر أصحاب هذه الطبقة من العلماء اللغويين :

(١) أبو زيد الأنصارى (توفى ٢١٥ هـ).

(٢) الأصمعى (توفى ٢١٠ هـ).

(٣) أبو عبيدة (توفى ٢٠٩ هـ).

(٤) النضر بن شميل (توفى ٢٠٤ هـ).

(٥) اليزيدى (توفى ٢٠٢ هـ).

(٦) أبو عمرو الشيبانى (توفى ٢٠٦ هـ).

فهؤلاء يكونون طبقة من اللغويين المتعاصرين الذين عنوا برواية الألفاظ والنصوص، وتوفروا على تدوينها وشرح مدلولاتها - وتروى لهم في كتب التراجم أسماء الكتب كثيرة لم يرد لها منها إلا القليل القادر . وليس بينهم من علماء الكوفة إلا أبو عمرو الشيباني تلميذ المفضل الضبي . وقد ساهم في جمع ألفاظ اللغة بنوادره ، وأراجيزه ، وكتاب « الجيم » ، وكتاب الخيل وكتاب الإبل ، وخلق الإنسان . ولعل « كتاب الجيم » أشهر وأجود ما أثر عن أبي عمرو الشيباني ، ويقال إنه ضن به على الفاس بعد أن أتم تأليفه ، ولذا لم تسكتب نسخته ، ولم يشتهر أمره بين المتأخرين من العلماء ، حتى ظن بعضهم أنه سمي بكتاب الجيم لأن مؤلفه بدأه بالألفاظ التي أولها « جيم » !!

وملاحظتنا على هذا الكتاب أن « لسان العرب » لم يذكر شيئاً عنه ، ولكن الفيروزبادي ذكره ثم نقل عن الفيروزبادي صاحب تاج العروس مقال ما نصه : (نقل المصنف قال أبو عمرو الشيباني « الجيم » في لغة العرب الديباج) ثم قال (ولأبي عمرو كتاب في اللغة سماه « الجيم » كأنه شبهه بالديباج لحسنه) !! ولا يذكر الأزهري هذا الكتاب بين مؤلفات أبي عمرو ، بل يكتفي بقوله : وكان الغالب على أبي عمرو الشيباني النوادر وحفظ الفريب وأراجيز العرب . أما قصة البخل بالكتاب فيذكرها الأزهري منسوبة لأبي عمرو ثم المروى المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ويقول (أن كتاباً كبيراً في اللغات أسسه على الحروف المعجمة وابتدأ بحرف الجيم ، فيما أخبرني أبو بكر الإيادي وغيره ممن لقيه) . ثم يذكر أنه ضن به على تلاميذه ، وأبقاه عنده حتى غرق في طوفان بعض الأنهار !! بل تذكر كتب التراجم أن من بين مؤلفات النضر بن شميل كتاباً يسمى « الجيم » أيضاً .

وعلى كل حال فبين أيدينا الآن مخطوط عنوانه كتاب الجيم ومنسوب لأبي عمرو الشيباني ، وهذا المخطوط برواية السكري وأبي موسى الحامض .

أما الآخرون من أصحاب هذه الطبقة فسكانهم من علماء البصرة ، وأكثرهم تأليفا الأصمعي ، وأبو عبيدة ، وأبو زيد الأنصاري . وإذا جاز لنا الحكم على كل مؤلفاتهم بماورد لنا منها أمكن القول إنها جميعا رسائل صغيرة ساهمت في وضع اللبنة الأولى للمعاجم العربية كما عرفت لنا بعد ذلك .

ومن كتب أبي زيد الأنصاري التي بين أيدينا الآن « كتاب النوادر » الذي وصفه أبو زيد في المقدمة بقوله : « ما كان فيه من شعر القصيد فهو سماعي من الفضل الضبي » ، وما كان فيه من اللغات فهو سماعي من العرب » . وبقي لنا من كتبه أيضا رسالة تان صغير تان في « اللبن والطر » . أما باقي رسائله التي تذكرها كتب التراجم والتي تجاوز الأربعين رسالة فيمكن الحكم عليها من عناوينها ، وأنها كانت كتيبات صغيرة يختصر كل منها بموضوع معين .

أما الأصمعي فكانت مؤلفاته أسعد حظاً وأكثر شيوعاً . وبقي لنا منها نحو اثنتي عشرة رسالة هي :

الأسمعيات ، رجز العجاج ، أسماء الوحوش ، الإبل ، خلق الإنسان ، الغنيل ، الشاء ، الدارات ، الفيات والشجر ، الفخل والسكرم ... إلخ .

وهي كما ترى رسائل صغيرة ساهمت أيضا في نشأة المعاجم العربية . أما أبو عبيدة فقد ددت له كتب التراجم نحو مائة رسالة ، وهي في مجموعها من نوع مؤلفات الأصمعي ، غير أنها تتضمن رسائل تعرض لمسائل تاريخية ، أو لأيام العرب وأنسابهم . ولم يبق لنا من كتبه إلا « كتاب مجاز القرآن » في مخطوط نسخ في اقرن السادس الهجري ، والنسخة التي بين أيدينا مصورة عن أخرى في مكة . ومن أسماء رسائله : الإنسان ، الزرع ، الفرس ، الإبل ، الخيل ، السيف ... إلخ .

أما النضر بن شهيل فيروى الثعالبي أنه لم يبق في عهده من تأليف « النضر » سوى كتاب الصفات الذي يشتمل على ألفاظ مرتبة على حسب المعاني تعرض

خلق الإنسان، والجود والكرم، وصفات النساء ... الخ . أى أن معظم مؤلفاته كانت قد اندثرت في عهد النعماني^(١) سنة ٤٣٩ هـ ، ومن أسمائها كتاب الأنواء ، الشمس والقمر ، السلاح ، خلق الفرس ... الخ .

وهكذا نرى أن أصحاب هذه الطبقة قد تشابهت جهودهم ، وأنهم برسائلهم قد مهدوا السبيل لنشأة المعجم العربى .

ثم ولى هذه الطبقة طبقة أخرى من تلاميذهم ، واستمر أثرها إلى أواخر القرن الثالث الهجرى ، وأشهر أصحابها :

(١) أبو حاتم السجستاني (توفى ٢٢٥ هـ) .

(٢) أبو عبيد القاسم بن سلام (توفى ٢٣١ هـ) .

(٣) ابن السكيت (توفى ٢٤٤ هـ) .

(٤) ابن الأعرابي (توفى ٢٣٢ هـ) .

(٥) ابن سلام الجعفى (توفى ٢٣١ هـ) .

(٦) أبو عمرو شمر الهروى (توفى ٢٥٠ هـ) .

ورغم أن كثيراً من مؤلفات أصحاب هذه الطبقة اللغوية قد ضاع أيضاً ، غير أنه يبدو مما ورد لنا منها أنها كانت أضخم حجماً ، وأشمل من مؤلفات من سبقوهم .

فأبو حاتم السجستاني تذكر له كتب التراجم نحو ٣٤ كتاباً ، فيها ينهج نهج من سبقوه مثل : كتاب الوحوش ، السيوف والرماح ، الزرع ، خلق الإنسان ، الإبل ... الخ .

كما تروى لنا كتب التراجم لابن الأعرابي أسماء نحو ١٤ كتاباً منها : النوادر ، الأنواء ، صفة الزرع ، نسب الخيل ... الخ . ولم يبق من كتبه سوى أسماء البئر ، أسماء الخيل وأنسائها ، فى نسختين خطيتين .

أما ابن السكيت فنعرف له كتباً ضخمة بعضها مطبوع متداول بيننا الآن مثل : « كتاب تهذيب الألفاظ » ، وهو من المعجمات المتوسطة الحجم ومرتب على حسب المعاني ، ونعرف له أيضاً كتابي القاب والإبدال وإصلاح المنطق .

أما أبو عبيد نعيم من ساهموا في جمع الألفاظ ونشأة المعاجم بكتابه الضخم الذي لا يزال مغلوطاً حتى الآن وهو القريب المصنف ، وهو معجم مرتب على حسب المعاني .

وهكذا نرى أن فكرة المعاجم خطرت لأصحاب هذه الطبقة ، وأنهم بدأوها في صورة معاجم متوسطة الحجم ومرتبة على حسب المعاني . فكأنما كانوا يمدون إلى تلك الرسائل القصيرة التي عرفت عن قدامهم ، فيضمونها بعضها إلى بعض ويكونون منها معجماً . ولم يخطر بذهن أحدهم أن يرب تلك الألفاظ التي اختارها ، أو التي جمعها ترتيباً محائياً على حسب الحروف كما فعل أصحاب الطبقة التي جاءت بعدهم .

والطبقة الرابعة من العلماء القرنين عاشوا جميعاً خلال القرن الرابع الهجري ، وأشهر أصحابها :

(١) ابن رديد (توفي ٣٢١ هـ) .

(٢) ابن الأنباري (توفي ٣٢١ هـ) .

(٣) عبد الرحمن الحمذاني (توفي ٣٢٧ هـ) .

(٤) قدامة بن جعفر (توفي ٣٣٧ هـ) .

(٥) القالي البغدادي (توفي ٣٥٦ هـ) .

(٦) الأزهري (توفي ٣٧٠ هـ) .

(٧) الزبيدي (توفي ٣٧٩ هـ) .

(٨) صاحب بن عباد (توفي ٣٨٥ هـ) .

(٩) الجوهري « توفي ٣٩٣ هـ » .

(١٠) ابن فارس « توفي ٣٩٥ هـ » .

وبعد القرن الرابع وبحق قرن المعاجم العربية أو كنوز الألفاظ ، ففيه ألف أكبر عدد من المعاجم المشهورة المعتمدة ، وفيه أخذ المعجم العربي الصورة المألوفة لنا ، وفيه اتجه العلماء إلى ترتيب الألفاظ ترتيباً هجائياً ، وبدءوا ينصرفون عن الترتيب الجارى على حسب المعاني .

فليس بين من ذكرنا من أصحاب هذه الطبقة من استمر على وضع المعاجم المرتبة على حسب المعاني سوى « عبدالرحمن الهمداني » في كتابه المسمى « بالألفاظ الكتابية » ، وقدامة بن جعفر في كتاب له يسمى « الألفاظ » . وقد ظل بعض العلماء من اللغويين يؤلفون تلك المعاجم التي رتب على حساب المعاني خلال القرنين الخامس والسادس وأشهر تلك المعاجم : مبادئ اللغة للإسكافي^(١) ، وفقه اللغة للثعالبي^(٢) والمخصص لابن سيده^(٣) ، والأشباه والنظائر لأبي البركات ابن الأنباري^(٤) . غير أن الكثرة الغالبة بين اللغويين من أصحاب المعاجم قد اتجهوا إلى تلك التي رتب ترتيباً هجائياً . وبعد المخصص لابن سيده أتم وأشمل معجم مرتب على حسب المعاني . وكل الذين ألفوا بعده على هذا النسق كانوا عالة عليه ، فكأنما قد اختتم ابن سيده بمعجمه « المخصص » عصر هذا النوع من المعاجم . فلم يحاوله بعده إلا القليلون ، وانصرف العلماء في كل العصور بعد ذلك إلى التأليف في المعاجم المرتبة على حسب حروف الهجاء .

وبعد معجم الجوهري لابن دريد أول معجم مرتب ترتيباً هجائياً بين معاجم

(١) المتوفى سنة ٤٢١ هـ

(٢) المتوفى سنة ٤٢٩ هـ

(٣) المتوفى سنة ٤٥٨ هـ

(٤) المتوفى سنة ٥٧٧ هـ

القرن الرابع الهجري فقد رأينا آتفاً أن العلماء قبل هذا القرن بدأوا تأليفهم بالرسائل الصغيرة، ثم انتهى الأمر بهم في أواخر القرن الثالث بتلك المعاجم الصغيرة المرتبة على حسب المعاني . ومع هذا فيقال لنا إن الخليل بن أحمد قد وضع معجماً ضخماً رتبته ترتيباً هجائياً وسماه « كتاب العين » ، أى أنه بهذا يكون قد سبق عصر المعاجم على النحو المألوف لنا بما يقرب من قرنين ! !

كتاب العين :

ليس لدينا الآن نسخة قديمة كاملة لكتاب العين، وكل ما بأيدينا منه لا يعدو أن يكون قطعة خطية في دار الكتب المصرية تحت هذا العنوان . كما لدينا كتيب صغير طبعه الأب أستاس الكرملي مشتملاً على بعض النماذج من كتاب العين . وقد اقتبس هذا القدر القليل من مخطوطات حديثة النسخ ، يقال مرة إنها في برلين ، وأخرى في العراق في بعض المكتبات الخاصة .

ومع هذا فتروى المعاجم التي بين أيدينا نصوصاً كثيرة منقولة عن « كتاب العين » ، كما يروى لنا أن كثيراً من علماء العربية في القرن الرابع الهجري قد رأوا هذا الكتاب ، وقرأوه ، وبحثوا في مسائله . فلا مجال للاشك إذن في أنه كان هناك كتاب بهذا العنوان في صورة معجم كامل مرتب ترتيباً هجائياً .

ولم يظفر كتاب في عصرنا الحديث بالبحث والدراسة ، بقدر ما ظفر به كتاب العين ، غير أن نتيجة البحث كانت دائماً سلبية ، لكثرة ما روى عنه من أمور متناقضة .

وقد بدأ الطعن في نسبة هذا المعجم لل خليل منذ ظهور الكتاب بعد موت مؤلفه بأكثر من قرن من الزمان فيروى ابن النديم في الفهرست ما نصه :
[وقع في البصرة كتاب العين سنة ٢٤٨ هـ ، قدم به وراق من خراسان ، وكان

في ثمانية وأربعين جزءاً ، فباعه بخمسين ديناراً . وكان قد سمع بهذا الكتاب أنه في خراسان بخزانة الطاهرية حتى قدم به هذا الوراق] .

أى أن أحداً من تلاميذ الخليل على كثرتهم لم يرو هذا الكتاب ، ولا عرف بينهم في صورة مؤكدة أن الخليل قد ألف هذا المعجم ، حتى ظهر الكتاب فجأة في أسواق البصرة .

وحين نستعرض آراء القدماء في كتاب العين نراها تلتخص في الآتى :

١- يرى السيرافى أن الخليل لم يقم إلا بوضع الجزء الأول من هذا الكتاب .

٢- يرى بعض العلماء ومن بينهم الأزهرى أن واضع الكتاب هو « الليث بن المظفر » وقد نسبته إلى الخليل لينفق الكتاب ، وتروج سوقه . فيقول الأزهرى في تهذيب اللغة [الليث بن المظفر الذى نحل الخليل بن أحمد تأليف كتاب العين ، لينفق باسمه ، ويرغب فيه من حوله] ثم يقول [وقد قرأت كتاب العين غير مرة ، وتصفحته تارة بعد تارة ، وعثيت بجمع ما صحف وغير منه ، فأخرجته في مواقفه من الكتاب ، وأخبرت بوجه الصحة فيه] إلى أن يقول [وهى قليلة في جذب الكثير الذى جاء صحيحاً] .

٣- ووفق آخرون بين الرايين السابقين فيزعم أن الخليل ألف الجزء الأول الخاص بحرف العين ، ثم يقول إن الليث أكمله ، وسى الليث نفسه بالخليل لحبه وإعجابه بالخليل بن أحمد !!

٤- وينسب صاحب معجم الأدباء رأياً لابن المعتز خلاصته أن الخليل قد ألف الكتاب ، وأهداه لليث ، واختصه به ، وبلغ من إعجاب الليث بالكتاب أن ظل يديم قراءته ، ويقف على دراسته بعد موت الخليل . ثم حدث أن اشترى « الليث » جارية جميلة غارت منها امرأته ، فأرادت زوجة الليث أن

تفجعه في أعز شيء لديه ، ولم تجد غير هذا الكتاب ، فأحرقته . فشق هذا العمل على الليث ، وقام بإملاء نصفه من ذاكرته ، ثم طالب بعض العلماء ممن حوله بإكمال النصف الآخر على غلط ما أملى .

وهذا هو السر فيما وقع فيه من خلل أو أصابه من تحريف !!

٥ - ويروى أبو الطيب اللغوي عن « ثعلب » أن الخليل رتب أبواب الكتاب ، وتوفى قبل أن يحشوه ، أي أنه قام بوضع الهيكل . ثم يروى أبو الطيب أن الذين حشوه بعد الخليل كانوا من العلماء ، ولكنه لم يؤخذ منهم رواية ، وإنما وجد بنقل الوراقين ، فاقتل الكتاب لهذه الجهة . ويوافق على هذا الرأي « الزبيدي » في مقدمة كتابه « مختصر الدين » .

ويبدو أن السر في كل هذه الآراء المتضاربة أن كثيراً من علماء القرن الرابع الهجري ، وهو قرن المعاجم العربية كما قلنا ، قد لاحظوا في الكتاب بعض الخلل والاضطراب ، فزهوا الخليل بن أحمد عن مثل ذلك . فيقول ابن جنى مثلاً [أما كتاب العين ففيه من التخليط والخلل والفساد ما لا يجوز أن يحمل على أصغر أتباع الخليل فضلاً عن نفسه] .

ويروى الزبيدي أن « ثعلب » كان يستدل على فساد نسبة الكتاب لل خليل بأسباب منها : اختلاف نسخه ، واضطراب رواياته ، وما فيه من حكايات عن المتأخرين ، والاستشهاد بالردول من أشعار المحدثين . فكيف يروى الخليل عن الأصمعي وأبي عبيد وابن الأعرابي ، في حين أن الخليل توفي وعمر أبي عبيد ستة عشر عاماً ؟ !

ولعل أقوى ما يوجه إلى هذا الكتاب من طعون ما ذكره أبو علي الفاي من أن كتاب العين ورد من خراسان في زمن أبي حاتم ، فأنكره أبو حاتم وأصحابه أشد الإنكار ، وأنه مضت مدة كبيرة قبل ظهور الكتاب ، فلم يروه

تلاه بذ الخليل أمثال النفوس بن شميل ، وأبي الحسن الأخفش . ولو أن الخليل
ألف الكتاب لحله هؤلاء عنه ، وكانوا أولى بذلك من رجل مجهول الحال .
ثم يقول أبو علي [ولو صح الكتاب عن الخليل لبدر الأصمعي واليزيدي وابن
الأعرابي إلى تزيين كتبهم بالحكاية عن الخليل ، وكذلك من جاءوا بعدهم
كأبي حاتم وأبي عبيد وابن السكيت وغيرهم ، فما علمنا أحدا منهم نقل في كتابه
عن الخليل حرفا من اللغة] !!

ومع كل هذه الطعون وجد المعجم من يدافع عنه ، وينقل منه ، ويرفع
من قدره ، كالبرد وابن درستويه وأبي إسحاق الزجاجي ، بل اعترف به ابن دريد
صاحب أول معجم بين معاجم القرن الرابع الهجري .

ترتيب كتاب العين :

رتب صاحب كتاب العين حروف الهجاء ترتيبا مخرجيا ، غير أنه لم يبدأ
بالحمزة كما كان الواجب ، بل بدأ بالعين ، فجاء ترتيب الحروف على النحو الآتي :
ع . ح . هـ . خ . غ . ق . ك . ج . ش . ض . ص . س ، ز . ط . د . ت .
ظ . ذ . ث . ر . ل . ن . ف . ب . م . و . همزة . ي .

وأشكل الأمر على الأزهرى في تهذيبه ، فزعم أن السر في بدء الكتاب
بحرف العين [أن مؤلفه وجد مخرج الكلام كله من الحلق فصير أولها بالابتداء
أدخلها في الحلق ، ووجد « العين » أقصاها في الحلق ، ثم رتب على حسب
المخرج الأرفع فالأرفع] !! .

ويبدو أن تعليل ابن كيسان للبدء بالعين أقرب إلى الصحة ، إذ يروى
عنه قوله (سمعت من يذكر عن الخليل أنه قال : لم أبدأ بالهمزة لأنها يلحقها

النقص والتفكير والحذف ، ولا بالألف لأنها لا تكون في ابتداء الكلمة إلا زائدة أو مبدلة ، ولا بالهاء لأنها مهموسة خفية لاصوت لها ، فنزلت إلى الحيز الثانى وفيه العين والحاء فوجدت العين أنصع الحرفين) .

وخصص المعجم لكل حرف كتابا ، فيبدأ بكتاب العين ، ثم كتاب الحاء ، ثم كتاب الهاء وهكذا على حسب الترتيب المخرجى الذى ذكرناه آنفا . ويقسم كلمات كل كتاب من هذه الكتب على حسب الصيغ الآتية :

(ا) المضاف الثلاثى والرابعى معاً ، أى يشرح معنى « عاق » ثم يشرح معنى « العقم » .

(ب) الثلاثى الصحيح .

(ج) الثلاثى المعتل مثل عاق ، وعظ ، عصا .

(د) اللفيف مثل عوى ، وعى .

(هـ) الرباعى مثل المسجد ، بعثر .

(و) الخماسى مثل الهينقع .

ويراعى صاحب العين الحروف الأصلية للكلمة ، فكلمة « مفتاح » مثلاً يبحث عنها فى الثلاثى الصحيح ، وكلمة « زعفران » يبحث عنها فى الرباعى .

كذلك مما يسترعى الانتباه فى ترتيب العين أن المؤلف لا يكتفى ببحث الكلمة ، بل يعرض فى نفس الموضع إلى الصور الممكنة تكونها من حروف هذه الكلمة ، ويشرح معنى كل صورة إذا كانت مستعملة فى اللغة ، أو ينص على أنها مهملة . فحين يتحدث عن فعل مثل « ضرب » يعرض أيضاً للفعل « ربض » ، ضرب (الفرس وثب) ، رضب (الرضاب رحيق الشفتين ، برض الماء خرج قليلاً) ، ثم ينص على أن « بضر » من المهمل لأنها لم ترد فى اللغة . فالصور الممكنة للثلاثى الصحيح ست صور ، يعرض المؤلف لشرح المستعمل منها فى موضع واحد من معجمه ، دون ربط بينها إلا من الناحية

الصوتية • فلا يحاول مثلاً أن يفسرها على نحو ما قام به ابن جني في الخصائص وسماء بالاشتقاق الكبير زاماً أن هناك صلة دلالية بين هذه الصور^(١) .

ويشتمل الكتاب الأول من هذا المعجم على كل الكلمات التي تتضمن حرف العين أيا كان موضعها من الكلمة ، ويشتمل الكتاب الثاني أى كتاب الحاء على كل الكلمات التي تتضمن « حاء » أيا كان موضعها بعد أن نخرج منها ما يتضمن حرف العين فقد سبق ذكرها في الكتاب الأول ، ويشتمل الكتاب الثالث أى كتاب الهاء على كل الكلمات التي تتضمن حرف الهاء أيا كان موضعه بعد أن نستبعد منها ما يتضمن عيناً أو حاء ، مثل « العين » ، الحية (زجر للضأن) ، الحية (زجر للحمار) • والكتاب الرابع المخصص للحاء لا يشمل الكلمات التي فيها عين أو حاء أو هاء ، فليس فيه أمثال خنع ، أو خلع •

وهكذا نرى أن كتب المعجم تتدرج في عدد الكلمات ، ويقل توضعها كتاباً بعد الآخر ، فلا نكاد نصل إلى كتاب « الميم » حتى نجده يشتمل على عدد قليل جداً من الكلمات •

أما طريقة الكشف في معجم كالمين فمضى النظر أولاً إلى ما اشتملت عليه الكلمة من حروف ، فإن كان بينها « عين » أيا كان ترتيبها من الكلمة رأينا مثل هذه الكلمة ترد في الكتاب الأول المسمى بكتاب العين ، فإن لم يكن بها « عين » واشتملت على « حاء » أيا كان موضعها من الكلمة كانت في الكتاب الثاني المسمى بكتاب الحاء • ولهذا يجب دائماً أن نتذكر الترتيب المخرجي للحروف ، باحثين في كل كلمة عن أقصى حرف في المخرج ، وذلك بأن نرتب حروف الكلمة على حسب هذه المخرج • وعلى هذا فالمفروض إذن أن تكون أول كلمة في المعجم هي [عحّ أو عه] وليكنهما لم يردا في اللغة

(١) أنظر « من أسرار اللغة » ص ٧٤

أو الاستعمال . وأول حرف وقع مع « العين » وكون معها دلالة من دلالات اللغة هو « القاف » . ولذا رى أن الفعل « عَقَّ » هو أول كلمة في معجم العين ، هو ومقلوبه « قَعَّ » ، ثم العين مع الكاف « عَكَ » ومقلوبها « كَعَّ » ، ثم العين مع الجيم « عَجَّ » ومقلوبها « جَعَّ » ، وهكذا حتى ينتهى الكتاب الأول ، مراعين دائماً البدء بالمضعف ثلاثياً أو رباعياً ، ثم الثلاثى الصحيح ، ثم المعتل ، ثم اللفيف ، ثم الرباعى ، ثم الخماسى .

هذا هو ترتيب « كتاب العين » ، فهل نلاحظ له آثراً أو صدًى فى ترتيب معجم الجهرة أول معاجم القرن الرابع الهجرى ؟ .

معاجم القرن الرابع :

(١) الجهرة لابن دريد : ويعمل المؤلف لتسمية معجمه بالجهرة بقوله فى المقدمة : — (وألفينا المستنكر الوحشى ، واستعملنا العروف وسميناه كتاب الجهرة ، لأننا اخترنا له الجمهور من كلام العرب) ، ثم يذكر ابن دريد فى المقدمة أن ترتيب كتاب العين على حسب المخارج أمر شاق على الباحث المبتدىء ، وأنه من أجل هذا آثر ترتيب الحروف على حسب الترتيب الشائع المؤلف اب ت ت ج ح .. الخ فيقول : (وأجربناه على تأليف الحروف المعجمة إذ كانت بالقلوب أعلق ، وفى الأسماع أنفذ ، وعلم العامة بها كعلم الخاصة) .

ويعد معجم الجهرة من المعاجم التى صادفت القبول والاحترام من معظم العلماء . ومع هذا فلم يسلم من الطعن والتجريح ، فيقول عنه ابن جنى : — [وأما كتاب الجهرة ففيه من اضطراب التصنيف ، وفساد التصريف ما أعذر واضعه لبعده عن معرفة هذا الأمر (. ويقول الأزهري : [ومن ألف فى عصرنا السكتب ، فوسم بافتعال العربية ، وتوليد الألفاظ التى ليس لها أصول ، وإدخال ما ليس من كلام العرب فى كلامهم أبو بكر بن دريد) .

ولعل أشد الثوار على الجهمرة هو « نقطويه » فقد ثارت بينه وبين ابن دريد
مهاجاة شعرية فيقول ابن دريد يشير إلى نقطويه :

أحرقه الله بنصف اسمه وصير الباقي صراخا عليه

ويقول نقطويه :

ابن دريد بقـره وفيه عى وشـره
ويدعى من حمقه وضع كتاب الجهمره
وهو كتاب العين إلا أنه — د غيره

ويشبه نظام الجهمرة ترتيب معجم العين في بعض النواحي . فابن دريد يقسم
الكلمات إلى المضعف الثنائى مثل [بت ، تب] ، وغيرهما مما يسميه الصرفيون
بالمضعف الثلاثى ، ثم المضعف الرباعى مثل [بسبس ، زلزل] ، ثم الأفعال
الثلاثية الصحيحة وما يشتق منها ، ثم الأفعال الثلاثية المعثلة ، ثم الرباعى ، ثم
الخماسى . وهو في تقسيمه هذا يسلك مسلك صاحب معجم العين ، غير أن
صاحب الجهمرة يمتد هذا التقسيم بإفحام بعض الأقسام الفرعية في ثنايا هذا
التقسيم . فبعد أن ينتهى من بحث الكلمات التى من المضعف الثلاثى والرباعى
تراه يذكر فصلا للكلمات التى تشتمل على الهمزة وما يتكرر معها ، وبعد
الأفعال الثلاثية الصحيحة يعرض لبعض الأسماء التى لامها وعينها من نوع واحد
مثل « التتب والحبب » ، والأسماء الجامدة التى عينها حرف علة مثل « باب » .
ولا تكاد تتضح لنا الحكمة فى مثل هذه الأقسام الفرعية ، واختصاصها
بفصول مستقلة .

كذلك يتبع ابن دريد طريقة معجم العين فى بحث الصور المختلفة للكلمة
فى موضع واحد ، فحين يعرض لكلمة « بعث » يتكلم بعدها عن كلمة « عبث »

وهكذا . وتلك هي الطريقة التي اتزمها صاحب العين ، والتي تسمى أحياناً بعقوبات الكلمات .

أما وجوه الاختلاف بين ترتيب الجهرة وترتيب العين فقتلخص في أن صاحب الجهرة بدأ حديثه عن كل كلمات الالف التي وردت من المضعف الثلاثي والرابعي ، وقسمها أورتبها على حسب الترتيب الهجائي المألوف . فيخصص باباً للتي تشتمل على « باء » أيا كان موضعها من الكلمة ، ثم آخر للتي تشتمل على « تاء » وليس فيها « باء » ثم التي تشتمل على « ثاء » وليس فيها « باء » أو « تاء » ... وهكذا حتى يفتي من تلك الكلمات المضعفة أو كما يسميها الثنائية . وهو بهذا يتجنب تكرار الكلمات في أكثر من موضع من مواضع المعجم ، غير أنه لم يسلم من هذا التكرار في بعض الأحيان . فحين تحدث مثلاً في باب الباء عن الكلمة التي أولها باء وثانيها حاء وثالثها واو ، وهي « حبا الصبي يحبو » نرح معناها في الأفعال الثلاثية الصحيحة ، ثم عاد وشرح معناها في الثلاثي المعتل .

ونظام الجهرة بسيط في أساسه ، غير أن الفروع التي أقجمها ابن دريد في ثفايا التقسيم جعل النظام معقداً أشد التعقيد ، وأصبح من العسير على المبتدئ الكشف في مثل هذا المعجم ، مما حمل المستشرق « كرنكو » على أن يضع له فهرساً مفصلاً بالغ من ضخامته أن كاد يصل إلى حجم المعجم الأصلي .

٢ — ديوان الأدب لأبي إبراهيم الفارابي ، وهو غير الفارابي الفيلسوف . توفي سنة ٣٥٠ هـ على أرجح الآراء ، ولا يزال معجمه مخطوطاً .

وقد قسم المعجم على حسب الصحة أو الاعتلال في الكلمات فجعله مكوناً من ستة كتب هي :

(١) كتاب السالم (ب) كتاب المضعف (ح) كتاب المثال (د) كتاب الأجوف، وسماه ذوات الثلاثة (هـ) كتاب الناقص (وسماه ذوات الأربعة) (و) كتاب المهموز .

ثم جعل كل كتاب من هذه الكتب الستة شطرين : الشطر الأول للأسماء والشطر الثاني للأفعال .

أما ترتيب الكلمات في كل شطر من هذين الشطرين فجاء على حسب التجرد أو الزيادة في الكلمات؛ أى بدأ بالمجرد ثم الزيد بحرف ثم الزيد بحرفين . وهكذا . والكلمات في كل كتاب من الكتب الستة وفي كل شطر من شطري الكتاب مرتبة على الترتيب المألوف لحروف الهجاء ا ب ت ث ج ... إلخ ..

وقد راعى في هذا ، الحرف الأصلي الأخير من الكلمة وجعله الباب ، ثم الحرف الأصلي الأول منها وجعله الفصل . فالفارابي هو في الحقيقة أول من اتبع نظام الباب والفصل .

وعلى هذا فكلمة مثل « الدرع » تكون في الكتاب الأول المسمى بالسالم وفي الشطر الأول من هذا الكتاب وهو شطر الأسماء ، وتكون في باب العين فصل الدال مع الكلمات المجردة من الزوائد .

(٣) معجم البارع للقالى البغدادى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ . وهو مرتب على حسب الهجاء ، ولم يبق منه إلا نكتة في مكتبة باريس . ويقول المستشرق كرنكو^(١) إن أغلب ما جاء في هذا المعجم يرجع إلى الجمهرة وتصانيف أخرى ككتاب الألفاظ لابن السكيت .

(٤) تهذيب اللغة للأزهري سنة ٣٧٠ هـ . ولا يزال مخطوطاً حتى الآن^(٢) ،

(١) ج ٢ ص ١١٦ مجلة Islamica .

(٢) تم طبعه أخيراً .

ولدينا منه نسختان خطيتان تكمل إحداهما الأخرى ، الأولى تشتمل على الحروف من العين إلى الذال ، وخطها جميل ولكن ككتاب الزاى فقد منها . أما النسخة الثانية فتقسمة إلى ١٨ جزءاً نقص منها الجزء الأول وهو المتضمن لمعظم الكلمات المشتملة على حرف العين ، كما فقد منها الجزء السادس وهو المتضمن للهاء مع الطاء والذال والتاء والظاء والذال والتاء . كذلك فقد منه ما يتعلق بكتاب الذال وكتاب التاء .

وترتيب هذا المعجم كترتيب معجم العين ، أى على حسب الخارج .

(٥) مختصر العين للزبيدي سنة ٢٧٩ : ولا يزال مخطوطاً حتى الآن . ألفه صاحبه في بلاد الأندلس ، وهو صورة ممسوخة للمعجم الأصلي ، وبكفى هذا أن نشير إلى ما جاء في آخره من قوله : — [وعدة الكلمات جميعها على ما أورده صاحب العين من مستعمل ومهمل ستة آلاف ألف وستمائة ألف وتسعة وتسعون ألفاً وأربعمائة ، المستعمل منها خمسة آلاف وستمائة وعشرون] . فن المؤكد أن هذا الأرقام غير دقيقة ، لأن العملية الحسابية تنتج لنا ١٢ مليوناً للمهمل والمستعمل ، أما قصره المستعمل على خمسة آلاف فغير معقول ولا مقبول ، لأن ألفاظ اللغة العربية تزيد عن هذا كثيراً جداً .

(٦) المحيط للصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، وهو معجم ضخيم في سبعة مجلدات ، أكثر فيها المؤلف من ذكر الألفاظ . وقلل من الشواهد . ويبدو أنه كان يهدف إلى حشد أكبر عدد ممكن من الألفاظ . والمعجم مرتب على حسب حروف الهجاء . ويوجد الجزء الثالث من هذا المعجم في دار الكتب .

(٧) الصحاح للجوهري المتوفى سنة ٣٩٢ هـ :

لم يكد ينتهى القرن الرابع الهجرى حتى توج بمجم له يسبق له نظير في ترتيبه وتبويه وهو الصحاح [بالكسر جمع صحيح، أو بالفتح صفة بمعنى صحيح مثل برى وبراء]. فهذا المعجم مع مصاعاته للحروف الأصلية من كل كلمة، ينقسم إلى أبواب، لكل حرف من حروف الهجاء باب. والحرف الأخير من الكلمة هو الباب. فالكلمات التى تنتهى أصولها بالهمزة يبدأ بها المعجم وتسمى باب الهمزة، ثم التى تنتهى أصولها بالباء وتسمى باب الباء . . . وهكذا.

وينقسم الباب إلى فصول على حسب الحرف الأول من أصول الكلمات. وعدد أبواب المعجم كمعدد حروف الهجاء أى ثمانية وعشرون باباً. وقد كان المتوقع أن يكون عدد الفصول فى كل باب ثمانية وعشرين أيضاً، ولكن ما ورد فعلا من الكلمات المستعملة فى اللغة لا يتضمن كل هذه الفصول فى كل باب، ولهذا اختلف عدد الفصول فى الأبواب المختلفة، فمن الأبواب ما يشتمل على ٢٨ فصلا، ومنها ما لا تكاد تجاوز الفصول فيه أصابع اليدين عدداً كباب الظاء. ويرجع ذلك إلى اختلاف نسبة شيوع الحروف فى كلمات اللغة. فبحث عن كلمة مثل «كتب» يظفر فى باب الباء فصل الكاف. أما فى مثل «استفهم» فالحروف الأصلية فيها هى «فهم»، وعلى هذا فيبحث عنها فى باب الميم فصل الفاء.

وفد لقى هذا المعجم منذ تأليفه إعجاباً به، وإقبالا عليه من جمهور العلماء. وبعد فى الحقيقة أكل ما وصل إليه المعجم العربى القديم من فضوح فى العرض والترتيب والتنظيم والتحقيق. ولا نكاد نرى أحداً ممن ألفوا المعاجم بعده يضيف شيئاً جديداً على هذا التنظيم، وكل الذى قاموا به هو إضافة كلمات

جديدة لم ترد في هذا المعجم . ويعتبر الصحاح بين المعاجم كصحاح البخارى بين كتب الأحاديث .

ومع هذا أو رغم كل هذا لم يسلم المعجم من الطعن والتجريح . فيقول « التبريزى » بعد أن يمدد حصفات المعجم : [إنه مع ذلك فيه تصحيف لا يشك في أنه من المصنف لا من الناسخ] !!

ويقول عنه ياقوت في معجم البلدان : [هذا مع تصحيف فيه في عدة مواضع تتبعها عليه المحققون ، وقبل إن سيده أنه لما صنفه سمع عليه إلى باب الضاد المعجمة ، وعرض له وسوسة فألقى بنفسه من سطح فأت] !! ويشير ياقوت إلى أن الذى أكل المعجم هو أحد الوراثةين ، ولهذا اشتمل على التصحيف ! !

وظل هذا المعجم نحو أربعة قرون بعد تأليفه هدفا لاطمن بعض العلماء ممن ألفوا المعاجم أو تدارسوها .

فابن برى المتوفى سنة ٥٨٢ هـ ألف كتابا سماه [التنبيه والإيضاح عما وقع من الوهم في كتاب الصحاح] .

وألف الصاغاني المتوفى سنة ٦٦٠ هـ [التكملة والذيل لكتاب صحاح الأئمة] في ست مجلدات استدرك فيها ما فات الجوهري من كلمات ، ولا يزال مخطوطا حتى الآن ^(١) .

وألف الصغدي المتوفى سنة ٧٥٤ كتاب (نفوذ السهم فيما وقع للجوهري من الوهم) .

ويصف ابن منظور ^(٢) صاحب لسان العرب في مقدمة معجمه معجم الصحاح بقوله : (غير أنه في جو الأئمة كالذرة ، وفي بحرها كالتلحارة ، وإن كان في نحرها كالذرة) !

(١) تشرع الآن بعض الهيئات العلمية في طبعه بالقاهرة .

(٢) المتوفى سنة ٧١٩ هـ .

وقد بلغ التجريح مداه على يدى الفيروزبادى سنة ٨١٦ هـ . حين يشير إلى معجم الصحاح وصاحبه فى عبارات قاسية مثل « تصحيف فاضح ، وتحريف شنيع ، كلام باطل مردود ، تصحيف قبيح » !!

(٨) المجلد لابن فارس سنة ٣٩٥ هـ :

وقد اقتصر فيه صاحبه على الألفاظ الهامة المستعملة التى أخذ معظمها عن السماع ، كما أخذ عن تقدمه . وهو مرتب على حسب حروف الهجاء ، ولا تزال منه عدة نسخ مخطوطة فى مكاتب العالم ، ولكنه لم تنسح له الشهرة التى أتيحت للصحاح .

أشهر المعاجم بعد القرن الرابع

كان القرن الخامس الهجرى أقل حظاً فى تأليف المعاجم ، فلا نعرف من معاجمه سوى اثنين ، أحدهما ضاع واندثر ولا يروى لنا إلا اسمه وهو « معجم الموعب » للتيانى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ . وتشير إليه كتب اللغة وتصفه بأن مؤلفه قد جمع فيه الصحيح مما حوى معجم العين ومعجم الجهرة .

المعجم الثانى هو « المحكم » لابن سيده الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ صاحب المخصص . وتوجد منه نسخة خطية فى المتحف البريطانى ، وفى دار الكتب أجزاء منه لا تكمل نسخة . ويقوم بعض العلماء بتحقيقه ونشره الآن .

ويبدو أن « ابن سيده » قد ألف معجمه « المحكم » فى أوائل القرن الخامس ، وقبل أن تصل إليه شهرة الجوهري ومعجمه الصحاح ، فلم يتأثر به ، بل صنف معجمه على الترتيب المخرجى كمعجم العين ، وهو الترتيب الذى انصرف معظم المؤلفين عنه فى أواخر القرن الرابع على يدى الجوهري . كذلك لم ينهج ابن سيده فى معجمه « المحكم » نهج علماء العراق فى أواخر القرن الرابع من

الاقتصار على الصحيح من الألفاظ . ولذا جاء معجمه أضحى من معجم الجوهري وأتم وأعم منه .

وظل الاتجاه بين المؤلفين والدارسين للمعاجم على النحو الذى سلكه الجوهري من الاقتصار على صحيح الألفاظ . قرابة قرنين من الزمان . ففى القرن السادس الهجرى وضع الزمخشري سنة ٥٣٨ هـ معجمه المسمى « أساس البلاغة » وهو معجم صغير نسبياً ، عني فيه صاحبه بالفاحية التاريخية للدلالة الألفاظ ، فيسمى الدلالة الأصابية للحكمة بالحقيقة ، والدلالة المتطورة عنها بالمجاز ، واسكنه على علمه وفعله لم تتضح له قوانين التطور فى الدلالات كما أثرنا إلى هذا آتياً^(١) .

ثم عادت المعاجم إلى الشمول والتضخم على يدى الصاغاني سنة ٦٥٥ هـ حين ألف معجمه المسمى « بالمباب » . وليس بين أيدينا منه سوى الجزء الأول فى دار الكتب ، وأربعة أجزاء أخرى فى « أياصوفيا » . وقد وصفته الروايات القديمة بأنه مكون من عشرين جزءاً ، وأن مؤلفه جمعه من كل كتب اللغة المشهورة . ويبدو اتجاه الصاغاني فى تضخيم المعاجم من مؤلفه الذى سماه « التذييل والتكملة » لمعجم الصحاح ، فهو فى سقة مجلدات ، وتقوم بطابعه الآن بعض الهيئات العلمية .

غير أن مؤلفي المعاجم رغم ميلهم إلى تضخيمها ، قد ظلوا بعد هذا يتبعون طريقة الجوهري فى ترتيب معجمه الصحاح من الباب والفصل . فابن منظور المصري يضع معجمه المشهور لنا وهو لسان العرب فى عشرين مجلداً على طريقة الباب والفصل . ويبدو أن صاحب اللسان قد استغل كل ما جاء فى تهذيب اللغة للأزهري ، والمحكم لابن سيده .

فقد نقل ابن منظور كل مواد هذين المعجمين ، وقنع فى معظم الأحيان

(١) أنظر فى هذا الكتاب فصل الحقيقة والمجاز .

بنفس العبارات التي وردت في التهذيب والمحكم لشرح الألفاظ . فليس لابن
مفطور إلا فضل الجمع والاستيعاب .

ويتهى تأليف المعاجم العربية الضخمة بذلك المعجم المشهور المتداول بيننا
وهو قاموس المحيط للفيروزبadi المتوفى سنة ٨١٦ هـ . وقد وجه الفيروزبadi كل
عنايته إلى استيعاب أكبر عدد من ألفاظ اللغة ، وجعلها في أقل عدد من المجلدات ،
ناعياً على الجوهرى اقتصاره على الصحيح من ألفاظ اللغة . وكان يزعم أن
الجوهرى قد فاته ثلثا اللغة أو أكثر !! ومع هذا فيقول السيوطى فى المزهرة :
[ومع كثرة ما فى القاموس من الجمع للفوائد والشوارد فقد فاته أشياء ظفرت بها
فى أثناء مطالعتى لكتب اللغة] .

وتصدى للفيروزبadi من المؤلفين كثيرون ، يستدركون عليه ما فاته ،
ويجرحونه ويدافعون عن الجوهرى ، أمثال ابن الياس داود زاده سنة ١٠١٧ هـ
فى كتاب [الدر اللقيط فى أغلاط المحيط] ، وكذلك أبو زيد عبد الرحمن عبد
العزیز مصنف كتاب [الوشاح وتثقيف الرماح فى رد توهم الصحاح] ، وأحمد
فارس الشدياق فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى فى كتابه (الجاسوس على
القاموس) ، وأحمد تيمور فى كتابه (تصحيح القاموس المحيط) ، والمستشرق
« لين » LANE فى مقدمة قاموسه العربى الإنجليزى إذ يقول : « إن القاموس
المحيط لا يعدو أن يكون مجموعة كلمات أخذت من معاجم أو كتب سابقة ، ولا
سيما من المحكم والعياب » . ثم يقول : « وقد تبين لى أن كثيراً من الفقد الذى
وجهه الفيروزبadi إلى الجوهرى قد أخذه عن حوائى ابن برى والبسطى على
الصحاح ، أو عن تكملة الصاغانى » !!

ومع هذا فقد صادف القاموس عناية من الدارسين فى عصرنا الحديث
بلغت فى بعض الأحيان حد التقديس . وقد شرحه وعلق عليه السيد مرتضى
الزبيدى سنة ١٢٠٥ هـ فى عشر مجلدات ضخمة سماها « تاج العروس » . ويبدو أن

صاحب « تاج العروس » قد استعان بلسان العرب في معظم المواضع ، إذ يلحظ الدارس شبهة قوياً بين شروح كل من المعجمين .

دلالة الألفاظ في المعاجم :

عمد جامعو الألفاظ العربية في بادئ الأمر إلى النصوص التي وردت لهم من جاهلية أو إسلامية ، واستخرجوا منها تلك الألفاظ ، ثم شرحوها ، وفسروها ، في ذيل النص أو بين ثناياه . ولم يكن لهم من هدف سوى خدمة النصوص الأدبية التي رويت لهم واعتزوا بها ، وتأدبوا بأدبها ، ثم كان أن تضجعت تلك النصوص ، وأصبحت من السكرة بحيث يصعب جمعها في كتاب واحد أو عدة كتب . وهنا خطر في أذهانهم القيام بتصنيف مفتاح لتلك النصوص الكثيرة جداً ، واكتفوا بمحصر الألفاظ ، وشرح كل منها مع الإشارة في القليل من الأحيان إلى شاهد أدبي يسوقونه لتوضيح معنى اللفظ . وهكذا نشأت المعاجم وتطورت على النحو الذي رأيناه آنفاً . ووجد جامعو الألفاظ أنهم أمام بحر خضم من الألفاظ العربية التي تحتاج إلى تنظيم وترتيب ، فقموا بمحصرتها أو مسحها على حد تعبير المهندسين ، مع القليل من الشواهد أو النصوص الأدبية حتى يمكن أن يضمها جميعاً كتاب واحد من عدة مجلدات . بل إن منهم من اكتفى بالألفاظ دون شواهدا حرصاً منه على حشد أكبر عدد من تلك الألفاظ في معجمه ، كما فعل الفيروزبادي في معجمه القاموس المحيط .

وتقل أصحاب المعاجم بعضهم عن بعض ، وتأثر بعضهم ببعض ، ولم يكن لديهم من الوسائل ما ييسر عملية الإحصاء والحصص ، كما قصرت همم المتأخرين منهم عن المضي بالتطور المعجمي إلى مداه ، فوقفوا بمواجههم عند طريقة الصحاح في الترتيب والتصنيف . فليس منهم من اتجه إلى البحث في تاريخ الألفاظ

وتطورها جيلاً بعد جيل ، أو القيام بما قام به المحدثون في المعاجم من التمرض إلى الفاحية التاريخية أو الاشتقاقية للفظ . وليس منهم من دلنا على الفاحية البلاغية للألفاظ ، أو وضع لنا مجال اللفظ ومحيط استعماله .

من أجل هذا وغيره من عيوب فكر بعض المحدثين من المستشرقين في وضع معجم عربي حديث تقتبس ألفاظه من النصوص ، وفيه تراعى كل الدراسات الحديثة التي يلاحظها الدارسون في المعاجم الأوروبية .

وأشهر من دعوا إلى هذا المعجم العربي الحديث من المستشرقين بروفسر « فيشر » في تقرير تقدم به إلى الجمع اللغوي ، بين فيه عيوب المعاجم القديمة وما يؤخذ عليها . ويعتينا هنا من هذا التقرير ما قرره « فيشر » بصدد البحث الدلالي للألفاظ . ففي رأيه أن المعاجم القديمة قد اضطربت في شرح مدلولات الألفاظ ، وانصفت بعدم الدقة في هذا الشرح ، كما اختلف أصحاب تلك المعاجم في مدلولات كثير من الألفاظ ، مما أدى إلى سوء الفهم لكثير من النصوص . كذلك يأخذ « فيشر » على معاجمنا القديمة أنها خلت من البحث في تاريخ الكلمة وتطور الدلالة فيها ، وتسجيل أول استعمال لها ، وآخر من استعمالها من الشعراء أو الكتاب ، حتى أواخر القرن الثالث الهجري حيث انتهت عصور الاحتجاج . فلا بد من الدقة في تحديد الدلالات ، والتعرض للدلالات المتعددة للكلمة مرتبة ترتيباً تاريخياً وعقلياً على حسب تفرعها بعضها من بعض . فالدلالة العامة تتطور عادة إلى دلالة خاصة ، والدلالة الحسية تتطور عادة إلى دلالة مجردة .

وفي الحق أن كثيراً جداً من الألفاظ في المعاجم قد أهمل شرحها إهمالاً شليماً ، فجاءت دلالاتها غامضة أو مبتورة ، وبعدت بهذا عن الدقة التي هي من أهم صفات المعجم الجيد . فمن مصنفي المعاجم من كان يكتبني برمز « م » أمام الكلمة مشيراً بهذا إلى أن دلالتها معروفة ، في حين أنها مجهولة لنا الآن جهلاً

تماماً . ومنهم من قنع بوصف الكلمة بعبارة تقليدية غامضة كقوله « نبات في الصحراء » أو قوله « دوية » ، أو « طائر » ، أو « موضع » ، أو نحو ذلك من شروح مختصرة مبقورة لا تسكاد تفيد شيئاً .

ونحن حين نستعرض جهود اللاحقين من مؤلفي المعاجم نرى أنها كانت تؤسس على جهود من سبقوهم ، ونلاحظ أن ما زادوه من مواد أو كلمات إنما عثروا عليه عن طريق المصادفة في نصوص شاردة ، أو سمعوه مصادفة من بعض الأعراب . ولذلك تسكاد تتفق أو تتحد المعاجم في شروحها وتفسيرها لمعانى الألفاظ . وهذا نسوق مثلاً لذلك الانفاق أو الاتحاد لم تتمم تحيره ، وهو كلمة « الرعاف » ، فقد جاء في شأنها بما جئنا القديعة النصوص التالية التي رتبناها ترتيباً تاريخياً :

١ - الجمهرة : ر ع ف الرجل يرْعَف ، يرْعَف رِعْفاً ، والاسم الرعاف .
والرعاف الدم بعينه . وأصل الرعاف التقدم من قولهم فرس راعف أى متقدم ،
فكان الرعاف دم سبق فتقدم !

٢ - تهذيب اللغة للأزهري :

..... وقيل للدم الذي يخرج من الأنف « رعاف » لسبقه علم الراعاف
..... وقال الليث الراعاف أنف الجبل وجمه الرواعف ، والراعاف طرف
الأرنبة . أبو عبيد والأصمعي رَعَف (كنع ونصر) أبو حاتم عن الأصمعي
رَعَف (كنع ونصر) ولم يعرف رُعَف ولا رُعِف في فعل الرعاف .

٣ - الصحاح للجوهري :

الرعاف الدم يخرج من الأنف ، وقد رَعَف الرجل يرْعَف ويرْعَف ورُعَف
بالضم لغة ضعيفة والراعاف الفرس الذي يتقدم الخيل . والراعاف طرف
الأرنبة وأنف الجبل .

٤- لسان العرب لابن منظور

الرُعْفُ السَّبْقُ ٠٠ ورُعْفُهُ يرُعِفُهُ رُعْفًا سَبْقُهُ ٠٠ والرُعَافُ دم يسبق من الأنف .
رُعِفَ يرُعِفُ ويرُعِفُ رُعْفًا ورُعَافًا . ورُعِفَ ورُعِفَ ، قال الأزهرى ولم يعرف
رُعِفَ ولا رُعِفَ في فعل الرُعَافِ . قال الجوهري ورُعِفَ بالغم لغة فيه ضعيفة ٠٠
والرُعَافُ الفرس الذى يتقدم الخيل ، والرُعَافُ طرف الأرنبة ٠٠ والرُعَافُ أنف
الجبَلِ .

٥- القاموس المحيط للفيروزبَادِي .

رُعِفَ كغصير ومنع وكرم وعنى وسمع خرج من أنه الدم رُعْفًا ورُعَافًا
كغراب . والرُعَافُ أيضاً الدم بعينه . ورُعِفَ الفرس كمنع ونصر سبق والرُعَافُ
طرف الأرنبة وأنف الجبل والفرس يتقدم الخيل !!

فانظر إلى هذه النصوص تجد وجه الشبه بينها واضحاً جلياً ، فالرُعَافُ في
رأيهم جميعاً الدم يخرج من الأنف ، ولم يعبأ أحدهم بكلمة مثل « يسيل من
الأنف » ، والرُعَافُ عندهم جميعاً الفرس يتقدم الخيل ، ولم يقل أحدهم يسبقها
مثلاً !! وهو « أنف الجبل » ولم يصفه أحدهم بأنه الجزء البارز في مقدمة
الجبل مثلاً !! وهو طرف الأرنبة عندهم جميعاً !!

وهكذا نرى أن الرجوع إلى المعاجم القديمة لا يجدى كثيراً في بحث دلالة
الألفاظ وتطور الدلالة . (من الواجب على الباحث في دلالة اللفظ العربى الرجوع
إلى النصوص القديمة في الأدب العربى ، والاهتمام بهديها ، ودراسة الدلالة على
ضوئها . وقد قمنا بجولة في ألفاظ الشعر الجاهلى وجمعنا قدراً كبيراً منها مقتبسة
من نصوصها ، ثم كان لنا فيها رأى بعد تبويبها في صورة معجم صغير . وسنعرض
لهذا في فرصة قادمة إن شاء الله .

تم بحمد الله

مراجع ورد ذكرها في الكتاب

أفريقية :

- 1— Carnap, Rudolf :
The Logical Syntax of Language.
- 2— Bréal, Michel :
Essai de Semantique.
- 3— Schlauch, Margaret :
The Gift of Tongues.
- 4— I. A. Richards. &, C.K. Odgen :
The Meaning of meaning.
- 5— P.V. Bridgeman :
The intelligent individual and society.
- 6— Arnold, Thurman :
The folklore of Capitalism.
- 7— Stuart Chase :
Tyranny of words.
- 8— Korzybski, Alfred :
Science and Sanity.
- 9— Otto Jespersen :
Mankind, Nation and Individual, from a linguistic point
of View.
- 10— Otto Jespersen :
Language, its Nature, development and Origin.
- 11— Mario Pei :
The Story of Language
- 12— Bloomfield, Leonard :
Language.
- 13— J. Vendryes :
Language, a linguistic Introduction to history.
- 14— M.M. Lewis :
(1) Infant Speech.
(2) Language in Society.

- 15 — E. Sapir :
Language.
- 16 — R. A. Wilson :
The Miraculous birth of language
- 17 — A. Werner :
Language — families of Africa.
- 18 — S R. Driver
An introduction of the literature of the Old Testament.
- 19 — Gesenius :
Hebrew Grammar.
- 20 — Ch. Bally :
Le langage et la Vie.
- 21 — W.H. Bleek :
Comparative Grammar of South African Languages.
- 22 — J.B. Greenough and G. L. Kittredge :
Words and their ways in English Speech.
- 23 — F. de Saussure :
Cours de Linguistique Générale
- 24 — H. Sweet :
The History of Language.
- 25 — W.D. Whitney :
Life and Growth of Language.
- 26 — A. Darmesteter :
La vie des mots.
- 27 — H. Fletcher :
Speech and hearing.
- 28 — G.H. Mc-Knight :
English words and their background.
- 29 — Ribot :
L'évolutions des idées Générales.

ثانيا : عربية :

- ١ — أمرار البلاغة : لعبد القاهر الجرجاني
- ٢ — إعجاز القرآن : للباقلاني
- ٣ — أدب الكاتب : لابن قتيبة
- ٤ — إصلاح المنطق : لابن السكيت
- ٥ — الأصوات اللغوية : للدكتور إبراهيم أنيس
- ٦ — الإنباع والمزاوجة : لابن فارس
- ٧ — الألفاظ الكتابية : لعبد الرحمن الممداني
- ٨ — الاشتقاق : لابن دريد
- ٩ — أصول النقد الأدبي : لأحمد الشايب
- ١٠ — الأشباه والنظائر : لأبي البركات بن الأنباري
- ١١ — الألفاظ المترادفة : لأبي الحسن الرماني
- ١٢ — البيان العربي : للدكتور بدوي طبانة
- ١٣ — بدائع القرآن : لابن أبي الإصبع
- ١٤ — التعريفات : لعلي بن محمد الجرجاني
- ١٥ — التربية عند العرب : خليل طوطح
- ١٦ — تيارات أدبية : للدكتور إبراهيم سلامة
- ١٧ — تأويل مشكل القرآن : لابن قتيبة
- ١٨ — تهذيب الألفاظ : لابن السكيت
- ١٩ — تلخيص البيان في مجازات القرآن : للشريف الرضا
- ٢٠ — تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية : القس طوبيا العنيسي

- ٢١ - الجبر والمقابلة : للخوارزمي ، نشر وتحقيق الدكتورين
على مشرفة ، ومحمد مرسي أحمد
- ٢٢ - جواهر الألفاظ : لقدامة بن جعفر
- ٢٣ - الخصائص : لابن جني
- ٢٤ - دائرة المعارف الإسلامية .
- ٢٥ - زهر الآداب : للحصري
- ٢٦ - شفاء الغليل : للخفاجي
- ٢٧ - الشعر والشعراء : لابن قتيبة
- ٢٨ - شروح الفناخيص .
- ٢٩ - سور البديع : لعلي الجندی
- ٣٠ - « الصاحبي » في فقه اللغة : لأحمد بن فارس
- ٣١ - صبح الأعشى : للفتاح شندی
- ٣٢ - « العربية » : يوهان فلك ترجمة الدكتور عبدالمليم الفجار
- ٣٣ - العرب والأمبراطورية العربية : لبروكلمان ترجمة الدكتور نبيه فارس
ومنير البعلبكي
- ٣٤ - العمدة : لابن رشيق
- ٣٥ - علم اللغة : للدكتور علي عبد الواحد وافي
- ٣٩ - القريب المصنف : لأبي عبيد
- ٣٧ - فقه اللغة : للشمالي
- ٣٨ - الفروق اللغوية : لأبي هلال العسكري
- ٣٩ - فتوح البلدان : للبلاذري
- ٤٠ - القاب والإبدال : لابن السكيت
- ٤١ - كتاب الجيم : لأبي عمرو الشيباني

- ٤٢ - كتاب النوادر : لأبي زيد الأنصاري
 ٤٣ - اللهجات العربية : للدكتور إبراهيم أنيس
 ٤٤ - المختص : لابن سيده
 ٤٥ - المثل السائر : لابن الأثير
 ٤٦ - المختصر في اللغة العربية الجنوبية القديمة :
 للمستشرق جويدي
- ٤٧ - معجم البلدان : لياقوت
 ٤٨ - مقاييس اللغة : لابن فارس
 ٤٩ - من أسرار اللغة : للدكتور إبراهيم أنيس
 ٥٠ - الزهر : للسيوطي
 ٥١ - المقابسات : لأبي حيان التوحيدي
 ٥٢ - موسيقى الشعر : للدكتور إبراهيم أنيس
 ٥٣ - المعجمة العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية
- : للآب مرمجي الدومنيكي
- ٥٤ - مجاز القرآن : لأبي عبيدة
 ٥٥ - الموشح : للبرزباني
 ٥٦ - الموازنة بين الطائيين : للآمدى
 ٥٧ - الفضليات : للمفضل الضبي
 ٥٨ - مناهج البحث اللغوي : للدكتور تمام حسان
 ٥٩ - مبادئ اللغة : للآسكافي
 ٦٠ - المحكم في أصول الكلمات العامية : لأحمد عيسى
 ٦١ - المرافعات في أشهر القضايا : للمحمود عاصم
 ٦٢ - معاجم عربية قديمة مرتبة ترتيباً تاريخياً :

- (١) كتاب العين (٢) الجمهرة (٣) ديوان الأدب للفارابي (٤) البارع
للقالي البندادي (٥) تهذيب اللغة للأزهري (٦) مختصر العين للزبيدي
(٧) المحيط للصاحب بن عباد (٨) الصحاح للجوهري (٩) الجمل لابن فارس
(١٠) المحكم لابن سيده (١١) أساس البلاغة للزمخشري (١٢) العباب
للساغاني (١٣) لسان العرب لابن منظور (٤) القاموس المحيط للفيروز بادي.

الفهرس

الصفحة

١٢ - ١

المقدمة :

نبذة مريضة عن دراسة الفلاسفة لدلالة الألفاظ ، ودراسة أصحاب علم النفس لها . مسلك اللغويين في هذه الدراسة الدلالية . تطورها في العصر الحديث وأشهر ما ألف فيها . صراع الإنسان مع تلك الدلالات .

٣٧-١٣

الفصل الأول : نشأة الكلام

- (١) المحاولات الأولى للاهتمام إلى النشأة .
- (٢) رأى علماء العرب في نشأة اللغة : أدلة القائلين بأنها توقيفية ، وأدلة أصحاب الاصطلاح والعرف فيها .
- (٣) أشهر النظريات في نشأة الكلام الإنساني لدى اللغويين الأوربيين .
- (٤) آخر ما اهتمت إليه اللغويون بصدد النشأة الكلامية : وجوب الاستئناس بلغة الطفل ولغة البدائيين في هذه الدراسة ، وبأطوار اللغة الإنسانية في المصور التاريخية .
- (٥) صورة خيالية لما كانت عليه لغة الإنسان الأول .

٦١ - ٣٨

الفصل الثاني : الدلالة : أداها ، أنواعها ، فهمها

- (١) بين اللفظ والكلمة : الفرق بينهما لدى النحاة . هل للكلمة حدود صوتية تميزها في الكلام المتصل ؟ اختلاف اللغويين الأوربيين في ذلك ، وفي تعريف الكلمة .

٢- أنواع الدلالات :

(١) الدلالة الصوتية وهي مستمدة من عمليات النطق ومن طبيعة بعض الأصوات في المنطوق به ، ومن النبر الذى تتغير له الدلالة ، ومن النغمة الكلامية .

(ب) الدلالة الصرفية ، وهي مستمدة من الصيغ وبنية الكلمات .

(ح) الدلالة الاجتماعية وهي مفهوم الكلمة المستقل عن أصواتها وبنيتها والذى على أساسه يتم التفاهم بين أفراد المجتمع .

٣- كيف يتم الفهم بين المتكلم والسامع :

(١) العمليات العضوية والعمليات النفسية التى تسبق النطق وتعتمد للفهم ، عملية النطق ، ثم ما يترتب عليها من أعمال أو تصرفات ، كل هذا ضرورى لتمام الفهم لأى حدث لغوى .

(ب) ماذا يدور فى الذهن لدى سماع الكلام : رأى الروحانيين ، ومذهب الماديين فى ذلك .

١- نظرة فلاسفة اليونان : اختلافهم بين الصلة الطبيعية ، والصلة العرفية .

٢- نظرة علماء العرب : تأثرهم بأراء فلاسفة اليونان .
ابن جنى وربطه بين الألفاظ والدلالات فى فصول أربعة من كتاب الخصائص . أصحاب المدرسة الاشتقاقية بين علماء العرب .

صفحة

٣- رأى المحدثين من اللغويين الأوربيين : جسر سن وعرضه لآراء اللغويين ، وتبنيه لفكرة الربط الوثيق بين اللفظ ودلالته . المواضع التي تتوثق فيها هذه الصلة في رأى جسر سن .
ليس الربط طبيعياً ذاتياً ولكنه ربط مكتسب .

٨٩ : ٧٥

الفصل الرابع : استيعاء الدلالة من الألفاظ : —

١- توحى أصوات اللفظ المجهول الدلالة لذهن المرء بمعنى خاص يستقبط على أساس ما في ذهن من ألفاظ أخرى .

٢- نسج الأصوات في كل لغة .

٣- نتائج بعض التجارب التي أجريت لبيان وحى الأصوات .

٤- وحى الأشكال ، ونتائج بعض التجارب عليها .

١٠٥ : ٩٠

الفصل الخامس : اكتساب الدلالة ونموها : —

١- لدى الأطفال :

ربط الطفل بين ما يسمع من ألفاظ وما يرى من أحداث .
الفهم يسبق النطق لدى الأطفال . مرحلة العامية في الدلالة .
تعثر الأطفال في الاهتمام إلى الدلالة الكلية ومرحلة التعميم .
أنواع الدلالات التي تشق على الأطفال .

السيطرة على أصوات اللغة وتركيب جملها تسبق السيطرة على دلالات ألفاظها التي تتجدد وتتغير مع الزمن . أسبق الألفاظ إلى ذهن الطفل . المجازات العامة التي تنشأ دون جهد أو عناء بين أفراد البيئة ، وأثر هذا في استعمالات الألفاظ .

منوعة

اختلاف الدلالة لدى الأطفال باختلاف تجاربهم مع الألفاظ .
الدلالة في الأمم البدائية تشبه الدلالة لدى الأطفال في المراحل الأولى . أمثلة من ملاحظات الدارسين لبعض الأمم البدائية في استراليا وأفريقيا .

٢- الدلالة لدى الكبار : —

اللفظ ، الشيء ، الصورة الذهنية .
اختلاف الصور الذهنية باختلاف تجارب الأفراد في الحياة .
عسر الاهتمام إلى الدلالة الدقيقة ، وقناعة الناس بالدلالة القاصرة . التحديد العلمي للدلالات . موقف المعجم اللغوي من الدلالات .

١٠٦ : ١٢١

الفصل السادس : المركز والهامش في الدلالة

معنى الدلالة المركزية المشتركة بين أفراد البيئة .
معنى الدلالة الهامشية ونشأتها من التجارب المختلفة للأفراد . أمثلة متعددة لتوضيح الفرق بين الدالتين .

دور الدلالة في المجال السياسي .

صراع القانونيين مع دلالة الألفاظ : أمثلة لبعض القضايا المشهورة في تاريخنا الحديث ، وبيان دوراتها حول دلالة لفظ من الألفاظ .

أثر الدلالة الهامشية في النقد الأدبي : أمثلة من نقد القدماء للنصوص الأدبية . الدلالة الهامشية لكلمتي « الخير والسعادة » عند الأستاذ العقاد .

ص ١١٢

١١٢ : ١٣٣

الفصل السابع : تطور الدلالة

١ - ظاهرة التطور : يدركها كل دارس للنصوص التاريخية في لغة من اللغات . أمثلة كثيرة من الكلمات الدارجة في لهجات الخطاب بعصر ، ومقارنة دلالاتها بما كانت عليه في اللغة الفصحى .

٢ - الحقيقة والمجاز : الحقيقة والمجاز مظهر من مظاهر التطور الدلالي . نظرة القدماء للحقيقة والمجاز . شرط المجاز لدى المحدثين هو الغرابة والطرافة . متى يصبح المجاز حقيقة . النظرة التاريخية للمجاز والنظرة المعاصرة . إسراف الترخيش في فكرة الحقيقة والمجاز ، وأمثلة من معجمه أساس البلاغة .

١٣٤ : ١٥١

الفصل الثامن : عوامل التطور في الدلالة : -

١ - الاستعمال : دوران الكلمات على الألسنة سبب من أسباب التطور .

عناصر الاستعمال : -

(أ) سوء الفهم ، قد يؤدي إلى تطور اللفظة في الدلالة .
البيئات التي يتم فيها عادة تطور اللفظة وأمثلة هذا .

(ب) بلي الألفاظ ، وما يصيب بنيتها من انكماش ، وأصواتها من تغير ، وأمثلة هذا في بعض اللغات .

(ح) الابتذال ، تغير نظرة المجتمع إلى دلالة بعض الألفاظ .
بتوالي المصور . أوضح الحالات لهذا : ١ - الألقاب والرتب

صفحة

الاجتماعية ٢- ألفاظ التريزة الجنسية ٣- ألفاظ الموت والأمراض والكوارث .

٢- الحاجة : التطور المقصود المتعمد في الدلالة .

عناصر الحاجة إلى تطور الدلالة : ١- التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي يستلزم كلمات للتعبير عن الدلالات الجديدة . الحصول على هذه الكلمات إما بإحياء ألفاظ قديمة وخلعها على الدلالات الجديدة ، أو باستعارة الألفاظ الأجنبية . أمثلة من ذلك في عصرنا الحديث . . دور الاستعارة للألفاظ الأجنبية في لغات مختلفة .

١٥٢ : ١٦٧

الفصل التاسع : أعراض التطور الدلالي

للتطور في الدلالة أعراض ومظاهر تشبه أعراض المرض ومظاهره : —

١ — تخصيص الدلالة : تطور الألفاظ من دلالة عامة إلى دلالة خاصة . وضوح هذا في الأمم البدائية وبين الأطفال ، أمثلة من ذلك .

٢ — تعميم الدلالة : انتقالها من الخاص إلى العام . قلة شيوع هذا المرض في التطور الدلالي . أمثلة هذا .

٣ — انحطاط الدلالة : ما يصيب الدلالة من ضعف وأثر ذلك في انحطاطها . أمثلة لهذا المرض في العربية والإنجليزية .

٤ — رقي الدلالة : قد يسعد اللفظ فترقى دلالاته . ندرة هذا في تطور الدلالات ، أمثلة لهذا المرض .

منحة

٥- تنيير مجال الاستعمال : هذا الغرض هو ما يسمى بالمجاز .

دواعى المجاز : (١) توضيح الدلالة . (ب) رقى الحياة العقلية . تنير مجال الدلالة المحسوسة إلى المجال المجرد للدلالات ، أو العكس . متى يتم هذا أو ذاك ، أمثلة لكل منهما .
الاتقال من المحسوس إلى المحسوس ، أمثلة هذا فى اللغة العربية .

١٨٦ : ١٦٨

الفصل العاشر : دور الدلالة فى الترجمة : —

١ - تمت الترجمة بين اللغات فى العصور القديمة والحديثة .

٢ - أهم الدوافع إلى الترجمة .

٣ - نظرة بعض علماء العربية إلى الترجمة فى القرنين الثالث والرابع من الهجرة .

٤ - نظرية عبد القاهر الجرجانى فى الترجمة : رأيه فى الاستعارة المفيدة وغير المفيدة وترجمة كل منها ، وأمثلة فى هذا .

٥ - مشاكل الترجمة : من ناحية هندسة الجمل ، ومن ناحية جمال اللفظ ، ومن ناحية الدلالة .

٦ - أثر الظلال الدلالية فى الترجمة .

٧ - ترجمة العلم وترجمة الأدب . تحمل اللفظ فى الأسلوب الأدبى بفيض من الصور والأخيلة وظلال المعانى .

٨ - ترجمة النصوص الدينية ومشقتها .

صفحة

٩- الترجمة السبعينية للعهد القديم : تاريخها ، أشهر الروايات فيمن قاموا بها . نظرة اليهود لها ونظرة المسيحيين .

١٠- أشهر التراجم الأخرى للعهد القديم إلى اللغة اليونانية .

١١- التراجم القرآنية إلى الإنجليزية :

ترجمة جورج سيل ، رودويل ، بلهار ، محمد علي الباكستاني ، بكثال ، يوسف علي .

١٢- نماذج من هذه الترجمات الستة : اختلاف المترجمين في تخير بعض الألفاظ . نتيجة اختلاف تجاربهم مع الألفاظ .

١٣- عرض سريع لجهود علماء العربية في بيان فنون البلاغة القرآنية ، رأى أبي عبيدة ، رأى ابن قتيبة ، رأى الباقلائي ، رأى الشريف الرضي ، رأى ابن أبي الإصبع .

الفصل الحادى عشر : نصيب الألفاظ العربية من الدلالة : - ١٨٧ : ٢٢٤

١- أمية العرب . معنى كلمة الأمى في الاستعمال القرآنى . شيوع الأمية لدى العرب الجاهليين وأدلة هذا . موقف اليهود حول يثرب من اللغة العربية والكتابة العربية .

٢- الأمية والثقافة اللغوية : الأدب الجاهلى مرحلة فاضحة في تطور الأدب العربى . لم تمنع الأمية العرب أن يكونوا ذوى ثقافة لغوية . الثقافة اللغوية عن طريق السمع وأثر هذا في موسيقية الأدب . موقف القارىء وموقف الأمى من حدود الكلمات .

٣- موسيقية الأدب العربي : اعتماد العرب على الأذن جعلها مرهفة وقادرة على التمييز بين الأصوات .

الشاعرية العربية بلغت بألفاظ اللغة أسمى درجات الموسيقية . أثر ازدهار الأدب في ظل الأمية . الموسيقية أهم ما يتميز به أدب المكفوفين . وحدة القصيدة العربية في موسيقاها . عناية نقاد العرب بكل بيت على حدة . عرض سريع لقضية اللفظ والمعنى . مظاهر الموسيقية في شعر القدماء وخطبهم وأمثالهم .

الإتباع والزوجة وأمثلته في كتاب ابن فارس .

٤- أثر الأمية في وصل الكلام :

الصورة السمعية للكلمة والصورة المكتوبة لها . قوة ترابط الكلمات لدى الأمي . الحركات الرابطة بين الكلمات في بعض الحالات . أثر هذا في نشأة الحركات الإعرابية : إسكان أو آخر بعض الكلمات لا يخل بالوزن الشعري . أمثلة هذا في أربعة من أشهر البحور . الحركات الإعرابية ضرورة صوتية . أثر قانون الـ Vowel-harmony في حركات الإعراب .

٥- أثر الأمية في أدلة الألفاظ : كثرة الترادف في اللغة العربية . المشترك اللفظي وقلته نسبياً . موقف القرآن من المترادفات والمشارك اللفظي . أشهر كتب الترادف والاشتراك اللفظي . غموض الدلالة وميوعة حدودها في كثير من الألفاظ العربية .

٦- صراع علماء العربية مع دلالة الألفاظ :

كتاب أبي الحسن الرماني (الألفاظ المترادفة) ، أمثلة منه تبين المغالاة والإسراف في فكرة الترادف .

صفحة

كتاب الأجناس لأبي عبيد ، أمثلة منه لبيان الإسراف
في المشترك اللفظي .

كتاب « الفروق اللغوية » لأبي هلال العسكري ، أمثلة
منه لبيان اختلاف مذهبه عن مذهب الرماني .

كتاب « التعريفات » لعلي بن محمد الجرجاني يعمد مثل كتاب
أبي هلال .

نصوص من المختص لابن سيده ، وتهذيب الألفاظ لابن
السكيت ، والألفاظ الكتائية لعبد الرحمن الهمداني ، وجواهر
الألفاظ لقدامة بن جعفر ، وكلها توضح صراع هؤلاء مع
دلالات الألفاظ .

٢٢٥ : ٢٥١

الفصل الثاني عشر : كنوز الألفاظ العربية

١ — طبقات اللغويين الذين ساهموا في نشأة المعاجم العربية

(أ) الطبقة الأولى ١ — بصريون : أبو عمر بن العلاء .
عيسى بن عمر القفقي . أبو الخطاب الأخفش . الخليل بن أحمد .
يونس بن حبيب . خلف الأحمر .

٢ — كوفيون : الفضل الضبي حماد الراوية .

(ب) الطبقة الثانية : أصحاب الرسائل والكتيبات الخاصة
بالألفاظ : أبو زيد الأنصاري . الأصمعي . أبو عبيدة . الفضر بن
شميل . اليزيدي . أبو عمر الشيباني .

(ح) الطبقة الثالثة : أبو حاتم السجستاني . أبو عبيد .

ابن السكيت . ابن الأعرابي . ابن سلام . أبو عمرو شمر المروزي

منحة

(١) الطبقة الرابعة : أصحاب المعاجم بالمعنى المألوف لنا :

ابن دريد . ابن الأنباري . الهمداني . قدامة بن جعفر .
القالي البغدادي . الأزهرى . الزبيدي . صاحب بن عباد .
الجوهري . ابن فارس .

٢ — أشهر المعاجم العربية القديمة :

(١) كتاب العين ، مؤلفه ، ما وجه إليه من طمن ،
طريقته في التبويب والتصنيف .

(٢) معجم الجمهرة ، طريقته في التبويب ، وجوه الشبه
بينه وبين كتاب العين .

(٣) معاجم القرن الرابع الهجرى . ديوان الأدب للفارابى
البارع للقالي البغدادي ، تهذيب اللغة للأزهرى ، مختصر العين
للزبيدي ، المحيط للصاحب بن عباد ، الصحاح للجوهري ،
المجمل لابن فارس .

(٤) أشهر المعاجم بعد القرن الرابع الهجرى .

المحكم لابن سيده ، أساس البلاغة للمزغشرى ، العباب
للصاغاني ، لسان العرب لابن منظور ، قاموس الفيروزبادى ،
تاج العروس .

٣ — دلالة الألفاظ في المعاجم العربية :

قصورها في الشرح الدقيق ، واعتماد أصحابها بعضهم على
بعض . الحاجة إلى معجم تاريخى حديث . تقرير « فيشر » .
نماذج من المعاجم المختلفة .

الطبعة الفنية المحدث
توزيع الماسح الإلكتروني ٨٦٤٨٩

رقم الايداع ٧٦/٤٠٥٤
رقم الدول ٨ - ٠٦٢ - ٤٦٦ - ٩٧٧